رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

العلاقات الأسرية في شعر العصر العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري

تأليف الدكتورة أمل نصير

تم بدعم من
وزارة الثقافة
عمان - الأردن

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

العلاقات الأُسريّة

في شعر العصر العباسي
حتى نهاية القرن الثالث الهجري

تأليف
د. أمل نصير
أستاذ مشارك ــ جامعة اليرموك

دار الإسراء للنشر والتوزيع
عمان – الأردن

تم بدعم من
وزارة الثقافة
عمان - الأردن

حقوق الطبع محفوظة لدى دار الإسراء للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى: ٢٠٠٥

رقم الإيداع لدى المكتبة الوطنية (٢٠٠٥/٨/ ٢٠٥٣)

٨١١,٥٣
نصير ، أمل
العلاقات الاسرية في شعر العصر العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري/ تأليف: أمل نصير. _ عمان: دار الإسراء، ٢٠٠٥.
ص (٢٢٤)
ر . إ : (٢٠٠٥/٨/ ٢٠٥٣).
الواصفات: /

* تم إعداد بيانات الفهرسة الأولية من قبل المكتبة الوطنية.

(الآراء الواردة في الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن رأي الجهة الداعمة)

دار الإسراء للنشر والتوزيع
عمان – الأردن
جبل عمان - ت: ٤٦١٤٥٩١
العبد لي ت: ٤٦٢٠٧١١ ص.ب.١٨٢٤٤١
E-mail:Esraa_Jordan@hotmail.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الإهـــداء

إلى أمهات الأسرى والشهداء في فلسطين

آه .....

يا وطني.....

وآه.....

يا ولدي.....

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

شكـــــر

أتقدم بالشكر إلى ابنتي.....

لما بساه نصير على مساعدتها لي في طباعة

هذا الكتاب وإخراجه

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

تقديم

بقلم: الأستاذ الدكتور عبد القادر الرباعي

الأسرة؛ هذا الكيان الإنساني الصغير الخطير الذي باستوائه أو اختلاله يستوي بناء المجتمع كله أو يختل؛ لذا حرصت الشرائع السماوية، والقوانين الأرضية على أن تحوطه بنصوص ترعاه وتحفظ له استقامته، وتقوي عمارته، وتعزز وشائج القربى بين أفراده؛ كي يتم التواصل ، ويكتمل الوئام بالتواد والتراحم، فيكون للحياة داخله مذاق طيب، ومعشر جميل.

الأسرة هذه، بالأوصاف السالفة الذكر، كانت تعيش مع الدكتورة أمل نصير حين أبدت إليّ رغبتها في أن تجعلها موضوع رسالتها للماجستير، وأن تقف على ما أوحته هذه الأسرة للشعراء العباسيين من مشاعر وأفكار، وما حفظته لغة شعرهم فيها من قيم أخلاقية، وأساليب فنية.

لقد أحسستُ، وهي تبدي رغبتها تلك، أن وراء حماستها الشديدة في اقتحام موضوع شائك لم يطرقه – في حدود علمي– أحد قبلها، أمراً يدعو للعَجَب. ولما عدت بذاكرتي إلى الأيام الأولى التي التحقت هي فيها بجامعة اليرموك، وما تلاها من سنين، زال العَجَب من نفسي ، بل تحول إلى عُجْب – حسب لغة شاعري أبي تمام.

كانت قد دخلت الجامعة وهي متزوجة، ثم كونت أسرة متآلفة متحابة في أثناء دراستها الجامعية الأولى التي تخرجت منها وهي تحمل شهادتين بامتياز: أولاهما نجاحها الباهر في رعايتها أسرتها المتحابة، وثانيتهما: نجاحها المتفوقِ في تحصيلها العلمي. إن هذا النجاح الموفق في المجالين معاً دفعها إلى أن تنمي طموحها الذي حملته معها منذ الدراسة الثانوية : وهو الوصول في العلم إلى مداه الأبعد: " دكتوراة في الأدب العربي". وقد زاد من اتقاد شعلة هذا الطموح تفهم أسرتها وتشجيعها ، وليس ذلك بغريب على أسرة ربّانها طبيب بارع، ومثقف واع.

واستمرت الدكتورة أمل تكافح للتوفيق بين مسؤولياتها الأُسرية، وواجباتها الدراسية حتى حققت طموحها فغدت تحمل درجة الدكتوراه؛ ولكن بكثير من الجلَد والمعاناة من جهة، وكثير من الرضا والسعادة من جهة أخرى؛ فكانت وما زالت نموذجاً للمرأة القديرة التي يمكنها أن تحقق بمثابرتها وصبرها ما يعجز كثير من الرجال عن تحقيقه.

نعم، هذه هي خلفية إصرار الدكتورة أمل على أن تكون الأُسرة بعلاقاتها الحميمة موضوعاً لرسالتها في الماجستير. وكان لها ما أرادت . لكن موضوعاً كهذا الموضوع البكر يحتاج إلى جهد كبير في تتبع مادته وجمعها من مظانها في المصادر القديمة التي تتخطى دواوين الشعراء إلى الكتب الأدبية والتاريخية والفلسفية والاقتصادية وغيرها.

كما أنّ هذه المادة – وهي كثيرة ومتناثرة – تحتاج، بعد جمعها، إلى عقلية نابهة ومنظمة تصنف وتنسق وتحلل وتبوب، ثم هي – فضلاً على ذلك – بحاجة إلى وقت يسعف في إنجاز ذلك كله بكفاءة وتميز؛ فكيف وليس هناك من وقت إلا ما تقتطعه من واجباتها الأُسرية؟! ومما زاد من عنائها أنها ابتعدت عن جامعتها وعن مشرفها أكثر من سنة في صحبة أسرتها وزوجها الذي أوفد في مهمة إلى بريطانيا؛ لذا لم تكن هناك وسيلة للمشورة العلمية إلا عبر الهاتف أو البريد.

إن كل هذه العقبات – على صعوبتها وقسوتها – لم تفت في عزم الدكتورة أمل بل زادتها إيماناً بنبل مقصدها، وإصراراً على مواصلة التحدي لنيل الدرجة العلمية في الموضوع الذي اختارته عن قناعة واطمئنان. ومن المؤكد أن ذلك الإيمان وهذا الإصرار قد عززا لديها القدرة الذاتية على معالجة موضوع "الأسرة" في العصر العباسي بكل ما تطلبه من أصالة في البحث، وطرافة في الاستنتاج، وعمق في التفكير، وبراعة في التحليل، وسلامة في اللغة، وسلاسة في الأسلوب، وحسن أداء في التنظيم والتبويب والتوثيق.

إنك لتحس – فضلاً عن التميز في الإنجاز – بصوت المرأة المميز في كل الموضوعات التي توزعتها فصول الرسالة (الكتاب)؛ فالأزواج، والأمهات، والآباء، والأبناء، والإخوة، قضايا في الحياة والوجود، وهي التي شكّلت فصول الكتاب الرئيسة؛ لكن دراسة المرأة لها قد تمنحها طعماً خاصاً، خصوصاً إذا كانت هذه المرأة زوجةً وأماً وابنة وأختاً معاً.

وهـذا بذاتـه هو الذي انطبق على حالة الدكتورة أمل، ثم إن هذا نفسه هو الذي ترك أثراً حميداً بيّناً على معالجتها لكل حالة أو موضوع مما سلف، سواء في تحليل الشعر تحليلاً موضوعياً دقيقاً، أم في قراءته قراءة شمولية عميقة.

فالشـعر الذي تدرسه في هذا الكتاب شعر نبت في بيئة قديمة، وهو يحمل مفاهيم أسرية كانت سائدة في مجتمع لـه منطلقاته الخاصة في الزواج من الحرائر والإمـاء، ومـا نـتج عن ذلك من مشكلات لدى الزوجات، والأمهات، والأبناء، والإخوة. وحين تعالج المسألة معالجة حديثة بمفاهيم مختلفة، فإن هذه المعالجة قد لا تـتوقف عند حدود الظاهرة كما كانت فحسب، وإنما يتبعها أو يسير معها رأي ناقد محـدث يرى الأمور على غير ما كانت عليه. وإذا كان هذا الرأي رأي امرأة فإن نقدها قد يكون أشد حساسية، وأكثر ميلاً للمثالية التي ترى أن إيجادها واقعاً حياً أمر ضروري، بل لازم.

إنّ هـذا لا يعني أن دراسة الأسرة في هذا الكتاب محكومة بعاطفة المرأة على حساب موضوعية الباحثة؛ ولكنها دراسة اكتسبت من روح المرأة وحساسيتها لونـاً خاصـاً مفعمـاً بالإحساس اليقظ حول كل الموضوعات الخاصة بالعلاقات الأسرية؛ فبمسؤولية الباحثة الجادة كانت الدكتورة أمل تبرز الجوانب الإيجابية لكل علاقـة وتتحمس لها حماسة معقلنة، لكنها أيضاً لم تكن تهمل الإشارة إلى العلاقات السـلبية، أو مـا أسمتها بمواطن الإثارة، فتتحمس لما يتضاد معها حماسة معقلنة أيضاً.

وهكـذا نجد في الكتاب البياض والسواد مبسوطين معاً فوق أرضية واحدة محكومـة بـذات نـاقدة تريد إرادة واعية ومسؤولة أن يكون لها شخصيتها الناقدة والصـريحة فـي آن معـاً. وإذا أردنا أن نعبر عن ذلك بكلمة موجزة قلنا: كانت الدكتورة أمل في كتابها هذا تحاور بكفاءة علمية وحساسية ذاتية: فتوافق عن رضا واقتـناع ، وتخـالف عن رضا واقتناع. إنك، وأنت تقرأ هذا الكتاب، أمام دراسة مثـيرة تحمـل سمة الإبداع في جوهر البحث، والثقة بصفاء الرؤية، والقدرة على ابتكار الرأي، والتبصر في استنباط الأحكام.

لقـد ابتهجـت حيـن تلقيـت مـن الدكتورة أمل عزمها على نشر كتابها هـذا:"الأسرة وعلاقاتها في الشعر العباسي" فطالما حثثتها على ذلك. ثم إن رغبتها إلـيّ فـي أن أكتب تقديماً لـه قد حفزني على أن أسطر في هذا التقديم بعض ما

أخــتزنه عــن تجــربة اليرموك الفذة في صناعة البحث العلمي، وتكوين الباحثين والعلماء المميزين.

كم يَسْعَد أستاذ الجامعة حين يرى طلبته النابهين وقد ارتقوا في معارج العلم فحققــوا بســعيهم الــدؤوب، وعزيمتهم القوية آمالهم العراض التي كانوا في أيام طفولتهم الجامعية يبسطونها أمامه خيالات وأحلاماً!

إننا، أساتذة اليرموك، نفرح فرحاً غامراً ونحن نجالس زملاء لنا، هم اليوم دكاترة أفذاذ، بل أساتذة نسور كانوا في أيام الجامعة الأولى طلاباً يلتفون كالعصافير حولــنا ، يلتقطون حبات العلم حبة حبة ممزوجة بماء صاف نمير هو ماء الاهتمام والمحــبة. إنهم أُسد اليرموك وغزلانها الذين أسعدونا بمحبتهم لنا أبناء، فأسعفناهم برعايتنا لهم آباء.

والدكــتورة أمــل واحدة ممن أُنبتتهم اليرموك في أرضها الخصبة الممراع، فنمــت باستعدادها الفطري للنماء، وبرعاية أساتذتها الذين دأبوا على تشجيع أمثالها من المبدعين الأذكياء. وها هي اليوم تطرح ثمار نمائها ذاك كتباً وبحوثاً ينهل منها طلابها أبناء اليرموك وبناتها : فكراً ومعرفة وعلماً.

يسعدني في نهاية هذا التقديم، الذي تداخل فيه العلم مع الحياة بتناغم خلاّق، أن أُهنىء الدكتورة أمل على نشر هذا الكتاب القيم الذي يرفد كتابها السابق:"صورة المرأة في الشعر الأموي": وإنني على ثقة بأنَّ القارئ الكريم سيستقبله – بعد قراءته – بالحفاوة نفسها التي استقبل بها كتابها الأول ذاك.

والله ولي التوفيق

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

مُقَدِّمَة

بسم الله الرحمن الرحيم

دراسة الأُسرة من المواضيع التي لم تنل اهتمام دارسي الأدب العربي القديم، فلست على علم بأيّة دراسة مستقلة خصصت للأسرة في هذا الأدب (*)؛ لأنَّ اهتمامهم كان منصبّاً على قضايا عدّوها أكثر أهمية كالسياسة، والعلاقات الاجتماعية من مدحٍ وهجاء ورثاء وغزلٍ وما إلى ذلك. لقد ظلت مثل هذه القضايا تشغل أفكارهم وأقلامهم، أمّا القضايا الأخرى التي كانت- بنظرهم- أقل أهمية، فقد ظلّت بعيدة عن ميدان اهتمامهم ودراستهم إننا لا نجد سوى إشارات لبعض جوانب الأُسرة في بعض الدراسات التي اهتمّت ببحث جوانب الحياة العامة من خلال شعر العصور الماضية، كسلسلة كتب تاريخ الأدب العربي للدكتور شوقي ضيف أو التي تناولت جانباً واحداً من جوانب الأُسرة مثل كتاب رثاء الأبناء في الشعر العربي للدكتور مخيمر صالح. لكن هذه الإشارات ظلّت في موضعها من هذه الكتب عابرة، ولا تعطي فكرة دقيقة عن العلاقات الأُسرية في أي عصر.

من هنا جاء اهتمامي بهذه الدراسة التي تجعل موضع اهتمامها نصوص الشعر العربي القديم، هذا فضلا عن أنّ البحث في الأُسرة من الأمور التي تلبي لديّ رغبة خاصة، إنّ تتبع العلاقات الأسرية من خلال الشعر خاصة الشعر القديم من مجالات اهتمامي الرئيسة؛ لذا وجدت نفسي متوقفةً عند شعر العصر العباسي لما لهذا العصر من ظروف خاصة أدت إلى تغيير ما في بناء الأُسرة وطبيعتها.

(*) تقدمت بهذا البحث لنيل درجة الماجستير عام ١٩٨٧، وقد آثرت أن أترك ما جاء فيه دون تغيير؛ ليعبّر عن مرحلته.

كان اختياري للعصر العباسي ناتجاً عن أنني أعي التحول الكبير الذي أصـــاب المجتمع العربي المسلم آنذاك، فقد اتسعت الرقعة التي أصبح العرب المســلمون يســيطرون عليها اتساعاً كبيراً، وكانت هذه الرقعة الواسعة تضمّ عــدداً كبيراً من السكان المختلفين في أجناسهم وفي طباعهم وعاداتهم، ومن أهــمّ هذه الأجناس: الفرس والروم والهند والترك والبربر والأرمن بالإضافة إلـــى العـــرب أصحاب السلطة والحكم، وقد اختلط العرب الوافدون إلى هذه الـــبلاد الشاســـعة بالسكان الأصليين عن طريق السكنى والمصاهرة، وقد أثّر العرب في السكان الأصليين، وتأثروا بهم. ولا يهمني هنا شرح مظاهر التأثر والتأثـــير، فهي كثيرة ومتنوعة، ولكن الذي يهمني هو الأثر الكبير الذي تركه الاخـــتلاط العربـــي بالعناصـــر الأخـــرى على الأُسرة العربية، إذ أدى هذا الاخـــتلاط إلى اختلاف في بنية المجتمع العربي المسلم، وهذا الاختلاف أدى بدوره إلى اختلاف طبيعة العلاقات الأسرية في الأُسرة الواحدة، هذا بالإضافة إلـــى وجود الجواري وحياة الترف التي عاشها بعض أفراد المجتمع مما أدى إلى تغيير في بنية الأُسرة وعلاقاتها.

والموضـــوع كأي موضوع جديد كثرت فيه المشكلات سواء في جمع المـــادة أو في دراستها، فشعر الأُسرة متناثر في بطون المصادر العامة أمثال كتاب الأغاني والعقد، وطبقات الشعراء، والكامل في الأدب، والبخلاء، والبيان والتبييـــن، وتاريخ الطبري، ومروج الذهب، وتاريخ ابن خلدون، وتاريخ ابن الأثير، ودواوين الشعراء الذين هم ضمن فترة الدراسة؛ لذا كان عليَّ أن أقوم بعملين متساندين: أولهما جمع أكثر شعر الأُسرة من مظانّها في تلك المصادر والدواويـــن. وثانـــيهما تصـــنيف ذلك الشعر ودراسته دراسة موزعة توزيعاً علمياً.

مـــن هـــنا جاءت هذه الدراسة مقسّمة إلى تمهيد وخمسة فصول، ففي **التمهـــيد** عرضت لمعنى الأسرة لغة واصطلاحا، ومن ثمّ لأهميتها، وبعد ذلك عرضت لحالها قبل العصر العباسي.

وأمّـــا الفصـــل الأول، فقـــد تناولت فيه العلاقات الزوجية، فعرضت لمظاهر الوئام بين الزوجين، ولدوافع الإثارة بينهما، ثم الخصومات الزوجية، فالطلاق موضحة أسباب ذلك كله ونتائجه.

وفـــي الفصـــل الثاني درست شعر الأمومة، وبنيته على أُسس ثلاثة: الأول شـــعر الأمهـــات في الأبناء، والثاني شعر الأَبناء في الأُمهات، والثالث الأُمومة في شعر المناسبات.

والفصل الثالث وهو مشابه من حيث البنية للفصل السابق، حيث قسّمته إلى ثلاثة أقسام الأول شعر الآباء في الأبناء، والثاني شعر الأبناء في الآباء، والثالث الأُبوّة في شعر المناسبات.

وفي الفصل الرابع عرضت للأُخوّة ونماذجها التي وردت في الشعر، وكان الاهتمام منصباً فيها على الأخوّة الحقّة (الأشقاء) إذ درست شعر الوئام ومظاهر الخصام بين الإخوة، ثم عرضت للأخوّة العامة، وعقدت مقارنة بين النوعين.

وأخيراً **الخاتمة** وقد عرضت فيها لنتائج البحث.

د. أمل نصير

إربد/ في ٢٦/٥/ ٢٠٠٤

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

تمهيد

قبل البدء بدراسة أوضاع الأُسرة في المجتمع العباسي، لا بدَّ من توضيح بعض المفاهيم المتعلقة بها.

الأسرة في اللغة

ذكرت المعاجم العربية تحت مادة (أسر) أنّ من معاني الأُسرة الدرع الحصينة. والإسار ما شُدّ به، والجمع أُسر، وأُسرة الرجل عشيرته ورهطه الأدنون؛ لأنه يتقوى بهم، والأُسرة أيضا عشيرة الرجل وأهل بيته [1] .

فالأُسرة بمعناها اللغوي الواسع هي عشيرة الرجل، وهو ما يمكن أن يطلق عليه اسم الأُسرة الممتدة، وأُسرة الرجل بهذا المفهوم تكفل له الرعاية والحماية مقابل أدائه لواجبات تكفل لها وله البقاء، وتظل رابطة الدم والقربى هي التي تربط بين الإنسان وأُسرته هنا.

والأُسرة كذلك تعني بمعنى أَضيق بيت الرجل، أي أُسرته الصغيرة، وهو يقوى بها بما توفّره له من رعاية وحماية أيضاً، وعليه أن يقدم لها واجبات أساسية تكفل لها التضامن والتراحم. فالأُسرة نظام اجتماعي يكفل لأفراده الحماية والرعاية والتواد.

أَمّا في الاصطلاح، فيجد الدارسون صعوبة في تحديد معنى الأُسرة إذ إنّ هذه اللفظة شائعة لدى الناس جميعاً، وهم يتعاملون بها في أيامهم العادية، وأحاديثهم اليومية، لكننا إذا طلبنا من أحدهم تعريفها صعب عليه تحديد المقصود بها بدقة، وكذلك فإننا نجد اختلافا في تعريف الدارسين لها، والسبب

---

(١) لسان العرب/ أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور/ المطبعة الأميرية/ مصر/ ١٣٠٠ هـ/ مادة (أسَرَ).

فـــي ذلك ربما يعود كما يعتقد بعضهم إلى عدم ورودها في القرآن الكريم أو الحديـــث الشريف، وورود كلمة أهل بدلاً منها، هذا بالإضافة لغموض مدلول الكلمـــة، ولكونه مطاطاً.[1] فهذه اللفظة تُطلق على أنواع متعددة ومختلفة من الأَشكال والعلاقات الأُسرية، ومما صعّب تحديد معنى الأُسرة بدقة تعدد أنواع الأسر وتطورها وتغيّرها واختلافها من جيل إلى جيل ومن مكان إلى آخر.

إنَّ هذا الاختلاف في تحديد معنى الأُسرة لا يكمن في الدراسات الدينية أو التفسيرات اللغوية والأدبية فحسب، وإنما هو كذلك في دراسات علم النفس والاجـــتماع إذ يجد الدارسون هناك صعوبة في تحديد معنى الأُسرة، وتختلف الـــتعريفات مـــن دارس إلى آخر، وقد حدا هذا ببعضهم إلى أن يعدّ تعريف الأُســـرة مشكلة[2]، ومع هذا فسأتكلف تعريفاً بسيطاً للأُسرة التي أَود دراستها فـــي هـــذا الكتاب، إنها الأُسرة النواة كما يسميها علماء الاجتماع، أو الأُسرة الضـــيّقة كما يحلو للبعض أَنْ يسميها[3] . فالأُسرة النواة: هي وحدة اجتماعية تتكون من زوجين يربط بينهما رباط شرعي، ولهما ولد واحد أو أكثر، ولكل فـــرد من أفراد هذه الوحدة حقوق وعليه واجبات يتعاون الجميع في أدائها من أجل حياة مستقرة وهانئة.

وعلـــيه فـــإنَّ الأُســـرة لا بُدَّ أَنْ يتوافر لها عناصر ثلاثة هي الزوج والـــزوجة والأبناء، ولا بُدَّ أَنْ يجمع هذه العناصر رابط شرعي حتى يُعترف بها اجتماعياً، وتخضع لضوابط المجتمع وأحكامه الدينية والخُلقية.

---

(١) نظام الأُسرة في الإسلام/ د. محمد عقلة/ مكتبة الرسالة الحديثة/ عمان – الأُردن/ ط١/ ج١ /٨.

(٢) الزواج والعلاقات الأُسرية/ د. سناء الخولي/ دار المعرفة الجامعية/ ١٩٨٢/ ٣٣.

(٣) نظام الأُسرة في الإسلام/ ج١/ ١٠.

أهمية الأسرة

تعـود أهمية الأُسرة للوظائف المهمة التي تقوم بها، فعلى عاتقها يقع توفير الأَمن والاستقرار النفسي والاجتماعي والاقتصادي لأفرادها، كذلك يقع على عاتقها حماية أفرادها من كل عدوان خارجي مهما كان نوعه.

لعـل أخطر وظيفة تقوم بها الأُسرة هي إمداد المجتمع بأفراد أصحاء عقلـياً وجسمياً ونفسياً، فهي المهد الأول والمهم لإنشاء الأطفال الذين هم فيما بعـد رجـال المجـتمع وبناته؛ لذا لا بُدَّ للأُسرة من أَنْ تكون على درجة من الكفاءة المادية والنفسية لتستطيع أن تقوم بمهمتها على أكمل وجه، وهي إنشاء مجتمع قوي وسوي.

لقـد أولـى القـرآن الكـريم الأُسرة اهتماماً كبيراً، فوضع الأحكام والتشريعات الشاملة والواضحة التي تضمن لمنفذيها إنشاء أُسرة سوية، فكان للعلاقة الزوجية النصيب الأكبر من هذه الأحكام والتشريعات؛ ذلك لما للعلاقة الزوجية المبنية على أساس سليم من أهمية في تحقيق الاستقرار العائلي. من هـنا فقد نظّم القرآن الكريم علاقات الزواج بدءاً من التفكير به وحتى انتهائه بـالموت أو بالطلاق، هذا بالإضافة إلى تنظيم العلاقات الأُسرية الأُخرى بين الوالديـن وأبنائهما، أو بين الإخوة أنفسهم، وقد تابعت السيرة النبوية العطرة هـذا الاهتمام بتدعيم ما جاء في القرآن الكريم، وبإضافة كثير من التوجيهات التي تفيد في تنظيم العلاقات الأُسرية وتدعيمها.

قـبل البدء بدراسة الأُسرة في المجتمع العباسي لا بد من مرور سريع بالأُسرة قبله للتعرف إلى أوضاعها في المجتمعات التي سبقته إذ لم يدرس أحد صورة الأُسرة في حدود معرفتي في العصر الجاهلي، ولكن من الممكن تلمّس بعض مظاهرها من خلال ما جاء بالقرآن الكريم، ومن خلال بعض نصوص الأدب الجاهلي، فرغم بعض معالم الاستقرار التي كانت تسودها إلا أنّ كثيرا من مظاهر التفكك كانت منتشرة هنا وهناك في أرجاء ذلك المجتمع، فلم يكن هـناك ضابط يضبط كثيراً من علاقاتها وتنظيماتها خاصة فيما يتعلق بأَحكام الـزواج، إذ كـان للزوج سلطة غير محددة في بيته وفي علاقته مع زوجته

وأولاده يُبيح لنفسه الزواج والطلاق متى شاء لا يحكمه في ذلك غير خُلقه الخاص، وبعض العادات القبليّة، وإذا نبا خُلقه عن الصراط المستقيم لا يجد من يردعه، ولكن هذا لم يكن عاما إذ كان لبعض النساء سلطة كبيرة فكنّ هن اللواتي يطلقن أزواجهن.(١) أما عند الزواج، فكان الرجل يتزوج المرأة بموافقة أهلها، ولم يكن لها أن تتفرد بالأمر دونهم، هذا هو النظام الذي شاع عندهم، وكانت الفتيات يُستشرن.(٢)

كان تعدد الزوجات مباحاً بصورة عامة ودون تحديد، فقد أسلم غيلان الثقفي وله عشر نساء.(٣) كذلك كانت أحكام الرجل جائرة بالنسبة لملك اليمين من الإماء إذ كانت تُورث كما يُورث المتاع حتى لو كانت أُماً، وقد يَرث الابن زوجة أبيه فتصبح من ملك يمينه يحق له الزواج منها، وبقي الأمر كذلك إلى أن جاء الإسلام فحرّمه.(٤) كذلك كانوا يفرّقون بين أولادهم من الإماء والحرائر تفريقاً يُؤدي إلى الظلم، من ذلك عدم الاعتراف بابن الأَمَة ابناً شرعياً فلا يلحقه والده بنسبه ولا يورثه إلا إذا شاء، أو ظهرت عليه مظاهر النبوغ أو الفروسية، ولعل قصة عنترة مع أبيه من الذائع المعروف، وقد أكثر عنترة من قول الشعر في ذلك، فقال:

إن كنتُ في عددِ العبيدِ فهمَّتي ... فوقَ الثريّا والسِّماكِ الأَعزلِ
أو أنكرتْ فرسانُ عبْسٍ نسبتي ... فسنانُ رمحي والحسامُ يقرُّ لي
وبذابلي ومهندي نِلتُ العُلا ... لا بالقرابةِ والعديد الأجْزلِ(٥)

---

(١) الحياة العربية من الشعر الجاهلي/ أحمد الحوفي/ دار القلم للطباعة والنشر/ بيروت- لبنان/ ١٩٧٢م/ ط٥/ ٢٢٢.

(٢) المصدر السابق/ ٢١٩.

(٣) نفسه/٢٢٣. وانظر كذلك كتاب الأمومة في القرآن الكريم والسنة النبوية/ محمد السيد الزعبلاوي/ مؤسسة الرسالة/ ط١/ ١٩٨٤م/ ٢١٧.

(٤) العصر الجاهلي/ شوقي ضيف/ دار المعارف/ مصر/ ط١١/ ١٩٨٦/ ٧٥.

(٥) ديوان عنترة بن شداد/ شرح الأستاذ عبد المنعم شلبي/ المكتبة التجارية/ القاهرة/١٩٥٨/ ١٣٤.

كمـــا أنهـــم كانوا يفرقون بين أولادهم من ذكور وإناث حتى أدى بهم الأمـــر إلى كره البنات كرهاً شديداً، بل إلى وَأدهن أحيانا، وقد جاء ذلك في القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ **وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيم(٥٨) يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ(٥٩)** ﴾[١].

ومـــع هـــذا كلـــه فقد كان هناك كثير من مظاهر الترابط الأُسري في العصـــر الجاهلي، ولعل أبرز مثال على ذلك هو سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام قبل النبوّة من كفالة جدّه لـــه، ثم عمّه، وحسن معاملتهما لـــه. وكذلك مـــا يمكن الوقوف عليه من خلال أشعارهم في رثاء الآباء والأبناء والأخوة، مـــن ذلـــك رثاء لبيد بن ربيعة لأخيه أربد[٢]، ورثاء الخنساء لأخويها صخر ومعاويـــة،[٣] وغـــير ذلك كثير، وكذلك ما جاء في وصايا الجاهليين لأبنائهم وبـــناتهم عند الموت أو السفر أو الزواج مما تزخر به كتب الأدب، فكل هذه الأمثلة تُعد مظاهر لما كان يسود الأُسرة آنذاك من علاقات طيبة.

وبمجـــيء الإســـلام انقلبت حياة العرب رأساً على عقب في كثير من نواحي الحياة، وقد نال الأُسرة نصيب وافر من اهتمام القرآن الكريم والحديث الشريف، فقد أقرّ الإسلام بعض ما كان موجوداً من علاقات إنسانية نافعة في حماية الأُسرة، وشدّ أزرها، وغيّر كثيراً من العلاقات الفاسدة، أو غير المبنية على أساس سليم.

لقـــد ســـاوى الإسلام بين الناس جميعا في الأصل والمنشأ: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ** ﴾[٤] وبذلك حلّ مشكلة الإماء وأبنائهن، إذ تصبح الأمة حرة بمجرد موت مالكها إذا أنجبت منه، ولا يجوز

---

(١) سورة النحل / ٥٨ -٥٩.

(٢) الكـــامل في الأدب/ أبو العباس المبرد/ تعليق محمد أبو الفضل إبراهيم والسيد شحاته/ دار النهضة/ مصر القاهرة/ ج٤/ ٣١-٣٢.

(٣) المصدر السابق/ ج٤/ انظر الصفحات رقم ٤٧ و ٤٨ - ٥٢.

(٤) سورة النساء/ ١.

التفريق بينها وبين أولادها، وكذلك لا يجوز للرجل الجمع بين الأمتين الأختين، ولا بين الأمة وقريبتها كالعمّة والخالة كما هو الحال بالنسبة للزوجات الحرائر. كما أنه ساوى بين أبناء الرجل الواحد من الإماء والحرائر في الاعتراف بالنسب والميراث وكافة الحقوق والواجبات، ولم يعد يحرم ابن الأمة من ميراث أبيه كما كان في الجاهلية حيث كانت العرب لا تورّث الهجين [1] ولا يفوتني أن أذكر هنا أن بعض هذه القضايا استمر بعد مجيء الإسلام كاستمرار تسمية ابن الأَمَة هجينا عند بعضهم، وكذلك رفض مساواته بابن الحرة، ومحاولة بعضهم حرمان أبناء الإماء من الميراث فقد ذهب أعرابي إلى سوّار القاضي، فقال: "إن أبي مات وتركني وأخاً لي، وخط خطين ناحية، ثم قال: وهجينا لنا، ثم خط خطاً آخر ناحية، ثم قال كيف ينقسم المال بيننا؟ فقال: المال بينكم أثلاثا إن لم يكن وارث غيركم، فقال له: لا أحسبك فهمت إنه تركني وأخي وهجينا لنا. فقال سوار: المال بينكم سواء، فقال الأعرابي: أيأخذ الهجين كما آخذ ويأخذ أخي؟ قال: أجل! فغضب الأعرابي، وقال: تعلم والله إنك قليل الخالات بالدهناء.[2] ولكن تبقى هذه حالات قليلة لا يقاس عليها، وهي بطبيعة الحال مخالفة لنصوص القرآن الكريم، ولروح الشرع الإسلامي السمحة.

اهتم القرآن الكريم بالعلاقة الزوجية اهتماماً خاصاً باعتبارها الأساس في التكوين الأسري، فأوضح الأسس التي يجب أن تقوم عليها من المودة والرحمة ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً** ﴾ [3] ولعل المودة والرحمة هي أكثر ما يحتاج إليه الزوجان لإقامة علاقة زوجية مستقرة يستطيعان من خلالها صون حياتهما، وتنشئة أولادهما التنشئة الصحيحة.

---

(١) العقد/ ابن عبد ربه الأندلسي/ شرح أحمد أمين وآخرين/ دار الكتاب العربي/ بيروت- لبنان/ ١٩٦٥/ ط٣/ج٦/١٢٩.

(٢) عيون الأخبار/ أبو محمد مسلم بن قتيبة الدينوري/ دار الكتب/ مصر – القاهرة / ١٩٦٣/ج٢/ ٦١.

(٣) سورة الروم/ ٢١.

ولـــم يكتفِ القرآن الكريم بوضع أُسس المساواة والمودة والرحمة في العلاقة الزوجية لعلمه بطبيعة الإنسان الخطّاءة التي تضطره إلى الانحياز عن طريق الصواب أحيانا، ولما قد يجدّ في حياة الإنسان من ظروف تدفعه لتعدد الـــزوجات أو الطلاق، فقام بوضع الأُسس المناسبة والرادعة في الوقت ذاته لكـــل مـــن تحدّثـــه نفسه بالاستهانة برباط الزوجية، لقد جعل الله هذا الرباط مقدسا، وجعل حُسن المحافظة عليه طريقا من طرق التقرب إلى الله، ولا يتسع المجال هنا لذكر هذه الأحكام وتفاصيلها إذ إنه علم قائم بذاته يحتاج إلى غير بحث طويل.(١)

وأخـــيراً فقـــد نظّم علاقة الوالدين بأبنائهما والتي يجب أن تقوم على الحب والمساواة بين الأبناء ذكوراً وإناثاً، وكذلك المساواة بين الذكور أنفسهم والإناث أنفسهن. كما أنّه حرّم التشاؤم بولادة البنت بالإضافة إلى تحريم وَأدها تحـــريماً قاطعـــاً ومما ورد عن الرسول عليه الصلاة والسلام في هذا المجال قولـــــه :"**لا تكرهوا البنات فإنهن المؤنسات الغاليات**"،(٢) وكذلك أمر الأبناء بحســـن معاملة الآباء واحترامهم:﴿ **وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَـــا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً** ﴾ (٣). وخصَّ الأم بالرعايةَ والعناية فألزم الأبناء البر بها ﴿ **وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً** ﴾ (٤). هذا بالإضافة إلى ما ورد عن الرسول الكريم من أحاديث تحضّ على رعاية الأُم والبرِّ بها كل ذلك أدى إلى إيجاد نظام أُسري متكامل فيه كلّ مقومـــات الـــنجاح لمن يريد أن يأخذ به، كما أنه دعّم الروابط الأُسرية ذاتها داخل الأُسرة الواحدة، ومنها انطلق إلى المجتمع بأسره.

استمرّ الحال كذلك بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام أي في زمن الخلفاء الراشدين إذ حثّ هؤلاء على مزيد من الحفاظ على الأُسرة، وحاربوا

---

(١) انظر نظام الأسرة في الإسلام/ج١/ ٦٧ وما بعدها.

(٢) مسند أحمد/ الإمام أحمد بن حنبل/ المكتب الإسلامي/ بيروت- لبنان/ ج٣/١٥١.

(٣) سورة الإسراء/ ٢٤.

(٤) سورة الأحقاف/ ١٥.

كـــلّ مـــا يمكـــن أن يؤثّر على صفاء العلاقات الزوجية من آفات اجتماعية وغيرها، واستمر الحال كذلك زمن الأُمويين بالرغم من تزايد النفوذ الأجنبي مـــن فارسي وغيره، وبرغم وجود عدد لا بأس به من الجواري اللواتي بدأن يزاحمن المرأة الحرة إلا أنها ظلت هي المفضلة وأولادها هم المفضلين على أبـــناء الجـــواري، بل ذهبوا أكثر من ذلك فكرهوا أن يولوا العهد لمن كانت والدته أَمَة وذلك لإحساسهم بتخلفه عن أولاد الحرائر، وعللوا ذلك بأن العرب لا تصلح لهم.[1] وفيما يختص بالعلاقات الزوجية، فقد كثر تعدد الزوجات في عصـــر صدر الإسلام والعصر الأُموي، ويبدو أن هذا لم يكن لحاجة ماسة أو لضـــرورة قصوى إنما أصبحت المتعة دافعاً رئيسياً لدى بعضهم. ولعل قصة الخليفة الأموي الوليد بن يزيد من الأمثلة المهمة على ذلك إذ إنه طلق زوجته لا لشـــيء إلا لأنه أُعجب بأُختها فأراد الزواج منها، وعندما ردّه والدها أراد استرجاع زوجته، فكانت قد تزوجت.[2] وغير الخليفة الوليد وجد كثيرون ممن يكـــثرون من الزواج والطلاق بالإضافة إلى اتخاذ السراري لكن هذا كان يتمّ ضمن حدود فهمهم للشرع في كثير من الأحيان.

كانت المرأة الحرة أيضاً تنتقل من زوج إلى آخر بعد طلاقها أو وفاة زوجها عنها دون استهجان من المجتمع، أو استنكار، كالذي أصبح شائعاً في العصر العباسي فقد ورد أنهم "كانوا لا يرون بأساً في أن تنتقل المرأة إلى عدة أزواج لا يمـــنعها مـــن ذلـــك إلا المـــوت ما دام الرجال يريدونها وهم اليوم يكرهون هذا ويستهجنونه في بعض، ويعافون المرأة الحرة إذا كانت قد نكحت زوجـــا واحـــدا، ويلـــزمون من خطبها العار، ويلحقون به اللوم، ويعيرونها بذلـــك."[3] وتكرار الزواج في العصر الأموي بالنسبة للمرأة يعد ناتجاً طبيعياً

---

(١) العقد/ ج٦/ ١٣٠.

(٢) الأغانـــي/ أبـــو الفـــرج الأصفهاني/ تحقيق مجموعة من الأدباء/ طبعة دار الكتب/ مصر- القاهرة/ ١٩٧٦/ج٧/ ٢٥-٢٦.

(٣) رسائل الجاحظ/ أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ/ تحقيق عبد السلام محمد هارون/ مكتبة الخانجي/ القاهرة/ ١٩٦٥ / ج٢/١٥٨.

لـــتعدد الزوجات، وكثرة حالات الطلاق أو الموت، وخاصة الموت المتسبب عـــن كثرة الحروب الداخلية والخارجية آنذاك. وكان هذا التكرار مباحاً لعامة النساء لكنه كان ظاهرة بارزة للشهيرات وذوات المكانة الرفيعة منهن كسكينة بنـــت الحســـين وعائشة بنت طلحة فقد اشتهرتا بجمالهما وذكائهما مما رغّب الرجال فيهما فتنقلتا بين عدة أزواج،[1] دون أن يكون في ذلك أدنى عيب، أو استغراب، ودون أن يؤثّر ذلك على عفّة النساء، أو حيائهن.

أمّـــا فـــي العصر العباسي، فقد تغيّرت أحوال العرب بتغيّر ظروفهم الماديـــة والاجتماعية والسياسية، إذ انتقلت الخلافة إلى بغداد، فأصبحت قريبة من بلاد الفرس الذين فرضوا لأنفسهم حقوقا على الخلافة العباسية بسبب اليد الطولـــى التي كانت لهم في انتقالها إلى العباسيين من الأمويين، فزاد نفوذهم السياسي كثيراً وتراجع النفوذ العربي حتى أنَّ معظم الوزراء والقادة كانوا من الفرس.

وبازدياد نفوذهم السياسي زاد أثرهم الاجتماعي في المجتمع العربي إذ نقلوا إليه كثيراً من العادات الغريبة عن العرب، وقد ساهمت هذه العادات في بعـــض مظاهـــر الانحراف في المجتمع العباسي، هذا من جهة، أما من جهة أُخرى فقد ساهم الفرس في موجة الترف التي جرفت المجتمع العربي آنذاك، وقـــد توافر لدى العرب من الأموال والجواهر والذهب الكثير؛ لذا فقد غرقوا فـــي الـــترف المادي، وتفننّوا في إنفاق المال على اللذائذ والمتع الدنيوية من مـــأكل وملبس وقصور وجوار. ومن مظاهر الغنى الفاحش المتعلق بالأُسرة كثرة نفقات الزواج خاصة فيما يتعلق بزواج الخلفاء ومن هم حولهم من ذلك زواج الخلـــيفة المأمون من بوران بنت الوزير الحسن بن سهل، فقد بالغ كل مـــن الخليفة والحسن بن سهل في الإنفاق مبالغة كبرى، وقد وصف الطبري بعض هذا الإنفاق بقوله: "فلما جلس المأمون معها نثرت جدتها عليها ألف درة

---

(١)/ أنظر أخبار سكينة في الأغاني / ج١٦/ ١٤٩، وأخبار عائشة بنت طلحة / ج١١/ ١٧٦ وما بعدها.

كانت في صينية ذهب"[1] . وذكر أنّ المأمون أقام عند الحسن بن سهل سبعة عشر يوماً يعدُّ له في كل يوم ولجميع من معه جميع ما يحتاج إليه، وأنّ الحسن خلع على القواد مراتبهم وحملهم وأوصلهم، وكان مبلغ النفقة عليهم خمسين ألف ألف درهم....، وأقطعه الصلح فحملت إليه على المكان وكانت معدة عند غسان بن عباد ففرقها في قوّاده وأصحابه وحشمه وخدمه....[2]
ولكن مثل هذه الحياة لم تكن تتوافر إلا للطبقة العليا في المجتمع ومن هم في صفها، ولأفراد الطبقة الوسطى كالتجار، أما طبقة عامة الشعب وهي الغالبية الساحقة، فقد كانت تعيش على فتات الطبقة الأولى؛ لذا فقد عانت من الفقر والضنك والحاجة. ولنتأمل واحدة من صور الفقر هذه في قول عبد الصمد بن المعذّل يصف جاراً له فقيراً رثّ الحال:

يتمشّى في ثوب عَصِب من العر ... ى على عظمِ ساقه مسدول
دبّ في رأسه خمارٌ من الجو ... ع سُرى خمرةِ الرحيق الشمول
فبكى شجْوَه وحنَّ إلى الخبـ ... ـز ونادى بزفرةٍ وعويل
من لقلبٍ متيم برغيفيـ ... ـن ونفس تاقت إلى طِفْشيل
ليس تسمو إلى الولائم نفسي ... جلّ قدرُ الأعراس عن تأميلي
هاتِ لوناً وقل لتلكَ تغني ... لستُ أبكي لدارسات الطلول[3]

لقد أكثر غير شاعر من وصف الفقر وحياة الضنك التي كان يعيشها أفراد الطبقة العامة كأبي العتاهية وأبي دلامة وغيرهم من الشعراء، وقد أثرّ هذا كلّه في العلاقات الأُسرية في هذا العصر كما ستوضحه النماذج الشعرية التي تضمنتها فصول الكتاب التالية.

---

(١) تاريخ الأمم والملوك/ أبو جعفر محمد بن جرير الطبري/ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم/دار سويدان/ بيروت- لبنان/١٩٦٧/ ج٨/٦٠٦.

(٢) المصدر السابق/ ج٨/ ٦٠٦.

(٣) الأغاني، ج١٣، ٢٣١، العَصب: ضرب من البرود. الخُمار بضم الخاء ألم الخمرة وصداعها. الطفشيل: نوع من المرق أو الطعام. التأميل: التلبث في الأمر والنظر فيه.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الأول

العلاقات الزوجية

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

العلاقات الزوجية

العلاقة الزوجية هي العلاقة الأساس التي يُعتمد عليها في إيجاد العلاقات الأخرى، ومن هنا تُعدّ محوراً للترابط داخل الأسرة الواحدة.

إنّ استقرار هذه العلاقة أو قوة أواصرها يمكن أن يكون مؤشراً على حسن العلاقات الأسرية الأخرى، وتختلف طبيعة هذه العلاقة من أُسرة لأخرى بحكم ظروف كل من الزوجين، وكذلك بحكم الظروف الخارجية التي قد تضغط على هذه العلاقة فتجعلها مهمة صعبة، أو قد تسهّل مهمتها في إقامة جو أُسري متكافل متراحم.

لقد تعرضت أُسرة العصر العباسي لضغوط البيئة الخارجية أكثر من غيرها بحكم طبيعة العصر السياسية والاجتماعية والاقتصادية، ومن هنا فإننا نجد تبايناً في طبيعة العلاقة الزوجية من أُسرة إلى أُخرى، ففي حين يشيع الود والحب في بعض الأُسر، يشيع الكُره والتهاجي في بعضها الآخر، هذا أمر، والأمر الآخر تعدد القضايا، وتنوع طبيعة الدوافع والمشاعر والحاجات الداخلية التي تحكم هذه العلاقة، وهو أمر قد لا نجده في غيرها من العلاقات الأُسرية الأخرى. ومن أهم مظاهر العلاقة الزوجية ما يلي:

أولا - الوئام بين الزوجين

رغم ما تعرضت له العلاقة الزوجية في أُسرة العصر العباسي من ضغوطات وأخطار مثل كثرة الجواري وتعدد الزوجات، وغير ذلك مما سيأتي ذكره، فإننا نجد صوراً وألواناً للوئام بين الزوجين، ولعل هذا دليل على قوة العلاقة بينهما، مع العلم بأنّ كتب الأخبار لم تورد كثيراً من القصص حول حب الرجل لزوجته أو المرأة لزوجها، وإن فعلت، فإنها تهتم بأخبار الطبقة العُليا أكثر من غيرها، وغالباً ما كانت مثل هذه الروايات تأتي عرضاً أو تذييلاً لخبر؛ من ذلك ما عُرف عن حب الخليفة أبي العباس السفاح لزوجته أُم سلمة. فقد ذكر مصعب الزبيري عن أبيه في معرض حديثه عن قصة

زواجه منها: أنها حظيت عنده، وحلف ألا يتزوج عليها، ولا يتسرّى؛ فولدت منه محمداً وريطة، وغلبت عليه غلبة شديدة فما كان يقطع أمراً إلا بمشورتها وبتأميرها حتى أفضت الخلافة إليه، فلم يكن يدنو إلى النساء غيرها لا إلى حرة ولا إلى أمة ووفّاها بما حلف أن لا يغيّرها".[1]

ومن الحرائر اللواتي حظين بمنزلة شبيهة السيدة زبيدة زوجة الخليفة هارون الرشيد، فقد تحدثت الأخبار عن شغفه بها فقيل: إنها كانت بالمنزلة التي لا تتقدمها واحدة من نظرائها.....[2]

أما حبّ المرأة لزوجها، فله صور كثيرة منها: الوفاء له بعد موته، فقد نوّهت الروايات بحب أُم سلمة السالفة الذكر وإخلاصها لزوجها السفاح، وروت بعضها أنّ الشاعر أبا دلامة دخل عليها بعد وفاة أبي العباس السفاح فعزّاها به، وبكى، وبكت معه، ثم أنشدها أبياتاً، فقالت أُم سلمة: لم أَرَ أحداً أُصيب به غيري وغيرك يا أبا دلامة، فقال: ولا سواء يرحمك الله، لك منه ولد وما ولدت أنا منه. فضحكت، ولم تكن منذ مات أبو العباس ضحكت إلا ذلك الوقت، وقالت له: لو حدّثت الشيطان لأضحكته.[3]

وكثيراً ما يكون الحب يَغمُر قلب كل من الزوجين إلا أنه لا تحين مناسبة لإظهاره أو الحديث عنه سواء عند الناس عامة أو عند الشعراء خاصة، ولكن فقْد أحدهما للآخر يجعله يُبرز الحب الذي كان بينهما، فقد زخر الشعر العباسي برثاء الزوجات؛ إذ فَقَدَ عدد من شعراء هذا العصر زوجاتهم فرثوهنّ رثاءً حاراً ومؤثراً صوّروا فيه أحاسيسهم ومشاعرهم تجاه الحدث، ونتائجه على أنفسهم وعلى أُسرهم، خاصة على أطفالهم الصغار، وقد أظهر عدد من هؤلاء الشعراء ضعفهم، وعدم قدرتهم على الصبر واحتمال الموقف،

---

(١) مروج الذهب ومعادن الجوهر/أبوعلي بن الحسين بن علي المسعودي/تحقيق شارل بلا/ طبعة بربيه دي بيمار/ بيروت/ ١٩٧٣/ج٤/١٠٥

(٢) المصدر السابق/ ج٤/ ٢٤٨.

(٣) الأغاني/ ج ١٠/ ٢٥٥.

وقد أبدى بعضهم عجزه عن الصبر والتعزي عن مصابه حتى لقد تخيّل موته قريباً.

ومن هؤلاء ديك الجن الذي بدا ضعفه وعدم قدرته على الاحتمال من خلال محاورته لزوجته المتوفاة. قال:

أساكنَ حفرةٍ وقرارِ لحدِ ... مفارِق خُلَّةٍ من بعد عهدِ
أَجبْني إن قدرتَ على جوابي ... بحق الودِّ كيف ظَلَلْتَ بعدي
وأين حللتَ بعد حلول قلبي ... وأحشائي وأضلاعي وكبْدي
أما والله لو عاينت وجدي ... إذا استعبرتُ في الظّلماتِ وحدي
وجدَّ تنفُّسي وعلا زفيري ... وفاضت عَبْرَتي في صَحْن خدِّي
إذاً لعلمتَ أني عن قريبٍ ... ستُحفرُ حُفرتي ويُشقُّ لَحْدي[1]

فحُزن الشاعر لفقد زوجته بادٍ من خلال هذا الحوار، فهو دائم الزيارة لقبرها يحاورها ويصف حالته الضعيفة بعدها، وهو وحيد يبكيها بحرقة في ظلمات الليل، وقد أخذ الحزن منه مأخذاً فتركه ضعيفاً يحسّ أنّ الموت قريب منه، وكأنه من خلال محاورته لها يريد أن يخبرها بما آل إليه حاله بعدها من ضعف ويأس.

وأكد الشاعر مشاعره هذه في مقطوعة أخرى حيث قال:

ما لامرئٍ بيد الدهر الخؤونِ يَد ... ولا على جَلَدِ الدنيا له جَلَدُ
طُوبى لأحبابِ أقوامٍ أصابهُمُ ... من قبل أن يعشَقوا موتٌ فقد سَعدوا
وحقّهم إنه حقّ أضنُّ به ... لأنفدنّ لهم دمعي كما نَفِدوا[2]

إن كان الشاعر لم يستطع أن يحارب الدهر، فإنه يستطيع فعل أشياء أُخرى تعبّر عن رفضه وكرهه لإصابة الدهر أحبته، وهذا ما أراده الشاعر إذ

---

(١) ديوان ديك الجن/ تحقيق د. أحمد مطلوب وعبد الله الجبوري/ دار الثقافة/ بيروت- لبنان/ ١٩٦٤/٩٤-٩٥ . وانظر كذلك الأغاني/ج١٤/٥٨-٥٩. الخُلَّة: الصديق.

(٢) المصدر السابق/٩٦.

رأى أن يوفي زوجته حقَّها عليه من الحب والوفاء؛ لذا فهو سيبكيها بدمع غزير دائم يعكس فداحة مصابه وديمومته. قال:

عهدي به مَيتا كأحسنِ نائمٍ ... والحزنُ يسفَحُ عَبْرَتي في نَحْرِهِ
لو كان يَدري الميتُ ماذا بعده ... بالحيِّ حلَّ بكى له في قبره
غُصصٌ تكاد تفيض منها نفسُهُ ... وتكاد تُخْرِجُ قلبَه من صدرِهِ[1]

عندما يقارن الشاعر حاله بما هو فيه من ألم ودموع وحزن شديد بحالها وهي المتوفاة، يجد أنّ حالها أفضل، ويؤكد لو أنّ الميت يعلم بما يحل بأهله وأحبته من بعده، وبمقدار المعاناة التي يعانونها من فقده لكان هو الباكي عليهم لا هم. وهذه مفارقة أراد الشاعر من خلالها وصف سوء حاله بعد وفاة زوجته.

ومن الأمور التي كانت تلهب حزن الزوج على زوجته حال أطفاله بعدها، وهنا تختلط مشاعره زوجاً فاقداً لزوجته وأباً يرى أطفاله يعانون الهمّ والضياع بفقد أُمهم، والمحصّلة لهذا كله الحزن والألم للزوج الذي يجد أن من واجبه وضع ألمه وحزنه جانبا، ومعالجة همّ أولاده وأحزانهم. قال محمد بن عبد الملك الزيات يصف جانبا من هذا:

ألا من رأى الطفلَ المُفارقَ أُمَّهُ ... بُعيدَ الكرى عيناهُ تنسكبان
رأى كلَّ أم وابنها غيرَ أُمه ... يبيتانِ تحت الليل ينتجيان
يرنّ بصوتٍ فضَّ قلبي نشيجُه ... وسحَّ دموع ثرَّةِ الهملان
وباتَ وحيداً في الفراش تحثُّه ... بلابلُ قلبٍ دائمِ الخفقانِ[2]

---

(١) ديوان ديك الجن/ ٩٣، والأغاني/ ج١٤/ ٥٩، وأنظر كتاب الزهرة/ أبو داود الأصفهاني/ مطبعة الآباء اليسوعيين/ بيروت – لبنان / ج١/ ٨٤.

(٢) التعازي والمراثي/ أبو العباس المبرد/ تحقيق محمد الديباجي/ مطبعة زيد بن ثابت/ دمشق/ ١٩٧٦م/ ١٦٧. وانظر كذلك كتاب العمدة/ ابن رشيق القيرواني/ تحقيق وتعليق محمد محيي الدين عبد الحميد/ دار الجيل/ بيروت– لبنان/ ج٢/ ١٥٦/ ط٣/١٩٦٣.

ولمـــا كانت الدموع وسيلة المصدور، وغاية الملتاع فهو يجدها وسيلة لتخفـــيف مصابه، فقد لجأ الشعراء إليها لتخفيف أحزانهم على زوجاتهم. قال ابن الزيات:

ألا إنّ سَـــجْلاً واحـــداً أن هَرَقـــتُه ... مـــن الدمـــع أو سَـــجلينِ قد شَفَياني
فـــلا تلحَيانـــي إن بكيـــتُ فإنمـــا ... أداوي بهَـــذا الدمـــع مـــا تـــريان
وإن مكانـــاً فـــي الـــثرى خط لحده ... لمـــن كـــان فـــي قلبـــي بكل مكان
أحـــقُ مكـــان بالـــزيارة والهـــوى ... فهـــل أنـــتما إن عجـــت منـــتظرانِ
فهبنـــي عزمـــت الصبر عنها لأنني ... جلـــيدٌ، فمـــن بالصـــبر لابـــن ثمانِ
ضعيف القوى لا يطلب الأجر حِسْبةً ... ولا يأتسي بالناس في الحـــدثانِ[1]

لقد أكثر الشعراء من ذكر الدموع، وحثّوا عيونهم على الاستزادة منها في رثاء زوجاتهم، كما فعلوا في رثاء أولادهم وغيرهم من أفراد أُسرهم حتى تحقق لهم أكبر قدر ممكن من الراحة والشفاء. قال ابن الزيات أيضاً:

أَعينـــيَّ إلا تُســـعدا الـــيوم عَبرتـــي ... فبـــئسَ إذن مـــا فـــي غـــد تَعدانـــي
أَعينـــيَّ إن أنـــعَ الســـرورَ وأهلَـــه ... وعهـــد الصـــبا عـــندي فقد نعياني
أَعينـــيَّ إن أَبـــكِ البشاشـــةَ والصِّبا ... فقـــد آذنـــا منـــي وقـــد بكيانـــي[2]

فالشـــاعر يلـــحُّ إلحاحـــاً شديداً على عينيّه من خلال تكراره لأسلوب الـــنـــداء (أعيني) كي تنجداه بالدموع التي تتناسب مع حجم مصابه، فهو لا يرى مناسبة ولا موقفا آخر يحتاج منه إلى الدموع مثلما يحتاج إليها الآن، فهو لـــم يـــنعها هـــي فقط، وإنما نعى برحيلها عنه كلّ سعادة وسرور، وكلّ هناءٍ وعيشٍ رضي، فقد ذهب كل هذا بذهابها، وفي هذا كله تعبير عن حبّ الشاعر لزوجـــته، ووفائه لها بعد موتها بالإضافة إلى بيان عظم الخسارة التي لحقته بوفاتها. قال:

---

(١) التعازي والمراثي/ ١٦٧-١٦٨، والعمدة ج٢/ ١٥٧. السجل: الدلو الضخمة المملوءة بالماء.
(٢) المصدر السابق/ ١٦٨.

ألا مـــن أُمنـــيَّة المـــنى وأعـــدُّه لعـــثرةِ أيـــامٍ وصـــرفِ زمـــان؟
ألا مـــن إذا ما جئـــت أكرم مجلسي وإن غبـــت عنـــه حاطنـــي وكفانـــي؟
فلم أرَ كالأيام كيف تصيـــبنـــي ولا مثلَ هذا الدهر كيف رمانـــي[1]

وأما ابن الرومي فقد خالف غيره من الشعراء، وخالف نفسه في كثير من قصائد الرثاء التي قالها في أفراد أسرته، إذ لم يرد من عينيه البكاء لا لأنَّ زوجـــته لا تســـتحق منه ذلك، بل حتى يبقى محتفظاً بحرارة حزنه، وحرقة مصابه، ذلك أنه اعتقد أنَّ في هذا دليلاً أكبر على وفائه لها. قال:

عينـــي شـــحّا ولا تســـحّا جـــلَّ مُصـــابي عـــن الـــبكاء
تـــرككما الـــداءَ مســـتكنّا أصـــدقُ عـــن صـــحة الوفـــاء
إن الأســـى والـــبكاء قدْمـــا أمـــران كـــالداء والـــدواء
ومـــا ابـــتغاء الـــدواء إلا بُغْـــيا ســـبيل إلـــى الـــبقاء
ومبتغـــي العـــيش بعـــد خـــل كاذبُـــهُ خلـــة الصـــفاء[2]

لكـــنّ الشاعر لم يلبث أن رجع عن رأيه السابق، ربما لأنه عجز عن تحقـــيقه، أو ربمـــا لأنّـــه وجد تعليلاً مناسباً لمطلبه الجديد من عينيه ألا وهو البكاء. قال:

أعينـــيَّ جـــودا بـــالدموع لفقدهـــا فمـــا بعدهـــا ذخرٌ من الدمعِ مذخورُ
نصـــيبُكما مـــنها الـــذي فاتَ فابكيا فأمّـــا نصـــيبُ القلبِ منها فموفورُ[3]

إن موت زوجته لن يؤثر إلا على عينيه اللتين ستخسران رؤيتها، وهذا تعبير آخر عن وفاء ابن الرومي لزوجته، وقد أكّده في مقطوعة أخرى حيث قال مخاطباً عينيه:

---

(١) التعازي والمراثي/ ١٦٨.

(٢) ديوان ابن الرومي/ تحقيق وشرح حسين نصار/ دار الهيئة المصرية العامة للكتاب/ ط٢/١٩٩٣/ج١/ ٧٩-٨٠.

(٣) المصدر السابق/ ج٣ /١١٣٨.

هــذا فــؤادي والــرزء رزؤكمــا تبكــي لــــه عيــن مســتثيبكما
فاســتنكفا أن يكــون غــيركما أبكــى لمــا فــات مــن نصيبكما[1]

أمــا دموع ديك الجن، فهي من نوع خاص بسبب طبيعة وفاة زوجته التي ماتت قتلا على يديه لاعتقاده بأنها خانته، ثم ندمه على ذلك بعد اكتشافه براءتها، لهذا كانت دموعه دموع ندم. قال:

ويعذلنــي الســفيهُ علــى بكائــي كأنــي مبــتلىً بالحــزن وحــدي
يقــول: قتلــتها ســفهاً وجهــلاً وتبكــيها بكــاءً لــيس يُجــدي
كصــياد الطــيور لــــه انــتحابٌ علــيها وهــو يذبحهــا بحــدِّ[2]

وليس الدمع وحده دليل الوفاء، بل هناك من الشعراء من تنسّك وترك الشراب كمسلم بن الوليد الذي قال في رثاء زوجته:

بكــاءٌ وكــأسٌ كــيف يــتفقانِ ســبيلاهما فــي القلــبِ مختلفانِ
دعانــي وإفــراطَ الــبكاء فإننــي أرى الــيوم فــيه غــيرَ مــا تريانِ
غَــدَت والــثرى أولى بها من وليّها إلــى مــنزل نــاء لعيــنك دانِ
فــلا وَجْــدَ حتى تنزف العين ماءَها وتعــترف الاحشــاءُ بالخفقــانِ
وكــيفَ بدفــعِ اليأسِ والوجدِ بعدها وَســهْماهما فــي القلــب يعتلجان[3]

ومــن الشعراء من رفض فكرة حلول زوجته في القبر؛ لأن قلبه هو مكانها الوحيد، فهي ساكنة فيه سكوناً أبدياً. قال ابن الزيات:

يقــولُ ليَ الخلاَّنُ لو زرتَ قبرَهــا فقلــتُ: وهل غيرُ الفؤادِ لها قبــرُ
علــى حيــنَ لم أُحدُث فأجهل قدرَها ولــم أبلغْ السنَّ التي معها الصبرُ[4]

---

(١) ديوان ابن الرومي/ ج٥/ ٢١٣٠.
(٢) ديوان ديك الجن/ ٩٥/ والأغاني/ ج١٤/ ٥٩.
(٣) شــرح ديــوان صريع الغواني/ مسلم بن الوليد/ تحقيق د. سامي الدهان/ دار المعارف/ مصر/ ط٢/ ١٩٨٥/ ٣٤١.
(٤) الأغاني/ ج٢٣/ ٥٣.

ومن الشعراء من حاول الصبر بالبحث عن وسائل أخرى للعزاء، وقد وجده في حال الدهر والأيام. قال ديك الجن:

يـا دهـرُ إنَّـكَ مَسْـقيٌّ بكأسِـهمُ ... ووارِدٌ ذلـكَ الحـوضَ الذي وردُوا
الخلـقُ ماضـونَ والأيـامُ تتـبعُهُم ... نفـنى ويـبقى الإلهُ الواحدُ الصمدُ[1]

إنَّ حديـث الشعراء عن البكاء والحزن من خلال رثائهم لزوجاتهم لم يمـنع بعضـهم من الالتفات إلى صفات الزوجة الجمالية. قال ديك الجن في زوجته:

قـل لمن كان وجهُه كضياءِ الشمس ... فـي حسـنه وبـدرِ مُنـيرِ
كنـت زَيـن الأحـياء إذ كنت فيهم ... ثـم قـد صـرت زيـن أهلِ القبور
بأبـي أنـت فـي الحـياةِ وفي المو ... تِ وتحـت الـثرى ويومِ النُّشُورِ[2]

ويصف ثناياها في بيت آخر، فيقول:

وآنسـةٍ عـذبِ الثـنايا وجدْتُهـا ... علـى خُطَّـةٍ فيها لذي اللبِّ متلفُ[3]

لقـد ندر مثل هذا الشعر الذي يتحدث عن صفات الزوجة الجمالية في الرثاء، إذ انشغل الشعراء بغيره من الحديث عن الحزن والدموع وقلة الصبر والعزاء إزاء مصابهم الكبير.

ومـثلما رثى الشعراء زوجاتهم كان لهم من رثائهنَّ نصيب، فقد رثى عـدد من النساء أزواجهن، ومثل هذا الرثاء وإن كان أقل شيوعاً إلا أنه هو الآخر يعبّر عن طبيعة العلاقة الزوجية من جانب الزوجة، ومواطن اهتمامها بـزوجها، ومـا كان يمثل بالنسبة لها. ومن اللواتي رثين أزواجهن لبابة بنت علي التي قالت في زوجها الخليفة محمد بن هارون عندما قتل:

---

(١) ديوان ديك الجن/ ٩٧، والأغاني/ ج١٤/ ٦٠.
(٢) المصدر السابق/ ٩٩/ والأغاني/ ج١٤ /٦٠.
(٣) نفسه/ ١٧٩.

أبكـــيك لا للنعـــيم والأُنـــس بـــل للمعالـــي والـــرمح والفـــرس
يـــا فارســـاً بالعـــراء مطـــرَّحا خانـــته قـــواذُه مـــع الحـــرس
أبكـــي علـــى ســـيّدٍ فجِعْـــتُ بـــه أرملنـــي قـــبل لـــيلة العـــرس
مـــن للحـــروب التـــي تكون لهـــا إن أُضْـــرِمَت نارهـــا بـــلا قبس
أم مـــن لـــبر أم مـــن لعـــائدة أم مـــن لذكـــر الإلـــه فـــي الغَلَس[1]

إنّ الشـــاعرة تبدو واقعية في شعرها، فهي لم تعرف منه سوى الزوج الذي يؤدي واجب الخلافة، لقد كان- كما تقول- يتمتع بقسط وافر من السيادة والأخـــلاق المثالـــية، وهي هنا تنسى ما قد تطلبه الأخريات من نعيم وأنس، وتنصـــرف إلـــى تعداد مناقب زوجها. إنها تدرك حجم خسارتها به فيصيبها أسف لذهابه عنها، وهذا يخالف ما شعرت به بوران بنت سهل زوجة الخليفة المأمون عندما توفي عنها، فقالت ترثيه:

أســـــعداني علـــــى الـــــبكا معلنيـــــنا
صـــــرت بعـــــد الإمـــــام للهـــــم قيـــــنا
كنـــــت أســـــطو علـــــى الـــــزمان فلمـــــا
مـــــات صـــــار الـــــزمان يســـــطو عليـــــنا [2]

فهـــي تبكـــي خســـارتها بزوجها الذي كان يوفر لها الأمن والحماية والمكانـــة الاجتماعـــية باعتباره خليفة للمسلمين، وبعد وفاته انقلبت الأمور، وتغيّر الحال فأصبحت أسيرة للهم والحزن، وكثرت عَوادي الزمن عليها. وقد قالت في هذا المعنى أيضا الشاعرة زهراء الكلابية في رثائها زوجها:

---

(١) العقـد/ ج٣/ ٢٧٧. ورد البيت الأول والثالث في الحيوان/ أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ/ تحقيق عـبد السلام هارون/ منشورات المجمع العلمي العربي الإسلامي / بيروت – لبنان/ط٣/١٩٦٩/ ج٣/ ٩٠ وقد جاء ترتيب الأبيات في العقد مخالفاً لما هو موجود هنا حيث ورد البيت الخامس قبل الرابع والترتيب المنطقي يفترض أن يكون هكذا.

(٢) نـزهة الجلساء في أشعار النساء/ الحافظ جلال الدين السيوطي/ تحقيق د. صلاح الدين المنجد/ دار الكتاب الجديد/ بيروت- لبنان/ ط٢/١٩٧٨/٢٥.

تـــأوهتُ من ذكرى ابنِ عمي ودونه نقـــا هـــائل جعـــد الـــثرى وصفيحُ
وكـــنتُ أنـــامُ الـــليلِ مـــن ثقـــتي به وأعـــلمُ أن لا ضـــيمَ وهـــو صحيحُ
فأصـــبحتُ ســـالمتُ العـــدوَ ولم أجدْ مـــن الســـلمِ بُـــداً والفـــؤادُ جريحُ[1]

عـــند مقارنـــة شعر رثاء الزوجات، بشعر رثاء الأزواج نجد أنَّ هناك اخـــتلافاً واضـــحاً بينهما، ففي حين أنَّ الزوج يبكي في رثائه لزوجته حبه لها ووده، وقد يبكي حبها لـــه وجمالها، وما كانت توفره من مودة واستقرار، نجد أنَّ المـــرأة فـــي رثائها لزوجها تبكي نفسها من خلال بكاء خسارتها به، وما لحقها بموته من حاجة، وفقدان الحماية، والمكانة الاجتماعية، ولعل هذا امتداد طـــبيعي لحال المرأة في هذا العصر إن لم يكن في أكثر العصور حيث تكون مهمة الرجل الأولى توفير الحماية المعنوية والمادية للزوجة.

وكـــان للتعزية بالزوجة نصيب في شعر هذا العصر أيضا، وإنْ لم يكن شخص الزوجة هو مجال الاهتمام، بل كان زوجها المعزّى، فقد كانت قصيدة الـــتعزية تنقســـم إلى ثلاثـــة أقســـام: أولها تعزية الزوج، وثانيها ذكر الزوجة الراحلة، أمّا ثالثها، فهو مدح الزوج المعزّى.

وفـــي تعزية الزوج قد يستخدم الشاعر بعض الوسائل المتعارف عليها فـــي هذا المجال كبيان حال الدهر وتغيّره وانقلابه. قال ديك الجن يُعزي جعفر ابن علي الهاشمي عن زوجته:

نغفـــــل والأيـــــامُ لا تغفـــــلُ ولا لـــــنا مـــــن زمـــــن موئـــــلُ
والدهـــرُ لا يســـلم مـــن صـــرفِه أعصَـــمُ فـــي القُـــنَّة مســـتوعِلُ
يُصـــغي جديـــداه إلى حكمـــه ويفعـــل الدهـــر بمـــا يَفعَـــلُ
فـــي حَسَـــب أوفى لـــه جحفَـــلٌ يقدُمُـــهُ مـــن رأيـــه جحفـــلُ
بَيـــنا عـــلى ذلـــك إذ عرَّشـــت فـــي عرشـــه داهيـــةٌ ضـــئبلُ
إن يـــكُ فـــي العـــزِّ لـــه مِشقَصٌ مـــاض فقـــد تـــاح لـــه مقتَلُ[2]

---

(١) شاعرات العرب/عبد البديع صقر/ منشورات المكتب الإسلامي/ بيروت - لبنان/ ط١/ ١٩٦٧/ ١٤١

(٢) الأبيات مختارة من ديوان ديك الجن / ٦٥ وما بعدها.

إنَّ الشـــاعر يضـــرب لمعزيه مثلا الوحش الذي استوعل في أعلى جبل يصغي لـــه كل من حولـــه، ويمثل لحكمه من فرط عزّته وجبروته كل قوي وعظيم، ومع ذلك إن أراده الدهر فلن يمنعه منه مانع، فلا غرابة والحال هكذا أن يُصيب الإنسان في أهله فيذهب بهم؛ لأنَّ الموت حقّ يصيب الناس جميعا مهما بلغوا من القوة والمنعة، وهو يشير في ذلك إلى مكانة المعزى وقوته.

ويذكـــر الشاعر بعد ذلك الزوجة الراحلة فيدعو لها بالرحمة، ولقبرها بالسقيا. قال:

جـــادَ علـــى قـــبرك مـــن مَيِّـــت ... بالـــرّوح رَبٌّ لـــك لا يـــبخَلُ
وحنّـــت المـــزنُ علـــى قـــبرِها ... بعـــارضٍ نجوتُـــه مَحفـــلُ
غيـــثٌ تـــرى الأرضَ علـــى وبلـــهِ ... تضـــحكُ، إلا أنـــه يَهمُـــلُ[1]

فالشـــاعر يدعو للزوجة المتوفاة بالرحمة من الله تعالى، كما أنه يدعو لقـــبرها بالسقيا حيث يأمل أن تغمره الأمطار الغزيرة، وهذا تأكيد آخر على طلب الرحمة لها.

وبعدها ينتقل الشاعر إلى مدح الزوج المعزى. قال:

أنـــتَ أبـــا العـــباسِ عباسُـــها ... إذا اســـتطارَ الحـــدَثُ المعضـــلُ
وأنـــتَ ينـــبوعُ أَفانيـــنها ... إذا هُـــمُ فـــي سَـــنة أمحلـــوا
وأنـــت عـــلاّمُ غـــيوب النـــثا ... يومـــا إذا نَســـأَلُ أو نُســـأَلُ[2]

فديـــك الجـــن فـــي مدحـــه للزوج المعزّى. يخلع عليه أنبل الصفات وأعظمهـــا، فهو قوي يُحتاج إليه في الأحداث الصعبة، وهو كريم في سنوات الجـــدب والقحـــط إذ يندر الكرماء، وهو ذو عقل راجح يتكهن بالأحداث قبل وقوعهـــا، وبالتالـــي فإن من يملك مثل هذه الصفات لا يتوقع منه الجزع إن

---

(١) ديوان ديك الجن/ ٦٩.

(٢) المصدر السابق / ٧٠.

أصـــابه مصـــاب فـــي نفسه أو أهله، بل الصبر والتجلد، وتقبّل الحدث بهمة الأقوياء العقلاء.

ويؤكـــد الشـــاعر فكرته السابقة بالبيتين التاليين اللذين يحملهما هدف مديحه السابق. قال:

نحـــنُ نُعـــزّيك ومـــنكَ الهُـــدى مُســـتَخرَجٌ والـــنورُ مســـتقبَلُ
نقـــولُ بـــالعقلِ وأنـــتَ الـــذي نـــأوي إلـــيه وبـــه نعقِـــلُ[1]

فالشـــاعر يؤكـــد لمعـــزيه أنّه، وإن كان هو الذي يعزيه، فإنه يستمد معانـــي هـــذه التعزية من شخصه، فالممدوح وإن يُطلب إليه التعقل والصبر الآن، فقـــد كان يُستمدُّ منه التعقل والرأي والمشورة من قبل، إنَّ رجلاً كانت هـــذه صفته لا بُدَّ أن يكون قادراً على أن يعمل بهدي من عقله الراجح فيلملم أحزانه بقدرة الرجل العاقل القوي.

ويختتم الشاعر قصيدته بالدعاء لمعزيه فيقول:

نحـــنُ فـــداءٌ لـــك مـــن أمـــة والأرضُ والآخـــــــــرُ والأوّلُ
إذا عفـــا عـــنك وأودى بهـــا ذا الدهـــرُ المُحْسِـــنُ المجمِـــلُ[2]

إنه يجعل من نفسه وغيره فداء لمعزيه، وبالتالي فإن الدهر الذي أودى بزوجـــته، وعفا عنه قد أحسن بفعله هذا، وها هنا إشارة أُخرى لحثّ المعزى علـــى تقبل الحدث وشكر القدر على فدائها لـــه. بالإضافة إلى تأكيد ما ذهبت إلـــيه مـــن قـــبل بـــأنَّ شخص الزوجة الراحلة لم يكن ذا بال بالنسبة للشاعر المعزي، وإنما زوجها المُعزى.

ومـــن علامـــات الود بين الزوجين مشاركة أحدهما للآخر في الحزن والفـــرح، وتعاطفهما في المواقف المختلفة التي تجدّ في الحياة الزوجية، وفي هذا كله دليل على أصالة العلاقة وقوتها، وكما نوّه الشاعر العباسي في بعض

---

(١) ديوان ديك الجن/ ٧٠-٧١.

(٢) المصدر السابق/ ٧١.

أشعاره بمشاركة زوجته له في مصاعب حياته وآلامها، ذكر مشاركتها إياه في أحزانه فقد ورد في الأغاني أبيات لعلبة بن ربيعة الحارثي قالها لزوجته من خلال محاورة بينهما قبل أن يقتل ابنه جعفر: [1]

لعمرك إنَّ الليل يا أمّ جعفر ... عليَّ وإن عللتني لطويل
أُحاذر أخباراً من القوم قد دنت ... ورجعة أنقاض لهن دليل[2]

لقد كان الشاعر يعاني الهمّ والقلق على مصير ابنه الذي طالت غيبته، ونتيجة لإحساس الأب بما حدث لابنه، أو بما يمكن أن يحدث شعر بالخوف من أخبار سيئة ربما تحمل خبر مقتله، وفي ظل هذا الموقف الصعب لم يجد من يشكوه همَّه، ويخبره بقلقه سوى زوجته التي كانت تعلله وتخفف عنه ببعث الأمل في نفسه، وبضرورة عدم الركون إلى أحاسيسه الواهمة.

ومن مظاهر التعاطف بين الزوجين حول مصابهما المشترك ما كان من القاسم بن يوسف الذي أوضح من خلال رثائه لابنه أنَّ زوجته لبابة كانت سلوته الوحيدة وقد كان يحاول- بالمقابل- أن يخفف عنها المصاب وأن يستحث الصبر والعزاء في نفسها. قال:

هل لي على الحزن الطويـ ... ـل سوى لبابة مسعدُ
ثكلى بواحدها فلي ... س لها عليه تجلدُ
وكأنَّ بين ضلوعها ... جمر الغضا يتوقدُ
ألبابَ إنَّ الصبرَ أنـ ... ـفعُ في الأمور وأحمدُ
ألبابَ كيفَ بقاءُ نفـ ... ـسٍ كل يوم تكمدُ
ألبابَ إنَّ الصبرَ أبـ ... ـقى للإله وأرشدُ[3]

---

[1] علبة بن ربيعة الحارثي وابنه شاعران من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية لهما قصص في حادثة موت جعفر (الابن) انظر الأغاني/ج١٣/ ٤٥-٥٧.

[2] الأغاني/ ج١٣/ ٥٤.

(٣) أخبار الشعراء المحدثين في كتاب الأوراق/ محمد بن يحيى أبو بكر الصولي/ عُني بتحقيقه ج. هيوراث. دن/ دار المسيرة/ بيروت/ط٢/١٩٧٩/٢٠٥.

لقد حزن الشاعر حزنا شديدا على ابنه وبكاه أغزر البكاء، وعندما أفاق من غمرة أحزانه لم يجد حوله من يشاركه مثل هذا الحزن سوى زوجته التي كانت تعاني سكرات الحزن على وحيدها كأنها جمرات تكوي ضلوعها وقلبها فتحيله إلى حرارة لا تخمد أبدا، وهو يحاول أن يخفف عن نفسه وعنها مما يعانيان فينصحها بالصبر، ويبين لها عواقبه وفوائده.

ثانيا- دوافع الإثارة بين الزوجين

وُجِدَ في هذا العصر دوافع أدت إلى إثارة أحد الزوجين أو الزوجين معاً مما كان يؤدي- في أحيان كثيرة- إلى الخصام، فالقطيعة، ومن أهم هذه الدوافع ثلاثة هي: غيْرة المرأة، والمفاخرة بين الزوجين، وتعدد الزوجات. وقد تابع الشعر هذه الدوافع وصوّرها.

الغيرة

إن من يطلع على أحوال المرأة في العصر العباسي يلاحظ أنّ المرأة في كثير من الأحيان قد استسلمت للوضع السائد آنذاك من انصراف زوجها عنها إلى سواها من الإماء والجواري، لقد أصبح هذا الأمر مألوفا لها حتى رُوي أنها كانت تساعده في بعض الأحيان على امتلاك الجواري بإهدائها إياه عددا منهن. من ذلك ما ذكر عن السيدة زبيدة زوجة الخليفة هارون الرشيد أنّها أهدته عشر جوار منهنّ مراجل أُمُّ المأمون، ومارية أُمُّ المعتصم، وماردة أُمُّ صالح[1] وهذا الأمر غريب على طبع النساء يحتاج إلى تفسير وقد رأت بعض الدراسات أنّ الذي خفف من وقع ذلك على نفسها أي المرأة في العصر العباسي أنّها كانت في الغالب سيّدة البيت حتى لو لم تكن سيدة لقلب زوجها.[2] وكان من الممكن أن يكون هذا التفسير مناسباً لو أنّ الأمر المهم هو المنافسة على سيادة البيت أو إدارته، ولكن الأمر لم يكن كذلك فقط،

---

(١) الأغاني/ ج١٨/ ٦٧.

(٢) المرأة في الأدب العباسي/ واجدة الأطرقجي/ دار الرشيد للنشر/ العراق/ ١٩٨١/ ٤٤-٤٥.

فالمنافسة في الواقع كانت على قلب الزوج ومشاعره، ولعل السبب في رضوخ المرأة العباسية للأمر حسبما أراه أنها فتحت عينيها على الحياة فوجدت أباها وأخاها وجميع من حولها يقتنون الإماء والجواري فمثل هذا الأمر- على ما يبدو- كان شائعاً شيوعاً كبيراً؛ لذا فقد ألفت مثل هذا الأمر غالباً منذ صغرها، واعتادت عليه، وبالتالي أصبحت مهيأة لأن تقبله في بيتها. أما رواية إهداء السيدة زبيدة الجواري لزوجها فقد يكون وراءها- إن صحت- أسباب سياسية، إذ ربما كان الهدف من ذلك هو رغبتها في إبعاده عن يحيى بن الربيع الفارسي الأصل مولى دنانير التي كان الرشيد يتردد عليه لأجلها، وتلمّح بعض الروايات إلى رغبة السيدة زبيدة في الحد من النفوذ الفارسي آنذاك، وإلى أنها كانت من المشجعين للرشيد في نكبة البرامكة.

رغم ما ذكرت سابقاً، فإنّ كثيراً منهنّ لم يقفن مكتوفات الأيدي إزاء كل ما كان يقوم به الزوج؛ لأنّ الغيرة انحبست عند بعضهن، وتنفست في أعمال انتقامية أحياناً، والدليل على ذلك تلك القصص الكثيرة المتناثرة في بطون الكتب حول غيرة النساء، وما كانت تؤدي إليه من مؤامرات ودسائس للتخلص من محظيات الزوج حتى لو أدّى ذلك إلى قتل الزوج نفسه، منها ما رواه الطبري من أنّ بكّار بن عبد الله تزوج امرأة من ولد عبد الرحمن بن عوف وكان له من قلبها موضع فاتخذ عليها جارية، وأغارها، فقالت لغلامين له زنجيين بأنّ هذا الفاسق- أي زوجها- أراد قتلكما، ولاطفتهما حتى اطمأنا إليها، فطلبت منهما أن يعاوناها على قتله، فاستجابا لها، فدخلت عليه وهو نائم وهما جميعاً معها، فقعدا على وجهه حتى مات .... .[1]

ومن صور الغيرة الأخرى عند النساء ما ذكره المرزوقي عن مصعب الزبيري عن أبيه أنّ خالد بن صفوان دخل على الخليفة أبي العباس السفّاح، فوصف له من أمر الجواري الكثير حتى رغّبه فيهنّ، فلما علمت زوجه أم سلمة أرسلت لخالد جماعة من البخارية ومعهم الكوفركوبات وأمرتهم ألا يتركوا منه عضواً صحيحاً، وقد اضطره ذلك إلى التراجع عما قاله عندما

---

(١) تاريخ الأمم والملوك/ ج٨/٢٤٦-٢٤٧.

سأله أبو العباس مرة أخرى عن أمر الجواري، بل حدثّه بما يكرّهه بهن حتى استنكر منه الأمر واستغربه، وعندما سمعت أم سلمة حديثه الثاني وصلته بعشرة آلاف درهم وتخت وبرذون.[1]

ومن صورها الأُخرى أيضا ما رواه الطبري عن أُم منصور الحميرية زوجة الخليفة المنصور إذ قال: كان المنصور قد اشترط لأم منصور الحميرية ألا يتزوج عليها ولا يتسرى، وكتب بذلك كتاباً أكدته، وأشهدت عليه شهودا فعزب بها عشر سنين في سلطانه، فكان يكتب إلى الفقيه بعد الفقيه من أهل الحجاز يستفتيه، ويُحمل إليه الفقيه من أهل الحجاز وأهل العراق، فيعرض عليه الكتاب ليفتيه فيه برخصة، فكانت أم موسى إذا علمت مكانه بادرته، فأرسلت إليه بمال جزيل، فإذا عرض عليه أبو جعفر الكتاب لم يفته برخصة حتى ماتت (٢).

يظهر من هذه القصص الثلاث أنَّ المرأة لم تستسلم دائماً لمنافسة الجواري لها حيث كان لهنّ أثر كبير في عدم استقرار حياة الأُسرة عامة والعلاقات الزوجية خاصة، فالزوج يطلب عندهنّ التسري والمتعة، والزوجة- نتيجة لذلك- تعيش حالة من القلق والغيرة فتفكر في طرق تحفظ لها زوجها، أو تودي بحياته، فلا يكون لها ولا لغيرها.

ويبدو أن غيرة النساء- وخاصة الضرائر- وما تقوم به كل واحدة منهما قد تعمقت نفوس كثيرين، ومنهم الشعراء، فكانت مضرب مثل في أشعارهم. فقد وصف البحتري سخاء المتوكل بقوله:

كلتا يديه تفيض سحا ... كأنّها ضرّة تغارُ
فليس تأتي اليمين شيئاً ... إلا أتت مثلَها اليسارُ[3]

---

(١) مروج الذهب/ ج٤/ ١٠٦-١٠٧. الكوفر كوبات: اسم أعجمي لآلات يضرب بها كالعمد وغيرها.

(٢) تاريخ الأمم والملوك/ ج٨/٨٦-٨٧

(٣) ديوان البحتري/ تحقيق حسن كامل الصيرفي/ دار المعارف/ مصر/١٩٦٣/ج٢/١٠١٤

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المفاخرة بين الزوجين

المفاخرة بين الزوجين من الأمور التي تقتل المودة بينهما، وقد تورث الحقد والكره بينهما خاصة إن اشتدت ووصلت إلى مستوى عالٍ من الجدية، وبالتالي فقد كانت سبباً من أسباب النزاع التي قد تؤدي إلى الطلاق.

ومن الذين أثرت المفاخرة بالنفس والأهل على علاقتهما الزوجية الشاعر أبو الزوائد وزوجته التي كانت كثيرة الفخر بقومها فما كان منه إلا أن أجابها قائلا:

هلا سألت منازلا بغرار ... عمن عهدت به من الأحرار
أين أنتأوا ونحاهم صرف النوى ... عنا وصرف مقحم مغيار
كره المقام وظنّ بي وبأهلها ... ظنّا فكان بنا على إصرار
عدّي رجالك واسمعي يا هذه ... عني مقالة عالم مفخار
سأعد سادات لنا ومكارما ... وأُبوة ليست عليَّ بعار
قيس وخندف والدايَ كلاهما ... والعم بعد ربيعة بن نزار
من مثل فارسنا دريد فارسا ... في كل يوم تعانق وكرار
وبنو زياد من لقومك مثلهم ... أو مثل عنترة الهزبر الضاري
والحي من سعد ذؤابة قومهم ... والفخر منهم والسنام الواري[1]

فالشاعر من خلال الأبيات السابقة يذكّر زوجته بمكانته ومكانة قومه وأمجاد أخواله وأعمامه، وهو في هذا يحاول أن ينبّه زوجته إلى أُمور تجهلها، أو قد تكون تجاهلتها عندما فخرت عليه بقومها، ولعله في بيته الرابع "عدي رجالك يا هذه...." قد وصل إلى أوج ثورته على زوجته حيث يُظهر تحدياً لها واستصغاراً، وبعدها يبدأ بتعداد فضائله وفضائل قومه من كرم وحسب ونسب وشجاعة وسيادة ويستمر في ذلك إلى نهاية القصيدة.

ومما يؤكد أنّ مثل هذه الأُمور كانت سبباً لسوء العلاقات الزوجية، الحياة التعسة التي كان يعيشها الشاعر أبو الزوائد نفسه، إذ ذكر صاحب

---

(١) الأغاني/ ج١٤/ ١٢٤-١٢٥.

الأغاني بعضاً من قصصه وأخباره مع زوجته فيها معالم الكره لها، والضيق منها.[1]

تعدد الزوجات

عالج الإسلام ضمن ما عالج موضوع تعدد الزوجات، فقد قام بتنظيمه وتحديده ومن أهم ما يتعلق بهذا الموضوع أنّ الشرع جعله علاجا لبعض الأحوال الشخصية والاجتماعية في المجتمع الإسلامي، ولم يرد به أداة للهو والعبث، كما أنه اشترط شروطاً يجب على الرجل تحقيقها، وإلا فلا يجوز له الزواج من غير واحدة، ومن أهمها العدل بين الزوجات. ﴿ **فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى ألا تَعُولُوا** ﴾[2].لكنّنا نجد في هذا العصر أنَّ كثيرين انحرفوا عن أُصول الدين وجعلوا موضوع التعدد وسيلة من وسائل العبث مما أدّى إلى نتائج سلبية أثرت على العلاقات الزوجية خاصة، والأُسرية عامة، ومن دلائل استهتار الرجل بقضية التعدد ما روي عن أحمد بن أبي دؤاد الشخصية السياسية المعروفة في العصر العباسي[3] فقد قيل إنه تزوج امرأتين من بني عجل في سنة واحدة، ولهذا لم يسلم من لسان الشاعر دعبل الخزاعي، فهجاه هجاءً مُراً فيه فُحش وبذاءة منه قوله:

إن كان قوم أراد الله خزيهم ... فزوجوك ارتغابا منك في ذهبك
فذاك يوجب أنَّ النبع تجمعه ... إلى خلافك في العيدان أو غربك
ولو سكت ولم تخطب إلى عرب ... لما نبشت الذي تطويه من سببك[4]

---

(١) الأغاني /ج ١٤/ ١٢٣-١٢٥.

(٢) سورة النساء/ ٣.

(٣) من كبار رجال الدولة في دولة الأمين، كان عالما فاضلا مسموع الكلمة في البلاط، وقد طال عمره وتعمقت صلته بكثير من الخلفاء، فكان قاضي القضاة للمأمون والمعتصم والواثق وأول عهد المتوكل. انظر موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية/ الدكتور أحمد الشلبي/ مكتبة النهضة المصرية/ ط ٦/ ١٩٧٨/ج٣/ ١٨١.

(٤) الأغاني/ ج٢٠/ ١٣٤-١٣٥.

ولم تقف المرأة مكتوفة الأيدي دائماً إزاء تعدد زواج زوجها؛ لذا كثيراً ما كان يضطر الزوج للزواج سراً عنها، وإذا ما علمت فليس أقل من الطرد من البيت أحياناً عقاباً له، وهذا ما حدث للشاعر أبي العيناء إذ ذكر ابن الجوزي أنّه تزوج سراً عن ابنة عمّه، وعندما علمت منعته من دخول الدار، وحالت بينه وبين ما فيها، فلم يرَ الأمر يصلح إلا بطلاق الزوجة الجديدة، فصلح أمره مع ابنة عمّه.(١)

وقد عانى كل من الرجل والمرأة من مثل هذا التعدد الذي لم يكن يعود على كثير منهم إلا بالتعب والضرر، فقد قيل لإعرابي: من لم يتزوج امرأتين لم يذق حلاوة العيش، فتزوج امرأتين، ثم ندم، فأنشأ يقول:

تزوجت اثنتين لفرط جهلي ... بما يشقى به زوج اثنتين
فقلت أصيرُ بينهما خروفا ... أُنعّم بين أكرم نعجتين
فصرتُ كنعجة تضحي وتمسي ... تداول بين أخبث ذئبتين
رضا هذي يُهيج سخط هذي ... فما أعرى من أحد السخطتين
وألقى في المعيشة كُلّ ضر ... كذاك الضر بين الضرتين
لهذي ليلة ولتلك أُخرى ... عتاب دائم في الليلتين(٢)

لقد تزوج اثنتين ليحقق لنفسه رغد العيش ونعيم الحياة، ولكن الحال آل إلى عكس ما توقع، لذا فقد عاش حياته في صراع دائم، وقد دفعه هذا إلى نصح الآخرين ليس بعدم التعدد فقط، وإنما بالعزوبية وعدم الزواج مطلقا. قال:

---

(١) أخبار الظراف والمتماجنين/ أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي/ مطبعة التوفيق/ دمشق/ ١٣٤٧هـ / ٦٣-٦٤.

(٢) الأمالي / أبو علي إسماعيل القالي/ دار الكتب العلمية/ بيروت- لبنان/ د.ت/ ج٢/ ٣٥-٣٦.

فـــإن أحببـــتَ أن تـــبقى كـــريما ... مـــن الخـــيرات مملـــوء اليديـــن
وتـــدركُ مُلـــكَ ذي يـــزن وعمـــرو ... وذي جـــدن ومُلـــكَ الحارثيـــن
وملـــكَ المنذريـــن وذي نـــواس ... وتـــبّع القديـــم وذي رعيـــن
فعـــش عـــزباً فـــإن لـــم تســـتطعه ... فضـــربا فـــي عـــراض الجحفلين[1]

إنَّ تجربـــته المريـــرة تلك جعلته يخلص إلى رأي مفاده أنَّ من أراد الحـــياة الحـــرّة الكـــريمة، ومن أراد الوصول إلى بغيته من المعالي والغِنى والمجد فعليه أن لا يتزوج أبداً.

ثالثا ـ الخصومات الزوجية

لا يســـود الوئـــام والصفاء الحياة الزوجية دائماً، وإنما قد يتخلل هذه العلاقة شيء من الفتور الذي قد يصل إلى الخلاف، فالخصام.

وتخـــتلف هـــذه الخصومات باختلاف الأسباب والدوافع التي ولّدتها، ولعل من أهم أسباب الخصومة بين الأزواج في هذا العصر المال، والجواري والقيان.

المال

كثـــيراً مـــا كانت المسائل المالية سبباً في الخلاف بين الزوجين سواء أكـــان ذلـــك بسبب الفقر أم بسبب الإنفاق في وجوه لا يرضاها أحد الزوجين خاصـــة الزوجة التي كانت تحرص على المال لنفقتها ونفقة عيالها، بينما قد يسعى الزوج لتقديمه في الوجوه التي تعود عليه بالمدح كما وصلنا من خلال شعر شعراء هذا العصر، وتختلف حدّة الخلاف حول المسائل المالية من أُسرة إلـــى أخرى، ففي حين كان يؤدي إلى مجرد عتاب، أو خلاف بسيط في أسرة ما نراه يؤدي إلى خلاف كبير يقود إلى القطيعة في أُسرة أُخرى.

---

(١) الأمالي / ج٢/ ٣٦.

ومن الشعراء الذين بلغ خلافهم مع زوجاتهم حداً بالغاً دعبل الخزاعي وقد قال في ذلك:

بانتْ سليمى وأمسى حبلُها انقضَبَا ... وزوَّدوكَ، ولم يرثُوا لك الوَصَبا
قالت سلامة: أين المالُ؟ قلت لها: ... المالُ ويحكَ لاقى الحمدَ فاصطحَبا
الحمد فرّق مالي في الحقوق فما ... أبقين ذمّا ولا أبقينَ لي نَشَبا [1]

ويُشير دعبل إلى حادثة توجز تفكير كل من الرجل والمرأة في هذا المجال. قال:

قالت سلامة: دَع هذي اللبُونَ لنا ... لصبية مثل أفراخ القطا زُغُبا
قلت احبسيها ففيها مُتعة لهمُ ... إن لم يُنِخ طارقٌ يُنيخ القرى سَغبا
لما احتَبَى الضيفُ واعتلت حلوبتُها ... بكى العيالُ وغنى قدرُنا طَرَبا [2]

ويبلغ إصرار الشاعر على موقفه هذا حدّاً لا ينفع معه كلام ولا نقاش. قال:

هذي سبيلي وهذا فاعلمي خُلُقي ... فارضي به أو فكوني بعضَ غَضبا
مالا يفوتُ وما قد فاتَ مطلبُه ... فلن يفوتَني الرزقُ الذي كُتبا
أسعى لأطلبَهُ والرزقُ يطلبُني ... والرزقُ أكثر لي مني له طلبا
هل أنتَ واجد شيئا لو عُنيتَ به ... كالأجر والحمد مُرتادا ومُكتسبا [3]

وهنا سؤال يفرض نفسه: لماذا كانت المرأة ترفض إسراف زوجها للمال؟ أو لماذا خصَّ الشعراء الزوجات بكثرة لوم أزواجهنّ على إسرافهم للمال؟ إنّ هذه الظاهرة قديمة وجدت في الشعر الجاهلي من قبل، وقد حاول النقاد إيجاد تفسير لها على أساس أنّها مرتبطة ببخل المرأة الجاهلية، فذكر

---

(١) ديوان دعبل الخزاعي/ جمع وتحقيق محمد يوسف نجم/ دار الثقافة / بيروت/ ١٩٦٢/١٣-١٤.

(٢) المصدر السابق/١٤. اللبون: ذات اللبن. السغب: الجائع. احتبى الرجل: ضم رجله إلى بطنه بثوبه أو بيديه.

(٣) نفسه /١٤.

الدكتور أحمد الحوفي رأياً لغيره مُلَخصّه أنَّ هذا البخل المزعوم ربما كان من خيال الشعراء أرادوا به أن يعظّموا مروءاتهم، وقد أداروا هذا الخيال على زوجاتهم، ولم يديروه على أمهاتهم أو أخواتهم أو بناتهم، وذلك؛ لأنّ الزوجة أحياناً ليست من قرابتهم. ولكنّه رفض هذا الرأي قائلاً: "ولكنّنا نردّ على هذه الدعوى بأنّ من دواعي شرف الرجل أن تكون زوجته كريمة مثله؛ لأنّها من أصهار كرماء، أو لأنَّ كرم زوجها أعداها، فليس مما يشرّف الزوج أن يتخيّل اللؤم من الزوجة لا من أمه أو أخته".(١)

وسواء أكانت القضية من خيال الشعراء، أم كانت من باب الحقيقة، فإنّها ظاهرة موجودة وهي بحاجة إلى تعليل، إذ كثرت شكوى الرجال من بخل زوجاتهم ورفضهنّ لكثرة عطائهم، وصوروهنّ محبات لخزن المال، وكارهات لأي نوع من العطاء؛ لأنّه لا يعود عليهنّ أو على أولادهنّ بالفائدة، ويبدو لي من خلال شعر شعراء هذا العصر أنَّ المرأة كانت فعلاً أكثر محافظة على مال زوجها، وأكثر رغبة في ادخاره، ولكن ذلك لم يكن لبخلها أو لشيء من هذا القبيل، وإنما كان لخوفها من تقلب الأحوال، وصعوبة تدبير نفقة أولادها إن حدث مكروه لزوجها، أو إن أصابته ضائقة ما، وهو أمر طبيعي عند المرأة، فهي في الغالب كثيرة القلق والخوف من المجهول كموت الزوج أو الطلاق أو غير ذلك من الظروف التي تجعلها تتحمل عبء نفقتها ونفقة عيالها خاصة وأنّها غالباً لا تعمل ولا تستطيع جلبه كما يفعل الرجل؛ لذا تبدو أكثر محافظة على المال من الرجل الذي قد لا يعبأ بهذه الأمور كثيراً، ويهتم بدلاً منها بجلب الحمد لنفسه. وهناك سبب آخر نفسي ربما يكون ساهم في منع المرأة من موافقة زوجها على إنفاق ماله في الوجوه التي يعود نفعها عليه وحده، ذلك؛ لأنّ الرجل يشركها في تحمل نفقات كرمه وعطائه، ولا يشركها معه في نوال الحمد والثناء، لهذه الأسباب مجتمعة يمكن أن تكون الزوجة قد آثرت عدم إنفاق المال إلا في الوجوه التي تراها صحيحة.

---

(١) الحياة العربية من الشعر الجاهلي/ ٣٣٠.

ومـــثلما كان إنفاق المال في غير ما ترى الزوجة سبباً للخلاف بينهما كان حثّها لزوجها على جلبه سبباً آخر لـــه، إذ قد تشير الزوجة على زوجها بالاســـتعانة بأصـــدقائه إن وقع في ضائقة، ولكنّه يرفض كما حصل مع أبي شراعة الذي رفض أن يريق ماء وجهه لهم. قال:

تلـــوم ابـــنة الـــبكرى حيـــن أُوبهـــا ... هـــزيلا وبعـــض الآئبيـــن ســـمين
وقالـــت لحـــاك الله تستحســـن العـــرا ... عـــن الـــدار إن النائـــبات فـــنون
وحولـــك إخـــوان كـــرام، لهـــم غنىً ... فقلـــت لإخوانـــي الكـــرام عـــيون
ذرينـــي أمـــت قـــبل احـــتلال محلـــة ... لهـــا فـــي وجـــوه السائلين غضون
ســـأفدي بمالـــي مـــاء وجهـــي إنّني ... بمـــا فـــيه مـــن ماء الحياء ضنين[1]

فاللوم يقع من قبل الزوجة حين لا يأتي لها زوجها بما تتوقعه من مال كمـــا يفعل الآخرون من الرجال، وهكذا فعلت زوجة أبي شراعة، فقد أشارت علـــيه بتحســـين وضـــعهم المالـــي، وإصلاح بيتهما الآيل للسقوط بالاستعانة بإخوانـــه، ولكـــنه رفض طلبها، ورأى أنّ من يريد تقديم المساعدة لا ينتظر الســـؤال، وهـــو لـــن يسأل أحدا؛ لأنّ السؤال يؤذيه، ويريق ماء وجهه، وهو يفضّل الفقر على ذلك.

وقـــد تدفـــع الـــزوجة زوجها للعمل على كسب المال لتحسين الوضع المالي مهما كانت خطورة الوسيلة التي عليه أن يتبعها لتحقيق ذلك. أما الزوج فقد يكون رجلا لا يهوى المغامرات؛ لذا لا يهمه الغنى أو جمع المال فحياته- كما يراها- أثمن من ذلك بكثير. ذُكر أنّه كان للعتّابي امرأة من باهلة لامته، وقالت: هذا منصور النمري قد أخذ الأموال فحلّى نساءه، وبنى داره واشترى ضياعاً، وأنت ها هنا كما ترى. فأنشأ يقول:

---

(١) الأغاني/ ج٢٣/٢٦.

تـلوم عـلى تـرك الغـنى باهـلية ... طـوى الدهرُ عنها من طريف وتالد
رأت حولهـا النسـوان يمشين خلسةً ... مقـلدة أجيادهـا بـالقلائد
أسـرّك أنـي نـلت مـا نال جعفر ... مـن المُـلك أو ما نال يحيى بن خالد
وإنّ أميـر المؤمـنين أغصـني ... مغصـهما بالمـرهفات البوارد
فـإنّ نحيسـات الأمـور مشـوبة ... بمسـتودعات فـي بطـون الأساود
ذريـني تجئـني ميتـتي مطمئـنة ... ولـم أتجشـم هـول تلك الموارد[1]

وقـد يكـون الخـلاف حول المسائل المالية بين الزوجين وسيلة من وسـائل الـرزق كمـا هـو الحال عند أبي دلامة الذي كان يفد على الخليفة المنصـور فيصف لـه فقره وخلافه مع زوجته من أجل المال أملاً في عطائه الذي يخفف من حدّة مشكلته، فقد قال يصف خلافه مع زوجته:

أذابـك الجـوعُ مـذ صـارت عيالتُنا ... عـلى الخـليفة مـنه الـرّيُّ والشبعُ
لا والـذي يـا أميـر المؤمنين قضى ... لـك الخلافـةَ فـي أسـبابها الـرّفَعُ
مـا زلـتُ أخلصُـها كسـبي فتأكله ... دونـي ودون عيـالي ثـم تضـطجعُ
شـوهاءُ مَشـنأةٌ فـي بطـنها ثَجَـل ... وفـي المفاصـل مـن أوصالها فَدَعُ
ذكّـرتُها بكـتاب الله حرمتـنا ... ولـم تكـن بكـتاب الله تنـتفعُ
فاخـرنطَمَت ثـم قالت وهي مُغضبةٌ ... أأنـت تتـلو كـتابَ الله يـالكَعُ
اخـرُج لتـبغِ لـنا مـالا ومـزرعة ... كمـا لجيرانـنا مـال ومـزدرَعُ
واخـدع خليفتـنا عـنها بمسـألة ... إنّ الخـليفة للسـؤال يـنخدعُ[2]

فالأبيـات تشـير إلى بعض المشكلات المالية التي كانت تعيشها بعض الأُسـر في هذا العصر، فالزوج قد يقدم كل كسبه للمرأة، لتنفقه على أسرتها، وهكـذا كـان يفعـل أبو دلامة، ولكن زوجته لم تكن تقوم بالمهمة كما يجب، فكانت تستفيد من المال في طعامها دونه ودون عياله كما يقول. وهذا ما دعاه

---

(١) العـتابي حياتـه وشـعره/ د. ناصر حلاوي/ دار الطباعة الحديثة / البصرة/ ٢٥-٢٦، وانظر كذلك الأغـاني/ ج١٣/ ١٢٣-١٢٤، وقـد وردت الأبيـات كذلك في البيان والتبيين/ أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ/ تحقيق عبد السلام هارون/ دار الفكر / بيروت/ ط٤/ د.ت /ج٣/ ٣٥٣-٣٥٤ مع اختلاف.

(٢) الأغاني/ ج ١٠/ ٢٣٨. اخرنطمت: رفعت أنفها وغضبت.

إلـــى هجائهـــا، ومن هنا يمكن ملاحظة أمر وهو أنّ الرجال ليسوا دائماً هم المتحكميـــن في دخل الأُسرة، وإنّمَا قد تضطلع الزوجة بتدبير المسائل المالية في البيت في حين يقوم الرجل بالعمل خارجه.

وكمـــا كـــان إنفاق الرجل لماله في غير ما ترى المرأة موجبا للخلاف بيـــنهما، فـــإن الأمر كان كذلك إن أنفقت المرأة المال دونما حرص أو حسن تدبـــير، وهـــذا سبب النزاع بين أبي دلامة وزوجته، إنه كان دائم التذكير لها بكتاب الله حتى ترتدع، ولكنّ ذلك لم يكن يجدي نفعاً، وإنما كان يُثيرها؛ لأنها تســـتنكر أن يدعوها للانتفاع بما أتى به القرآن الكريم، في حين لا يعرف هو مـــا فـــيه، ولعلها في ذلك تعتمد على سيرته وخلقه البعيدين عن أوامر الدين ونواهيه. وقضية أُخرى تصوّرها الأبيات هي حثّ بعض الزوجات أزواجهنّ للعمل على كسب الرزق وتحصيل المال لا يهمها في ذلك الوسيلة، وقد تجعل مـــن جيرانها ومعارفها مثلا يُحتذى به، وقد تشير على زوجها اعتماد بعض الوسائل من أجل تحقيق طموحها كما فعلت زوجة أبي دلامة إذ أشارت عليه بخـــداع الخليفة وذلك باصطناع الفقر حتى يعطيه مالاً على حد قول الشاعر، وسواء أكانت هذه الحكاية من صنع أبي دلامة ليكسب عطاء الخليفة أم حقيقة، فإنها تصور لنا جانباً من هموم الأُسرة العباسية في قضايا المال والنفقة.

وقد يكون المال سبباً في انقطاع العلاقة الزوجية من وجوه أُخرى، فقد نقـــل لـــنا الشعر العباسي بعض الصور الاجتماعية التي تتعلق بالزواج طمعاً بمال المرأة، فكان هذا مجالا للتندر والسخرية من جانب، وسبباً لهجاء الزوج من جانب آخر؛ لأنّ مثل هذه الأمور كانت غير مقبولة اجتماعياً عند كثير من الناس، فقد ورد أنّ رجلاً من ثقيف يقال لـــه محمد بن خالد بن عمار الثقفي، وكـــان عـــدواً لأبان بن عبد الحميد اللاحقي تزوج بعمارة بنت عبد الرحمن الثقفي، وكانت كثيرة المال، فقال أبان يهجوه ويحذرها منه:

لا عمـــــر الله بهـــــا ربعـــــه ولا رأتـــــه مدركـــــا ثـــــاره
مـــاذا رأت فـــيه، ومـــاذا رجـــت؟ وهـــي مـــن النســـوان مخـــتاره
أســـود كالســـفود ينســـي لـــنا الـــ تـــنور بـــل محـــراك قـــيّاره
تجـــري علـــى أولاده خمســـة أرغفـــة كالـــريش طـــيّاره
وأهلـــه فـــي الأرض مـــن خوفـــه إن أفـــرطوا فـــي الأكـــل سيّارهُ[1]

إنَّ من كان لـــه مثل هذا الخلق بالإضافة إلى دمامته، فهو ليس بزوج مختار؛ لذا ينصحها بتركه وإبطال الزواج قائلا:

ويحـــك فـــري واعصـــبي ذاك بـــي فهـــذه أُخـــتك فـــراره
إذا غفـــا بالليـــل فاســـتيقظي ثـــم اظفـــري إنـــك ظفـــاره
فصـــعدت نائلـــة ســـلّما تخـــاف أن تصـــعده الفـــاره
ســـرور غـــرتها فـــلا عوفيـــت فإنّهـــا اللخـــناء غـــراره
لـــو نلـــت مـــا أبعـــدت مـــن ريقـــا إن لهـــا نفـــثةً سـحّاره[2]

فهو ينصحها بتركه إلى غير رجعة حتى تحقق لنفسها الظفر والراحة مـــن هذا الزواج الذي لن يعود عليها إلا بكل سوء. وقيل: إنّ عمارة هذه لمّا سمعت هذا الشعر هربت فحرم الثقفي من جهتها مالا كثيرا.[3]

وقـــد تكـــون المرأة الأرملة غنية، مما يطمع الرجال فيها، فيطلبونها للـــزواج ويبدو أنّ الزواج من أرملة سواء أكانت فقيرة أم غنية كان مكروها فـــي هـــذا العصـــر. يُذكر أنّ سعيد بن المهلب تزوج بنتاً لسفيان بن معاوية، وكانـــت قـــد تزوجت قبله، فكتب أبو عيينة يعنفه على اختياره لها، وأنّه إنّما اختارها بسبب مالها. قال:

---

(١) الأوراق/ ٢٤. القيارة: من يستخدم الزفت طلاء للأشياء.

(٢) المصدر السابق/ ٢٤.

(٣) نفسه/ ٢٥.

رأيـــت أثاثَهـــا فرغبـــتَ فـــيه ... وكـــم نصـــبت لغـــيرك بالأثـــاث
إلـــى دار المـــنون فجهـــزتهم ... تحـــثّهمُ بأربعـــة جـــثاث
فصـــيّر أمـــرها بـــيدي أبـــيها ... وعيشـــك مـــن حـــبالك بالـــثلاث
وإلا فالســـلامُ علـــيك منـــي ... ســـأبدأ مـــن غـــد لـــك بالمراثي[1]

الجواري والقيان

ومن الظواهر الاجتماعية الواضحة في العصر العباسي كثرة الجواري وانتشـــارهنّ انتشـــاراً واســـعاً نتيجة كثرة الفتوحات العربية آنذاك فهنّ سبي الحـــروب، وهنّ بالتالي حق للفاتحين، إذ يصبحّن ملك يمين لهم، وقد زاد في انتشـــارهنّ اشتغال النخاسين بتجارتهنّ، فكان لهنّ أسواق خاصة بهنّ، كسوق الرقيق في بغداد، وقد كنّ من جنسيات مختلفة، روميات وفارسيات وتركيات وزنجـــيات... [2] وقد كان كثير منهنّ يتمتعن بجمال باهر مما جعلهنّ يغلبن علـــى عقول الرجال، وبالتالي جعل لهنّ مكاناً متميزاً في هذا العصر، سواء فـــي قصـــور الخلافـــة أم بين فئات العامة، والذي يهمني في هذا البحث هو الـــتعرف إلـــى أثر هذه الفئة على الحياة الأُسرية في العصر العباسي. ولكي يتســـنى لـــي ذلـــك لا بُدَّ من دراسة لبعض أوضاعهنّ وأخلاقهن، فهنّ ذوات أشكال مختلفة من طول القامة وبياض اللون وصفاء البشرة.... وذوات ثقافات مخـــتلفة مـــنها أدبية وفنية، كما أنهنّ كُنّ يحذقّن مهارات مختلفة أهمها الغناء والرقص كلّ ذلك زاد في رغبة الرجال فيهن، وخاصة رجال الطبقة العُليا إذ كُنّ وسيلة من وسائل الترف عندهم.

ولـــم تكن ثقافتهنّ تلك نتاج حب للعلم والأدب دائماً، وإنما كان تُجّار الرقـــيق يقومـــون بتعليمهنّ وتثقيفهنّ من أجل مكاسب تجارية خالصة، فثقافة الجارية وحذقها لمهارة معينة كان يزيد من ثمنها أضعافاً مضاعفة.

---

(١) الأغاني/ ج ٢٠/ ٩١.

(٢) صـــورة المـــرأة في الشعر الأموي / د . أمل نصير/ المؤسسة العربية للدراسات والنشر./ بيروت- لبنان/ ٢٠٠٠/ ٣٣٩.

روى الجاحظ عن الأصمعي قال: " بعث إليّ هارون الرشيد وهو بالرقة فحملت إليه، فأنزلني على الفضل بن الربيع، ثم أدخلني عليه وقت الغروب، فاستدناني وقال: يا عبد الملك، وجهت إليك بسبب جاريتين أُهديتا إليّ، وقد أخذتا طرفا من الأدب أحببت أن تبرز ما عندهما، وتسير على الصواب فيهما، ثم أمر بإحضارهما فحضرت جاريتان ما رأيت مثلهما قط، فقلت لإحداهما: ما عندك من العلم؟ قالت: ما أمر الله في كتابه، ثم ما ينظر فيه الناس من الأشعار والأخبار. فسألتها عن حروف القرآن، فأجابتني فكأنّها تقرأ في كتاب الله، ثم سألتها عن الأشعار والأخبار والنحو والعروض، فما قصّرت عن جوابي في كل فن أخذت فيه. فقلت لها: فأنشدينا شيئا؟ فأنشدت:

يا غياث البلاد في كل محل ... ما يريد العباد إلا رضاك
لا ومن شرّف الإمام وأعلى ... ما أطاع الإله عبد عصاك

فقلت يا أمير المؤمنين، " ما رأيت امرأة في نسك رجل مثلها".[1]

هذه واحدة من جواري ذلك العصر الكثيرات ممن تمتعن بثقافة دينية وأدبية واسعة، وقد كان بعضهنّ يقصد للمساجلات الشعرية، فقد روى صاحب الأغاني أنّ دنانير جارية محمد بن كناسة كانت شاعرة مغنية تقصد للمذاكرة والمساجلة الشعرية.[2]

للأسباب السابقة من جمال وثقافة وحذق للغناء وغيرها، كان للجواري مكانة في قلوب الرجال، غلبت في كثير من الأحيان على مكانة الحرائر، وقد أكّدَ بعضهم ذلك بقوله "من أراد قلة المؤونة، وخفّة النفقة، وحسن الخدمة، وارتفاع الحشمة فعليه بالإماء دون الحرائر، وكان مسلمة بن مسلمة يقول عجبت لمن استمتع بالسراري كيف يتزوج الحرائر".[3]

---

(١) المحاسن والأضداد/ أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ/ شرح يوسف فرحات/ دار الجيل/ بيروت/ ط ١/ ١٩٩٧/ ٣١٥-٣١٦.

(٢) الأغاني/ ج١٣/ ٣٣٧

(٣) المحاسن والأضداد/ ٣١٩.

وقد يقول قائل هذا كلام نظري فيه تزيّد، ولكن هذا ما كان بالفعل، فقد روى الأصفهاني في أخبار "دقاق" قال: كانت دُقاق أمُ ولد يحيى بن الربيع أحمد مغنية محسنة متقنة الأداء والصنعة .... وعتقت دُقاق فتزوجها بعد مولاها ثلاثة من القواد من وجوههم فماتوا جميعا[1].

من كل ما سبق نفيد بِأَنَّ الجواري كُنّ مقدمات، ومرغوبا فيهنّ، وكنّ يتنقلن من زوج إلى آخر، وقد يكون هؤلاء الأزواج من علية القوم. وقد كُن كذلك حظايا الخلفاء وأمهات أولادهم، ويكفي للتدليل على ذلك أنَّ جميع الخلفاء العباسيين كانوا من أُمهات أولاد خلا ثلاثة منهم هم أبو العباس السفاح، والمهدي، والأمين، ولم تكن الطبقة العُليا فقط هي الطبقة الوحيدة التي تهتم بالجواري، بل كذلك العامة، ومنهم الشعراء الذين أكثروا من ذكرهنّ في أشعارهم، وقد ساهمن في موجة المجون التي شاعت في هذا العصر عند طائفة منهم، إضافة إلى اقتران مشاهيرهم بأسماء جوار منهم أبو نواس الذي اقترن اسمه بجنان جارية عبد الوهاب الثقفي، والعباس بن الأحنف بفوز، وبشار بن برد بعبدة. ولا شك أنّ لأخلاق الجواري يداً طولى في تشجيع الشعراء على ملاحقتهن والتغزل بهن، وفي إشاعة الغزل المكشوف الذي شاع على ألسنتهم إذ كان بعض الجواري يتصفن بالمجون وسوء الخلق، وقد اشتهرت غير واحدة بهذا، كعريب، وجنان وغيرهما[2].

ذكر الجاحظ في كتابه المحاسن والأضداد: " أنّه اجتمع أبو نواس والفضل الرقاشي، والحسين الخليع، وعمرو الوراق، ومحكم بن رزين، والحسين بن الخياط، في منزل عنان، فتناشدوا إلى وقت العصر، فلما أرادوا الانصراف قالوا أين نحن الليلة؟ فكل قال عندي، فقالت عنان: بالله قولوا شعراً، وارضوا بحكمي. فقال جميعهم شعراً يدعو كل واحد منهم الآخرين إلى بيته، ويرحب بهم وجاء دور عنان، فقالت:

---

(١) الأغاني/ ج١٢/ ٢٨٢.

(٢) انظر أخبار عريب في الأغاني ج ٢١/ ٥٤ وما بعدها، وأخبار عنان/ ج٢٣/ ٨٥ وما بعدها.

مهـــــلا فديـــــتك مهـــــلا عـــــنان أحـــــرى وأولـــــى
بـــــأن تـــــنالوا لديهـــــا أســـــنى النعـــــيم وأحلـــــى
فـــــإنّ عـــــندي حـــــراما مـــــن الشـــــراب وحـــــلا
لا تطمعـــــوا فـــــي ســـــواي مـــــن الـــــبرية كـــــلا
يـــــا ســـــادتي خبرونـــــي أجـــــاز حكمـــــي أم لا

فقالوا جميعاً:"قد أجزنا حكمك وأقاموا عندها".(١)

إنّ مـــثل هـــذه الصور تؤكد ما كان عليه بعض الجواري من مجون وإســـراف فـــي اللهـــو، فســـاهمن في انحراف بعض الشعراء وإغراقهم في المجون، فكان لهذا كله أثر على المجتمع آنذاك، ولكن عليَّ أن لا أذهب بعيداً وأقـــول بأنّ الجواري جميعاً كُنَّ مثل عنان؛ لأنَّ بعضهنّ كان غاية من الخلق والإخلاص لأسيادهن.

ومـــن الصـــفات الأخـــرى التي وصفت بها بعض الجواري تلاعبهنّ بعقول الرجال وإظهار الحب والإخلاص لهم لأجل التسلية في بعض الأحيان، ولأجـــل المكاســـب المادية في كثير من الأحيان، فقد يكون للجارية أكثر من صـــاحب تُوهم كلاً منهم بأنّها مُحبّة لـــه، وأنّه الوحيد الذي تعرف، كما أنّها توهمه بأنّها محافظة ولا تخرج للرجال إلا نادراً، وغير ذلك من الأمور التي تجعلهـــا تؤثّـــر في عقله وتخلب لبّه، فيهتز طرباً لما يسمع ويشفق عليها مما تعانـــي، ويُؤثرها بكل ما لديه من حب وعطاء حتى إذا ما استنفدت ما عنده، تركته غير آبهة به لتبحث عن صيد سمين آخر وهكذا.

وقـــد أورد الجاحظ وصفاً للقينة، فقال: " إنَّ القينة لا تكاد تخالص في عشـــقها، ولا تناصـــح فـــي ودّها؛ لأنّها مكتسبة ومجبولة على نصب الحبالة والشـــرك للمتربطيـــن ليقـــتحموا في أُنشوطتها، فإذا شاهدها المشاهد رامته بـــاللحظ، وداعبـــته بالتبسّـــم، وغازلته في أشعار الغناء، ولهجت باقتراحاته، ونشـــطت للشـــرب عـــند شربه، وأظهرت الشوق إلى طول مكثه، والصبابة

---

(١) المحاسن والأضداد/ ١٦٧-١٦٨.

لســرعة عودتــه، والحزن لفراقه فإذا أحسّت بأنّ سحرها قد نفذ فيه، وأنّه قد تعقّل في الشرك، تزيّدت فيما كانت قد شرعت فيه، وأوهمته أنّ الذي بها أكثر مما به منها...".[1]

وهــناك وصــف لطبيعة الجواري جاء على لسان واحدة منهن، هي فضــل الشــاعرة إذ قالت وقد بلغها أنّ سعيد بن حميد- صاحبها- قد عشق جارية من جواري القيان في رسالة أرسلتها له:

يــا عالــيَ الســنِّ سَــيِّء الأدب ... شِــبتَ وأنــتَ الغــلام فــي الطربِ
ويحــك إنّ القــيانَ كالشــرك ال ... منصــوب بيــن الغــرور والعطبِ
لا تصــــــدَّين للفقــــــير ولا ... يطلُبــــن إلا معــــادنَ الذهــــبِ
بيــنما تشــكّى هــواك إذ عدلــت ... عــن زفــرات الشــكوى إلى الطلبِ
تَلحــــــظ هــــــذا وذاك وذا ... لحــظ محــبٍّ وفعــلَ مُكتســبِ[2]

وقد عُلل مثل هذا التصرف وغيره من أخلاق الجواري بأنّه إنّما كان نتيجة للظروف التي عاشتها الجارية، فهي تُربى منذ نعومة أظفارها بعيدة عن تعالــيم الديــن وحسن الخلق، إذ إنّها تعيش في الغالب حياة منكرة تتنقل في أســواق الرقــيق من سيد إلى آخر فلا تعرف في حياتها سوى تقديم الخدمة والمــتعة لطالــبها دون حساب لكرامة أو إنسانية. قال الجاحظ: "وكيف تسلم القيــنة مــن الفتــنة أو يمكنها أن تكون عفيفة، وإنّما تكتسب الأهواء، وتتعلم الألســن، والأخــلاق بالمنشأ، وهي تنشأ من لدن مولدها إلى أوان وفاتها بما يصــدُّ عن ذكر الله من لهو الحديث، وصنوف اللعب والأخانيث وبين الخلعاء والمجّــان ومــن لا يســمع منه كلمة جد ولا يرجع منه إلى ثقة ولا دين ولا صيانة مروءة[3].

---

(١) رسائل الجاحظ / ج٢ / ١٧١- ١٧٢.

(٢) الأغاني/ ج ١٨/ ١٦٦.

(٣) رسائل الجاحظ/ ج٢/ ١٧٦.

كان للجواري أثر بالغ على الحياة الزوجية، فقد أصبحنَ شغل الرجل الشاغل الذي يلهيه عن زوجته وعن بيته، كما أنَّهنَّ بما كُنَّ عليه من سوء خُلق أو مجون أثرن على ثقة الرجال بالنساء، وجعل بعضهم يظنّ بأنّ خُلق النساء واحد مهما اختلفت مظاهره لا يدمنَ على عهد ولا يحفظنَ وداً، كما أنّ توافرهنَّ وسهولة الحصول عليهنَّ جعل الرجل يستهين بالعلاقة الزوجية، مثال ذلك ما كان بين الخليفة هارون الرشيد وزوجته زبيدة، فقد أورد صاحب الأغاني أنَّ دنانير مولاة يحيى بن خالد البرمكي كانت صفراء مولّدة وكانت من أحسن الناس وجها، وأظرفهن وأحسنهنّ أدباً، وأكثرهنّ هوايةً للغناء والشعر، فكان الرشيد لشغفه بها يكثر مسيره إلى مولاها، ويقيم عندها، ويبرّها ويفرط حتى شكته زبيدة إلى أهله وعمومته، فعاتبوه على ذلك[1].

وكما كانت الجواري سبباً للشكوى والعتاب بين الأزواج، كُنَّ سبباً مباشراً للطلاق، فقد ذكر الطبري أنّ يحيى بن الأشعث بن يحيى الطائي تزوج ابنة لعمه أبي النعمان، وكانت ذات يسار، فأقام بمدينة السلام وتركها بسمرقند، فلما طال مقامه بها وبلغها أنه قد اتخذ أمهات أولاد التمست سبباً للتخلص منه...[2] هذا يدل على أنَّ الرجل كان يهمل زوجته، وينصرف عنها إلى الإماء حتى لو كانت تتمتع بصفات جيدة، فالجواري زاحمن المرأة الحرة، وقد استوت في ذلك المرأة ذات الصفات الحسنة، والمرأة ذات الصفات غير الحسنة.

وقد تكون الجارية سبباً في هجاء الزوجة، وبيان عيوبها كما هو الحال عند أبي دلامة الذي أراد وليدة تريحه من زوجته العجوز. قال في رسالة أرسلها للخيزران مع حاضنة أولادها أم عبيدة:

---

(١) الأغاني/ ج١٨/ ٦٧.

(٢) تاريخ الأمم والملوك / ج٨/٣١٩.

أبـــلغي ســـيدتي بـــالله يـــا أمّ عـــبيده
أنهـــا أرشـــدها الله وإن كـــانت رشـــيده
وعدتـــني قـــبل أن تخـــرج لـــلحج وليـــده
فـــتأنيت وأرســـلت بعشـــرين قصـــيده
كـــلما أخـــلقنَ أخـــلفت لهـــا أُخـــرى جديـــده
ليـــس فـــي بيـــتي لـــتمهيد فراشـــي مـــن قعيـــده
غيـــرُ عجفـــاءَ عجـــوز ســـاقُها مـــثل القديـــده
وجههـــا أقـــبحُ مـــن حـــوت طـــري فـــي عصـــيده
مـــا حيـــاةٌ مـــع أُنـــثى مـــثل عِرســـي بســـعيده[1]

لعل الذي شجع هذا الشاعر ــ سواء أكان جاداً في حديثه أم هي واحدة مـــن دعاباتـــه الكـــثيرة ــ وغيره من الرجال على طلب الجارية الحسناء هو توافـــر الجواري، وسهولة الحصول عليهن، وإلا لربما كانوا أكثر حفاظاً على زوجاتهم، وأكثر احتراماً للعلاقة التي تربطهم بهنّ.

رابعاً ــ الطلاق

شاع الطلاق شيوعاً كبيراً في هذا العصر حتى إنّ لفظة الطلاق كانت تـــدور على الألسن كأية كلمة أخرى، وقد يُطلقها بعضهم لأسباب غير منطقية أو حـــتى دونمـــا سبب على الإطلاق، ولعل شيوع الطلاق على هذه الصورة دليـــل كـــبير عـــلى استهانة بعض الرجال بالحياة الزوجية، ولم لا والجواري يملأن الأسواق والبيوتات.

من الملاحظ على الطلاق في هذا العصر عبثيته إذ إنّه كان يشيع على بعض الألسن بدون سبب خاص بالزوجة، أو بالعلاقة الزوجية التي تجمعهما، وإنّمـــا يكـــون- مثلاً- لرؤية جارية حسنة الشكل أو سماع لحن عذب، فيقسم الـــرجل بطلاق زوجته إن هو رأى أجمل من تلك الجارية، أو سمع أعذب من ذاك الـــلحن، فقـــد ذكر الجاحظ عن إسحق بن إبراهيم الموصلي قال: كنت أنا

---

(١) الأغاني/ ج١٠/ ٢٦٢-٢٦٣.

والحسين بن الضحاك يوماً عند المعتصم، وحضرت فيه جارية تعرض عليه فأعجب بها، فقال للمدنيين كيف ترونها: فقال أحدهم: امرأته طالق إن كان رأى مثلها. وقال آخر. امرأته طالق إن لم ... وسكت، فقال المعتصم: إن لم. قال: لا شيء، فضحك، وقال له: ويحك ما دعاك إلى طلاق أهلك بلا سبب" فقال: يا أمير المؤمنين، كلنا طلّق زوجته بلا سبب.(١)

وقد تذهب الزوجة بقافية شعر، فقد روي عن علي بن دعبل الخزاعي قال: حدثني أبي، قال: خرجت ومعي أعرابي ونبطي إلى موضع يقال له بطياثا من أمصار دجلة متنزهين فأكلنا، وشربنا. فقال الأعرابي: قل بيت شعر. فقلت:

نلنا لذيذ العيش في بطياثا

فقال الأعرابي:

لما حثثنا أقدحا ثلاثا

فقال النبطي:

وامرأتي طالقٌ ثلاثا

وما زال يبكي حتى الصباح، فقلت: ما يبكيك؟! فقال: ذهبت امرأتي بقافية"(٢)

ومن الطلاق ما كان لسبب غير منطقي لا يستحق أن تهدم لأجله حياة زوجية، ويشرّد من أجله أطفال، فقد روى ابن الجوزي: " أنَّ رجلاً تقدّم إلى قاض هو وزوجته، فقال: خاصمتني، وقالت: أنا أظرف منك. فقلت: إن كنت أظرف مني فأنت طالق ثلاثاً. فقال القاضي: الظرف صفات تذكر، فليذكر كل واحد منكما ما يرى أنّه تفرد به. فقال الرجل: مرها فلتصف من نفسها.

---

(١) المحاسن والأضداد/٢٠٥-٢٠٦

(٢) المصدر السابق / ٢٠٥.

فقالـــت: والله ما أعرف لنفسي حالاً أتفرد بها توجب كوني مقدمة على غيري فـــي حدود الظرف، فقال الزوج: قد سبقتني بجميع حدود الظرف بهذا القول، وأراها قد حرّمت عليّ لكونها أظرف. فقال القاضي: كذا عندي الحكم"[1].

ومـــن أســـباب الطلاق أيضاً البخل، فقد ذكر الجاحظ "أنَّ أحدهم طلق امـــرأته- وهي أُم أولاده- لأنه رآها غسلت خواناً لـــه بماء حار. فقال لها: هـــلا مســـحته"[2]؛ وذلك لأنَّ الماء الحار يُذهب ما عليه من دسم وهذا ما لا يريده هو.

وقـــد تكـــون المرأة هي البادئة بطلب الطلاق لسبب تراه موجباً، فقد روى صـــاحب الأغانـــي عن بعضهم أنّه رأى أمّ ابن جامع- المغني- وابن جـــامع معهـــا عند معن بن زائدة وهو ضعيف يتبعها ويطأ ذيلها، وكانت من قـــريش، ومعن يومئذ على اليمن. فقالت: أصلح الله الأمير إنَّ عمي زوّجني زوجاً ليس بكفء ففرق بيني وبينه. فقال من هو؟ قالت: ابن ذي مناجب. قال: عليَّ به. قال: فدخل أقبح من خلق الله، وأشوهه خلقاً فقال: من هذه منك؟ قال: امرأتي. قال: خلِّ سبيلها.

لـــم تكـــن جمـــيع حالات الطلاق بدون سبب أو لأسباب بسيطة يمكن تلافـــيها إذ إنَّ هناك حالات كثيرة توجبه، كما أنَّ بعض أنواع الطلاق كانت منتشـــرة عـــند طبقات معينة من الناس تسربت إليها أخلاق دخيلة ليست من صلب المجتمع الإسلامي الذي كرّه الناس بالطلاق، وجعله أبغض الحلال عند الله تعالى.

ولم تكن القضايا المالية والجواري وحدها من مسببات الطلاق في هذا العصر، وإنّما كانت الخمر تُنافس الزوجة كذلك، بل ربما تنجح في أن تكون المقدمـــة عند الزوج، والفائزة به دون الزوجة، فقد ذكر أنَّ أبا شراعة كان قد

---

(١) أخبار الظراف والمتماجنين/ ١٣٢-١٣٣.

(٢) الـــبخلاء/ أبـــو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ/ تحقيق طه الحاجري / ط٦/ دار المعارف/ القاهرة / ١٩٨١/٢٣-٢٤.

حلف ألا يشرب النبيذ بطلاق زوجته، فهجره حولين كاملين ثم حنث فشرب وطلق امرأته، فقال في ذلك:

فمن كان لم يسمع عجيبا فإنني ... عجيبُ الحديثِ يا أُميمَ وصادقُه
وقد كان لي أنسان يا أم مالك ... وكلّ إذا فتّشتني أنا عاشقُه
عزيزة والكأسُ التي من يُحلّها ... تُخادعه عن عقله فتصادقُه
تحارَبَتا عندي فعطّلت دنها ... وأكوابَها والدهر جَم بوائقه
وحرمتُها حولين ثم أزلّني ... حديثُ الندامى والنشيدُ أُوافقُه
فلما شربتُ الكأس بانت بأُختها ... فبان الغزال المستحبّ خلائقُه
فما أطيب الكأس التي اعتضت منكمُ ... ولكنها ليست بريم أعانقه[1]

ومن الأسباب الموجبة للطلاق كره الزوج لزوجته وإحساسه بأنّ العلاقة الزوجية هي بمثابة الوثاق الذي يشد عنقه إلى درجة الاختناق. قال أبو النضير:

ظعنت أمامة بالطلاق ... ونجوت من غل الوثاق
بانت فلم يألم لها ... قلبي ولم تدمع مآقي
ودواء مالا تشتهيه ... النفس تعجيل الفراق
لو لم أرح بفراقها ... لأرحتُ نفسي بالإباق

ولم يكن هذا شعور كل المطلقين لزوجاتهم في هذا العصر، فمنهم من ندم لطلاق زوجته، وشعر بالألم والحزن لفراقها، ولكن مضى فيها قول لا يمكن الرجوع عنه كما هو الحال عند مسلم بن الوليد. قال:

---

(١) الأغاني/ ج٢٣/ ٢٨-٢٩.
(٢) العقد / ج٣/٤٧١.

أجارَتَنا ما في فراقك راحةٌ ... ولكن مضى قولٌ فأنت به بَسلُ
فبيني فقد فارقت غَيرَ ذميمة ... قضاءٌ دعانا للقطيعة لا الختلُ
أما واغتيال الدهر خلّة بيننا ... لقد غال إلفا ساكنا بهمُ الشملُ
فما بي إلى مُستطرَف العيش وحشةٌ ... وإن كنتُ لا مالٌ لديّ ولا أهلُ
بنا لابِكِ الأمرُ الذي تكرهينَهُ ... أتى الحلمُ بالعُتبى وقد سبقَ الجهلُ
فلا شوقَ إنَّ اليأسَ أعقَبَ سلوَةً ... سواء نَوى من لا يراجعُ والثُكلُ[1]

فالشاعر لم يكن مرتاحاً لطلاق زوجته، ولكن لسبب ما لم يذكره أصبحت مفارقة له.[2] إذ مضى فيها قول لا يمكن الرجوع فيه- كما يقول- لكنه يبدو نادماً وكارهاً لما حصل، ومقدّراً لعظم الخسارة التي لحقته بطلاقها، وهو يعلل ما حصل لهما بأنَّه قدر لا مناص منه إذ لم يكن طلاقها عن خيانة أو غدر مما جعله يذمّ الدهر الذي فرق شمله بأهله وقد بلغ به الندم حداً عزف بعده عن الزواج من أُخرى، وهذا يؤكد أنَّ المرأة كانت تتعرض للطلاق ظلما ودونما سبب خاص بها، أو لذنب اقترفته.

ويتذكّر الشاعر لياليه الخوالي مع زوجته حيث كانا يعيشان عيشاً هانئاً. فيقول:

عليك سلامٌ لا تحيَّةَ ذي قلىً ... حلا بعدكِ العيش الذي كان لا يَحلُو
ألارُبَّ يوم صادق العيشِ نلتُهُ ... بها ونداماي العفافةُ والبذلُ
عشيَّة آواها الحجابُ كأنها ... خذول من الغِزلان خاليةٌ عُطلُ[3]

---

(١) شرح ديوان صريع الغواني/ ٨٩ وما بعدها.

(٢) ذُكر أنَّ طلاقه لها كان بسبب اختلافه معها في بعض شؤون حياتهما فغلب جهله على عقله، فطلقها بعد أن أنجبت له ولدا كان ما يزال صغيرا/ انظر صريع الغواني حياته وشعره / د. عبد القادر الرباعي، / دار العلوم للطباعة والنشر/ الرياض/ ١٩٨٣/ ٢٤.

(٣) شرح ديوان صريع الغواني/ ٩٠-٩١.

ويزيد من حزنه وأساه لطلاقها ابنه الذي له منها:

لعمــرُ ابنها لولا احتراقُ الحشا لــه لمــاتَ الجوى أو لاستفيدَ بها مِثلُ[1]

ويحاول بعد ذلك جاهداً أن يسلوها حتى لا يلحقه لوم. قال:

سَــلوتُ وإن قــال العواذلُ لا يسلو وأقســمتُ لا يَــرْقى إلــى سَمْعيَ العذلُ
وبانــتْ حــتى صِرْتُ للبَيْنِ راكبا قَــرَى العزْمِ فَرْدا أمثَلَ ما انفَرَدَ النصلُ[2]

وقــد تكــون الزوجة هي سبب ذلك الفراق، فقد قال محمد بن الحسن الرؤاسي(٣) في زوجته بعدما ملّها لكثرة ذهابها عند أهلها ومفارقته إياه أياماً:

بانــت لمــن تهــوى حمــول فأســفت فــي أثــر الحمــول
أتبعــتهم عيــنا علــيــ هــم مــا تفــيق مــن الهمــول
ثــم ارعويــت كمــا ارعــوى عــنها المســائل للطلــول
لاحــت فحــال خلقهــا وخلافهــا دون القــبول
ملــت وأبــدت جفــوة لا تركنــن إلــى ملــول[4]

فهــو يــبدو نادماً لتركها وطلاقها؛ لذا فقد أتبع ركبها عينيه الدامعتين أسفاً وندماً على فراقها لــه، ولكنه يحاول أن يتجاوز الموقف ويتجلد ويصبر ليســلوها وهــو يشير إلى أسباب طلاقه إياها فنجدها في مللها وجفوتها لــه، ويؤكد الشاعر أنَّ من كانت هذه أخلاقها لا يُرْكَن إليها ولا فائدة تُرجى منها، ولمــا كانت زوجته على هذه الصفات رأى أنَّ طلاقها أفضل على الرغم من أنّه يدخر لها حباً ، ويكره فراقها.

---

(١) شرح ديوان صريع الغواني / ٩١.

(٢) المصدر السابق/ ٩١-٩٢.

(٣) ســمي الرؤاسي لكبر رأسه، وهو أول من وضع من الكوفيين كتابا في النحو مات/ في أيام الرشيد/ معجم الأدباء/ دار إحياء التراث العربي/ بيروت – لبنان ط٣/١٩٨٠/ ج١٨/١٢٣-١٢٤.

(٤) معجم الأدباء/ ج ١٨/ ١٢٤.

ويبدو من خلال الرواية والأبيات أنَّ زوجته كانت كارهة له، ضائقة بالعيش معه مما دفعها إلى الإكثار من زيارة أهلها وتركها إياه غير آبهة به، ولا بمشاعره نحوها.

خامساً- هجاء الزوجات

أما هجاء الزوجات، فيعدّ واحداً من سلسلة حلقات التفكك بين الزوجين إذ شاع في هذا العصر شيوعاً كبيراً وبلغ درجة من السوء حتى أنَّ الرجل لم يكتف بصفات الهجاء المعقولة والمتعارف عليها بين الناس، وإنمّا امتدَ إلى نوع من الفحش والبذاءة، وأصبحت الزوجة تشكّل ثقلاً أو همّاً على قلب زوجها يريد التخلص منه بأي طريقة كما أنّها أصبحت في بعض الأحيان تشكّل كابوساً له، فهو يتذكّرها عند رؤيته للمناظر التي تثير في نفس الإنسان الحزن والضيق والرعب، من ذلك قول أبي كناسة وقد رأى مصلوباً:

أيا جذعَ مصلوب دون صلْبه ثلاثون حولا كاملا هل تُبادلُ
فما أنت بالحمل الذي قد حملتَه بأضجر مني بالذي أنا حامل[1]

إنّ هذا الشعر بما فيه من تشبيه يصور كمية الكراهية والضيق الذي يحمله هذا الزوج لزوجته مدة ثلاثين سنة.

هناك من يرى أنّ العلاقة الزوجية إذا استمرت سنوات طويلة تصبح أكثر قوةً وتماسكاً، وتكون هذه السنوات دافعاً للحفاظ على ديمومة العلاقة، ولكنَّ بعض رجال هذا العصر كانوا يرون العكس، فقد تستحق المرأة عندهم البغض والهجاء لطول لبثها عند زوجها. ذكرأبو الفرج الأصفهاني عن بعضهم أنَّ أبا الزوائد كانت عنده امرأة أنصارية، فطال لبثها عنده حتى ملّها وأبغضها، فقال يهجوها:

---

[1] الأغاني/ ج١٣ / ٣٣٩.

يـا رمـلُ أنـت الغـولُ بين رمالِ ... لـم تَظْفـري بـتُقىً ولا بجمـال
يـا رمـل لـو حَدثـتُ أنـك سلفَعٌ ... شـوهاءُ كالسـعلاةِ بيـن سَـعَالي
مـا جـاء يطلـبُك الرسول بخطبة ... منـي ولا ضُـمَّت علـيك حبالـي
ولقـد نهـى عـنك النصـيحُ وقال ... لـي لا تقرنـنَّ بذيـة بعـيال[1]

فهـو لا يرى فيها صفة خُلقية أو خَلقية تستحق منه المدح عليها، بل لـيس فـيها أمر سوى الدمامة والخلق السيء، وليس الشاعر وحده هو الذي يحـس بسوئها وإنما هناك آخرون نصحوه بعدم قرنها بعياله كما يقول، وهذا دليل على وجود من يزيدون في المشكلات الزوجية، ثم ينتهي الشاعر بقذفها بأفحش الكلام وأكثره بذاءة.[2]

لقـد أكـثر بعض الشعراء من هجاء زوجاتهم مادياً، وقاموا بتصوير مشاعرهم من خلال الأوصاف السيئة التي أطلقوها عليهن، ومن هؤلاء دعبل الخزاعي الذي قال في زوجته:

يـا ركبتـي خُـزز وسـاقَ نعامة ... وزبـيلَ كـناس ورأسَ بعـير
يـا مـن أُشـبُهها بحمَّـى نـافض ... قطّاعـة للظهـر ذاتِ زفـيرِ
صُـدغاكَ قـد شمطا ونحرُك يابسٌ ... والصـدرُ مـنك كجؤجـو الطُنبور
يـا مـن مُعانقُهـا يبيـتُ كأنَّـهُ ... فـي محـبس قمـلٍ وفـي ساجور
قبلـتها فوجـدت لدغـة ريقهـا ... فـوقَ اللسـان كلسـعةِ الزُنـبُور[3]

وقـد لا تنفع كل وسائل الزينة في وقف مشاعر الكره عند الزوج، فقد قال أعرابي في عروس له في البصرة:

---

(١) الأغاني/ ج١٤/ ١٢٤.

(٢) انظر بقية الأبيات/ الأغاني/ ج١٤/ ١٢٤.

(٣) ديـوان دعـبل الخزاعي/ ٨٩. الخزز: ولد الأرنب. الزبيل: وعاء يوضع فيه الزبل. حمى نافض: حمى الرعدة. الطنبور: آلة موسيقية ذات أوتار. غل الساجور: خشبة توضع في عنق الكلب.

أقــول وقــد شــدوا علــيها حجابها ... ألا حــبذا الأرواحُ والــبلدُ القفــرُ
ألا حــبذا ســيفي ورحلــي ونمرقي ... ولا حــبذا مــنها الوشاحان والشذر
أتونــي بهــا قــبل المحــاق بلــيلة ... فكــان محاقــا كلــه ذلــك الشــهر
ومــا غرّنــي إلا خضــابٌ بكفهــا ... وكحــلٌ بعينــيها وأثوابُهــا الصــفرُ
تســائلني عــن نفســها هــل أحبها ... فقلــت ألا لا والــذي أمــره الأمــر
تفــوح ريــاح المسك والعطر عندها ... وأشــهد عــند الله مــا ينفع العطر[1]

فقــد بلــغ كره هذا الأعرابي لزوجته مبلغاً كبيراً، ولم تقنعه ما كانت تســتخدم من وسائل زينة كالخضاب والكحل وغيره، ولم تفد أثوابها المزينة والملونــة في تحريك مشاعره الإيجابية نحوها فهو لا يشعر معها بغير الكره والضــيق، وهذا الإحساس هو الذي جعله لا يرى حسناً ولا جميلاً فيها أو في زينتها، وتذكّر بدلاً من ذلك البلاد المقفرة وأدوات سفره إيذاناً برغبته بالرحيل عنها وتركها. وقد يكون السبب في مثل هذا الأمر بعض عادات الزواج التي تحــرم علــى الرجل رؤية زوجته إلا ليلة زفافها والتي كانت شائعة في هذا العصر.

سادساً ـ التشاتم بالزوجات

لــم يقتصر بعض الشعراء على هجاء زوجاتهم، وشتمهنّ، ووصفهنّ بصفات سيئة، وإنّما زادوا على ذلك بأن قذفوا زوجات غيرهم وجعلوهنّ هدفاً للاتهام والهجاء حينما يغضب من زوجها أو عندما يتهاجيان.

وقد ركّز الشعراء في شتمهم لزوجات غيرهم على أعراضهن، فقذفوا بعضــهنّ بكثــير من صفات السوء، وأقذع بعضهم بوصفهنّ وصفاً بذيئاً مما تعفُّ النفس عن ذكره. ومن أخفّه ما قاله أبو تمام في هجائه لمقران المباركي:

---

(١) عيون الأخبار/ ج٤/ ٣٣-٣٤.

امـــرأةُ مُقـــرانَ ماتَـــتْ بعد ما شابا ... فحسَّـــتِ السـلَعَ والفتـــيانُ والصابا
لـــم يـــبقَ خَلْـــقٌ ببابِ الشام نعرفُهُ ... بالفَـــتْكِ مُـذْ هلكـــتْ إلا وقَـــدْ تابا
يـــا نكـــبة هشـــمتْ أنفَ السرور به ... وميـــتةَ أبقـــت العُـــزّاب عُـــزّابا [1]

وقال في هجائه أيضاً مؤكداً أنها لم تكن زوجة لمقران هذا وحده:

مقـــرانُ يـــا متشَـــعب الـــراسِ ... لا تخـــلُ مـــن هـــمٍّ ووُســـواسِ
لا تَقْـسُ قَلْـباً وابـكِ مـن لم يكن ... علـــى الكئيـــب الصـــبِّ بالقاســـي
ريْحانـــةُ الفتـــيانِ قـــد أصـــبحت ... رهْـــنَ جبابيـــنَ وأرمـــاس
وقُـــل لهـــا يـــا امرأتـــي هدَّنـــي ... فقـــدك بـــل يـــا امـــرأة الـــناسِ [2]

ومـــن الذين استخدموا أعراض الزوجات هدفا لأهاجيه ابن الرومي. قال في هجاء أبي حفص الوراق:

قـــالوا: هجاك أبو حفص فقلتُ لهم: ... لا شـــبَّ قرنُ أبي حفص ولا زرعا
لئـــن هجانـــي وفـــرطُ الجهلِ أوقعه ... لقـــد تـــزوَّج أيضـــا بعدمـــا صَلَعا
قـــد قلـــتُ إذ قـــيل قـــد زُفّتْ حليلتُه ... صـــبرا كأنـــي بقرن الشيخ قد طلعا
طلقـــتُها مـــنه إن عَفّـــتْ لـــــه أبدا ... مـــا أبصرتْ منه ذاك المنظر الشَنعا
أقـــبح بوجـــه أبـــي حفـــص وعفّتِها ... هـــذان أمـــران لا والله ما اجتمعا [3]

وهكـــذا كانـــت المرأة ضحية لهجاء الشعراء وتشاتمهم فيما بينهم دونما ذنب لها، بل ربما لم تكن على علم بما يحدث بينهم وبما يقال عنها.

---

(١) ديـــوان أبـــي تمام/ شرح الخطيب التبريزي/ تحقيق محمد عبده عزام/ دار المعارف/ القاهرة/ ط٢/ ١٩٧٦ / ج٤/ ٣١٩. السلع: شجر مر.

(٢) المصدر السابق /ج٤/٣٨٠.

(٣) ديوان ابن الرومي ٤/ ١٤٧٢.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الثاني

الأُمـــــومة

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الأمـــومة

أولاً- شعر الأمهات في الأبناء

من صفات الأم الأساسية حب أولادها والحرص عليهم، وإيثارهم على نفســها ســواء أكــان ذلــك في القضايا المادية، أو في غيرها إحساساً منها بضــرورة التضحية من أجلهم، وهذا ليس بكثير عليهم كما ترى، فهم فلذات كبدها، وقطعة منها. فقد ورد عن الواقدي صاحب السير والمغازي أنّه قال: " حضــر العيد، فقالت امرأتي: "أمّا نحن في أنفسنا فنصبر على البؤس والشدة؛ وأمّا صبياننا هؤلاء، فقد قطّعوا قلبي رحمة لهم؛ لأنّهم يرون صبيان الجيران قد تزيّنوا في عيدهم، وأصلحوا ثيابهم، وهم على هذه الحال من الثياب الرثّة، فلو احتلت بشيء تصرفه في كسوتهم"..[1]

ومــن علامــات المــودة والحب بين الأم وأبنائها تذكّرها لهم حينما يبــتعدون عــنها، واســتغلال الفــرص لإرسال الهدايا لهم. فقد ذكر صاحب الأغاني عن الشاعر محمد بن كناسة أنّ إبراهيم بن أدهَم- خاله أو ابن خاله- قدم إلى الكوفة، فوجّهت أمّه إليه بهدية معه، فقبلها..... [2]

ومــن مظاهــر حرص الأم على أبنائها توجيهها لهم في كافّة نواحي حــياتهم وفــي كــل أطوارهــا. وهذا التوجيه إنّما يكون للالتصاق الطبيعي والاجتماعــي بيــنها وبينهم، وقد يحدث أن يكون هذا التوجيه سلبياً، فبقدر ما يكون للأم من رجاحة عقل، وإخلاص لأمومتها تستطيع توجيه أولادها توجيهاً صــالحاً، وعلى العكس من هذا فالأمّ الجاهلة الحمقاء هي التي توجه أبناءها الوجهــة التــي قــد يكــون فيها ضياعهم، وقد تكون الأم واعية، إلا أنّ عدم مقدرتهــا لــتكون أمّاً حقة يجعلها تُسيِّر أولادها وفقاً لرغباتها الشخصية مما يؤدي بهم إلى الشقاء، إذ ليست كلُ والدةٍ أُمّاً، فالأم هي التي تستطيع أن تقوم

---

(١) مروج الذهب / ج٤/٣٣٠.

(٢) الأغاني/ ج ١٣/ ٣٤١.

بـــدور الأمومة الحقة في جميع أطوار حياة أبنائها، وإلى آخر لحظات عمرها مهما كلفها ذلك من تضحية وعطاء.

ولا تستطيع الأم أن تقوم بدورها الإيجابي بشكل فعّال ما لم تعش في جـــوٍّ أســـري آمن ومطمئن، إذ إنّ حياة الشقاء، وعدم الاستقرار في العلاقات الزوجية، والتأثيرات الاجتماعيّة والبيئية- السلبية منها- كلُّها أسباب تؤدي إلى إضـــعاف الـــدور المتوقع منها، وكذلك تساهم في انحرافها في توجيه الأبناء وتربيتهم.

ومن توجيه الأم لأولادها ما يكون حول أسلوب حياتهم ونهج عملهم، فقـــد لا توافق الأم على أسلوب ابنها في حياته أو عمله، فتوجهه توجيهاً غير مباشر إلى تغييرهما، من ذلك ما قامت به أمُّ الجاحظ عندما طلب منها طعاماً فجاءته بطبق عليه كراريس قاصدةً الانحراف به عن العلم إلى العمل من أجل توفـــير الطعـــام لـــه ولها، فذهب الجاحظ إلى الجامع مغتمّاً، ولقيه مويس بن عمران فسأله ما شأنك؟ فحدثّه بما فعلت أمه، فأخذه إلى منزله وأعطاه خمسين ديـــناراً فأخذها، ودخل السوق، واشترى الدقيق وغيره، وحمله الحمّالون إلى داره، فأنكـــرت الأم ذلـــك وقالت: من أين لك هذا؟ فقال من الكراريس التي قدمتها إليّ."[1]

ومـــن التوجيه الهدام الذي قد يؤدي إلى ضياع الابن ما وجهته جلبان والـــدة أبي نواس لابنها إذ أسلمته برّاء يبري عود البخور [2] فساهم عمله في انحرافه ومجونه، هذا بالإضافة إلى أنّ سيرة جلبان نفسها كان لها تأثير سلبي في توجيه ابنها أيضا، فقد ذكر ابن منظور أنّ أمَّ أبي نواس عجمية، وكان لها بيت ترتاده الغواني".[3]

---

(١) طـــبقات المعتزلة/ أحمد بن يحيى بن المرتضى/ تحقيق سوسنة ديفلد- فلْزَر/ منشورات دار مكتبة الحياة/ بيروت- لبنان/ ١٩٦٠/ ٦٨.

(٢) أبو نواس في تاريخه وشعره ومباذله وعبثه ومجونه/ ابن منظور المصري / تقديم عمر أبو النصر/ مطبعة النجوى - بيروت/ط/١٩٦٩م /٣٥

(٣) المصدر السابق/٢١.

ومـــن مظاهـــر حرص الأم على ابنتها تزيينها وإلباسها أحسن اللباس وأغـــلاه عند الزواج، وقد كانت مثل هذه العادات شائعة آنذاك حتى ترتفع في عيـــن زوجها وأهله - كما يقول الجاحظ - فقد ذكر في كتابه البخلاء قصة امـــرأة تدعـــى مريم الصنّاع تحايلت في توفير المال، فقال على لسان شيخ:" زوجـــت ابنتها- مريم الصناع- وهي بنت اثنتي عشرة سنة، فحلّتها بالذهب والفضـــة، وكســـتها المرويَّ والوشيَّ والقزَّ والخزَّ، وعلقت المعصفر ودقت الطيـــب، وعظمـــت في عين الختن ورفعت من قدرها عند الأحماء. فقال لها زوجهـــا أنّى لك هذا يا مريم؟! قالت اعلم أني منذُ يوم ولدتها إلى أن زوجتها كنـــت أرفع من دقيق كل عجنة حفنة وكنا- كما قد علمت- نخبز في كل يوم مرة، فإذا اجتمع من ذلك مكوك بعته[1].

ومن الأمهات اللّواتي عُرفن بحدبهنّ وحرصهنّ على أولادهنّ، السيدة زبيدة فقد كانت حريصة أشدَّ الحرص على ولدها الأمين، وحرصها ذاك كان من أهم دوافع الخليفة هارون الرشيد لتوليته العهد رغم أنَّ أخاه المأمون كان أكبر منه سناً وذلك؛ حبّاً ورغبةً منها في تحقيق المجد لـــه؛ لذا كانت تراقب الوضـــع في كل ما يدور حولها، وتطالب الرشيد بكل ما يمكن أن يفيد ابنها. ذكر المسعودي أنَّها دخلت على هارون مرة، فقالت: "ما أنصفتَ ابنك محمّداً حيـــث ولّيته العراق، وأعريتَه من العُدَد والقوّاد، وصيّرتَ ذلك إلى عبد الله- المأمون- دونه"[2].

فســـلوك السيدة زبيدة سلوك طبيعي، إذ الأصل في علاقة الأمومة أنَّها من طرف الأم حب وإيثار، ومن طرف الابن بر ومودة.

هذا ما يتوقع من الأم التي يكون ابنها خليفة، أو مهيأ لأن يصبح خليفة أن تساعده في القيام بواجبه وتنصحه إن رأت أنَّ هناك موضعاً للنصح تدعيماً لمركـــزه، لكن أن تكون منافسة لـــه على منصبه، تريد أن تستأثر بذلك دونه فهـــذا أمـــر غريب، من هنا نستغرب موقف الخيزران التي عرف عنها حبّ

---

(١) البخلاء/ ٣٠.

(٢) مروج الذهب/ ج٤/ ٢١٤.

السلطة، وتقديمها إيّاها على واجبات الأمومة حتى أُشيع محاولة وضع سمٍّ لها من قبل ابنها الهادي، وعلى الرغم من اختلاف الروايات في ذلك إلا أنَّ محاولة إلصاق التهمة بها دليل على ما كان يكتنف العلاقة بينهما من فتور وضعف. لقد تعرض المسعودي لذلك في كتابه مروج الذهب، فقال: "كان الهادي كثير الطاعة لأمّه الخيزُران مجيباً لها فيما تسأل من الحوائج للناس، وكانت المواكب لا تخلو من بابها.. فكلمته ذات يوم في أمر فلم يجد إلى إجابتها فيه سبيلاً؛ فاعتلّ عليها بعلّة، فقالت: "لا بدَّ من إجابتي. قال: لا أفعل. قالت: "فإنّي قد ضمنتُ هذه الحاجةَ لعبد الله بن مالك، فغضب الهادي وقال: قد علمت أنّه صاحبها، والله لا قضيتُها لك!". قالت: "إذاً والله لا أسألك حاجة أبداً "! قال: إذاً والله لا أبالي"، وحميَ وقامت وهي مغضبة، فقال: مكانَك! فاستوعبي كلامي والله وإلاّ فأنا نفيٌ من قرابتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم لئن بلغني أنّه وقفَ ببابك أحد من قوّادي أو من خاصّتي، أو من خدَمي لأضربَنَّ عنقه ولأقبضَنَّ مالَه! فمن شاء فليلزم ذلك! ما هذه المواكب التي تغدو إلى بابك كلَّ يوم؟ أما لك مغزَل يشغلك، أو مصحف يُذكرك، أو بيت يصونك؟ إيّاك ثُمَّ إيّاك أن تفتحي فاكِ في حاجة لملّي ولا ذمي"! فانصرفت وما تعقل ما تطأ، فلم تنطق عنده بحلو ولا مرّ بعدها[1].

يفهم من هذه الرواية أنَّ الخيزُران كانت ترغب بالسلطة والسيادة رغبةً كبيرة، وكان غدو المواكبِ إلى بابها، وتوسطها في تحقيق مطالب الناس سواء أكانت معقولة، أم غير معقولة مما يرضي رغبتها تلك، ولم تكن تكتفي بدور الوسيط أو الموجّه لابنها بتنفيذ ما ترغب، إلا أنّها كانت تضمن الحاجة لصاحبها مسبقاً، وهذا إن دلّ على أمر فإنما يدل على مقدار سطوتها وثقتها بتحقيق ما تريد، وتصرُّف الخيزران هذا كان امتداداً لما تعودت عليه أيام المهدي الذي كان يكنّ لها حبّاً، ويسمع لرأيها ومشورتها كثيراً، فلما مات

---

(١) مروج الذهب ج/٤ /١٨٦-١٨٧، وانظر كذلك تاريخ ابن خلدون المُسمّى بكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر/ ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد الحضرمي، / مؤسسة الأعلمي للمطبوعات/ بيروت/ ١٩٧١/ مج٣ / ٢١٧.

أرادت أن تتابع ذلك من خلال أبنائها. وهنا لا بد من الإشارة إلى أمر يختص بالخليفة الهادي إذ لم يكن السبب الوحيد في محاولة منع أمّه من استقبال المواكب هو إبعادها عن أمور السياسة فقط، بل كان أيضاً ما قد عُرِف عنه من غيرة شديدة جعلته يرفض فكرة دخول الرجال على أمّه، والحديث بحديثها؛ من هنا أشارت بعض الكتب إلى محاولة الهادي وضع سمّ لها، إذ أحسّ بأنها عبء عليه بالإضافة إلى ما كانت تسبب له من حرج في مجلس الخلافة لكثرة ذكرها والحديث بحديثها في حين كان هو يرى أن مكانها غير ذلك. ولعل قوله عندما سألها عند الأرزة المسمومة التي أرسل بها إليها يؤكد ما ذهب إليه بعض الرواة، فقد ورد أنّه قال لها: "كيف رأيتِ الأرزة؟ فقالت: وجدتها طيبة، فقال: لم تأكلي؛ ولو أكلت لكنتُ استرحتُ منك، متى أفلح خليفة له أُمٌّ"![1]. ولعل من الإنصاف للأمومة أن أُتمّ كلام الخليفة الهادي بكلمتين: متى أفلح خليفة له أم مثل الخيزران تنافسُ ابنها في منصبه وتريد الاستئثار به دونه.

إنّ زبيدة والخيزران نموذجان متناقضان للأُمومة في الواقع العباسي: أحدهما سامٍ يُؤثر الولد على كل شيء في الحياة، والآخر نفعي يضحي بالولد في سبيل مغنم حياتي زائل. وإذا ما تتبعنا الأمومة في الشعر وجدناها – غالباً – كانت من النوع الأول كما سنرى في ما يلي من نماذج.

لقد قلَّ شعر الأمهات في أبنائهن الذي وصل إلينا قلّة كثيرة في هذا العصر، ولعل ذلك راجع فيما أرى إلى سببين أولهما: أنَّ شعر النساء كعادته يقل كثيراً عن شعر الرجال سواء أكان ذلك ناتج عن قلته أصلاً أو عن قلة الاهتمام به من حيث الحفظ والجمع والتدوين.

وثانيهما: أنَّ كثيراً من شاعرات هذا العصر كُنَّ من الجواري اللواتي لم يكن لأكثرهنَّ فيما يبدو لي اهتمامٌ كبيرٌ بالأسرة وأمورها، ولعل هذا راجع إلى وضعهنَّ في هذا العصر بالإضافة إلى طبيعتهنَّ واهتمامهنَّ كما اتضح في الحديث عنهنَّ في الفصل الأول.

---

(١) تاريخ الأمم والملوك/ ج٨/٢٠٦.

ومما قالته أعرابية عباسية في أسفها على موت ابنها ووصف عجزها عن الصبر:

يـا عمـرُو مالِـي عـنك من صبرٍ ... يـا عَمْـرُو يـا أسَـفي على عَمْرو
لله يـا عمـرو وأيُّ فـتىً ... كفّنْـت يـوم وُضـعت فـي القـبر
أحْـثُو الـترابَ علـى مَفارقـهِ ... وعلـى غَضـارَة وجهـه النَّضِر[1]

فـالأم تحـسّ بالعجـز عن الصبر على مُصابها في ابنها الذي مات وجهـزته للقـبر بـيديها، وهذه مفارقة كبيرة؛ لأنها كانت تحرص عليه كلّ الحرص من قبل وتحميه بعقلها وقلبها من كل مكروه. قالت:

ربّيـتُه دَهْـراً أُفـتِّقهُ ... فـي اليُسْـر أغْـذُوه وفـي العُسْر
حـتى إذا التأمـيلُ أمكننـي ... فـيه قُبَـيلَ تلاحُـقِ الـثغر
وجعلـت مـن شـغفي أنقّلـهُ ... فـي الأرض بيـن تَـنائف غُـبْر
أدَع المَـزارعَ والحصـونَ بـه ... وأحلّـه فـي المَهمـةَ القَفْـر
مـا زلـت أصْـعده وأُحْـدِرُهُ ... مـن قُـتْر مَوْمَـاةٍ إلـى قُـتْرِ
هـرباً بـه والمَـوْتُ يطلُـبه ... حيـث انتَوَيْـتُ بـه ولا أدْري
حـتى دفَعْـتُ بـه لمَصْـرَعِه ... سَـوْق المعـيز تُسَـاق للعَـتْرِ[2]

فمشـاعر الأمّ تبرز جلية في الأبيات كما يبرز نهجها في تربية ابنها فهي تجهد نفسها في إطعامه، والرفق به، وحمله معها من مكان إلى آخر حتى تجعـل مـنه ابناً كما تحب وتتمنى، ولكي تحميه من كلّ ما يمكن أن يصيبه راحـت تـرعاه وتبقـيه إلى جانبها وأمام عينيها، ولكنّ هذا كله لم يمنع عنه المـوت الـذي كان جاداً في طلبه حتى استطاع أن يخطفه من بين يديها في وقت عجزت فيه عن أن تقاوم سطوته المخيفة. قالت:

---

(١) زهـر الآداب وثمـر الألباب/ أبو اسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني/ ضبط وشرح علي محمد البجاوي/ دار إحياء الكتب العربية /ط٢/١٩٦٩م/ج١/٤٠٨.

(٢) المصدر السابق / ج١/ ٤٠٩.

إذ راعني صوتٌ هببْتُ به ... وذُعرتُ منه أيَّما ذُعرِ
وإذا منيتُه تُسَاورهُ ... قد كدحت في الوَجْه والنّحْرِ
وإذا له عَلَق وحَشْرَجَةٌ ... مما يجيشُ به من الصَّدْرِ
والموتُ يَقْبِضُه ويَبْسطُه ... كالثوبِ عند الطي والنَّشْرِ
فدعا لأنْصُرَه وكنت له ... من قبلِ ذلك حاضرَ النَّصْرِ
فعجزتُ عنه وهي زَاهقةٌ ... بين الوريد ومَدْفَعِ السَّحْرِ[1]

أيضاً لقد بكت الأمّ الأماني التي كانت تأملها هي وقومها فيه. قالت:

حين استوى وعلاَ الشبابُ به ... وبدا مُنيَر الوجه كالبدر
ورجا أقاربُه منافعَهُ ... ورأوا شمائل سَيِّدٍ غَمْرِ
وأهمَّه همّي فساوَرَهُ ... وغدَا مع الغادينَ في السّفر
تغدو به شقراءُ سامِيةٌ ... مَرَطَى الجراء شَديدةُ الأَسْرِ
ثبت الجَنَان به ويقدمها ... فَلجٌ يقلبُ مُقْلَتي صَقْرِ[2]

ولكنّ هذا كلّه لم يكن ليعيد ابنها الذي فقدت، ولم يبق لها بعده سوى الصبر والتعزي:

لا يبعدنك الله يا عمري ... إمّا مضيت فنحنُ بالإثْرِ
هذي سبيلُ الناس كلّهم ... لا بدّ سالكها على سَفَرِ
أوَلا تراهم في ديارهمُ ... يتوقّعون وهم على ذُعْرِ
والموتُ يُورِدُهم مواردَهم ... قَسْراً فقد ذَلّوا على القَسْرِ[3]

إنّ القصيدة تبدو كأنّها قطعة من قلب هذه الأعرابية انتزعتها بمشاعرها انتزاعاً قوياً، فهي تمثّل ولَهُ الأمّ وخوفها وحرصها على ابنها في حياته كما تمثّل فجيعتها ولوعتها ويأسها بعد وفاته.

---

(١) زهر الآداب وثمر الألباب / ج١/٤٠٩.
(٢) المصدر السابق / ج١/ ٤٠٨-٤٠٩.
(٣) نفسه/ ج١/ ٤١٠.

أمّا السيدة زبيدة فقد أحسّت باليأس من ابنها بعدما قتل. قالت:

أودى بـإلفكَ مـن لـم يـترك الناسا ... فامـنح فـؤادكَ عـن مقتولكَ الياسَا
لمـا رأيـتُ المـنايا قـد قصدن لـه ... أصـبن مـنه سَـواد القلب والراسَا
فبـتُّ مكتئـباً أرعـى الـنجومَ لـه ... إخـال سـنّته بالليـل قرطاسـا
والمـوت دانٍ لـه والهـمُّ قارنـه ... حـتّى سـقاه الـذي أودى به الكاسا
فلـيس مَـن مات مردوداً لنا أبـداً ... حـتى يردّ لـه من قبلنا ناسـا
رزئـته حيـن باهيـت الـرجالَ بـه ... وقـد بنيـت بـه للدهـر أساسَـا[1]

فـالأمُّ تحاول أن تجد طريقاً إلى السلوى بالاقتناع بأنَّ من أودى بابنها هـو الموت الذي لن يترك أحداً؛ لذا عليها والحال هذه أن تسلوه وتتعزى عنه رغم أنَّ حدَث قتل ولدها، وقع منها في الصميم، وهي تعرض لأمر ربما هو عـامّ عـند الأمهات إذ قد تبذل جهداً عظيماً وتضحي كثيرا من أجلّ أن ترى ابـنها رجلاً ناجحاً فيه من الصفات الحميدة ما يطمح إليها كل إنسان، وهكذا فعلـت، ولكـنَّها أُصيبت به عند بلوغه ما تمنت أن تراه عليه، ولعلّ هذا كلّه يؤكّد عِظَم خسارتها به، وبالتالي شدّة حزنها وألمها لفقده.

وقد وصفت السيدة زبيدة حالتها بعد ابنها، فقالت في كتاب أرسلته إلى الخليفة المأمون:

كَتَبْـتُ وَعَيْنـي مُسْتَهِلٌّ دُمُوعُهـا ... إلـيكَ ابـنَ عمي مِنْ جُفُونٍ ومَحْجَرِ
مَسَّـنِي ضَـيْرٌ وذُلٌّ كآبَـة ... وَأَرَّقَ عَينـي يـا ابْنَ عَمِّي تَفَكُّرِي
وَهمْـتُ لمَـا لاقيْـتُ بَعـدَ مُصَابه ... فَأَمْـرِي عَظِـيمٌ مُـنْكَرٌ عِـنْدَ مُنْكِر
سَأَشْـكُو الَـذي لاقَيْـتُهُ بَعْـد فَقْـدِه ... فَأَنْـتَ لِبَيْتِـي خَـيْرُ رَبٍّ مُعمِّـر[2]

ممَّا يلاحظ على هذه الأبيات -إنْ صحّت نسبتها إلى السيدة زبيدة- أنّ الذي شَغل الأمّ حالتها جرّاء ما أصابها وفيما سيؤول إليه حالها في المستقبل، فـبدا اهـتمامها بهـذه الأمور أكثر من اهتمامها بأي أمر آخر، ولعل طبيعة

---

(١) مروج الذهب/ ج٤/ ٢٩٦-٢٩٧، وشاعرات العرب/ ٢١٣ مع اختلاف في بعض المفردات.

(٢) شاعرات العرب/ ٢١٢- ٢١٣.

الحادثـــة نفسها التي ذهب فيها ابنها هي التي فرضت هذا الاهتمام، فالأبيات تشـــير إلى ما يدور في خلد السيدة زبيدة حول كيفية المحافظة على ما تبقىّ لديها من مكتسبات الخلافة؛ لذا نراها تسارع في إرسال الرسائل بعد وفاة ابنها إلى الخليفة المأمون، تطلب منه حمايتها واسترجاع ما أخذه الجند منها. قالت:

أَتَـــى طَاهِـــرٌ لا طَهَّـــرَ اللهُ طاهِـــراً ... فَمَـــا طَاهِـــرٌ فِـــيما أَتَـــى بِمُطَهَّـــر
فَأَخْرَجَنِـــي مَكْشُـــوفَةَ الوَجْهِ حَاسِراً ... وأَنْهَـــبَ أَمْوالِـــي وأَخْـــرَبَ أَدْوُرِي
يعِـــزُ علـــى هَـــارُونَ مَـــا قَدْ لَقِيتُهُ ... ومَـــا مَرَّ بِي مِنْ نَاقِصِ الخَلْقِ أَعْوَر
فَـــإِنْ كَـــانَ مَـــا أَبْـــدَى بِأَمرِ أَمْرَتَهُ ... صَـــبَرْتُ لأَمْـــرٍ مِـــنْ قَدِيـــرٍ مُقَدَّر
تَذَكَّـــرْ أَمِـــيرَ المُؤمِنِيـــنَ قَرَابَتِـــي ... فَدَيَّـــتُكَ مِـــنْ ذِي حُـــرْمَةٍ مُتَذَكِّر [1]

ســـواء أكانت هذه القصيدة للسيدة زبيدة أم أنها منظومة على لسانها، فإنَّهـــا تصـــوّر بطـــريقة، أو بأخرى ما يمكن أن يدور بخلدها بعد وفاة ابنها الأميـــن، وتولي أخيه المأمون الخلافة مكانه، أو ما كان من الممكن أن يدور فـــي خلد أيَّة أُمٍّ فجعت بمثل فجيعتها. ولكنِي أعتقد أنَّ هذا شعر مفتعل؛ لأنَّه لا يتفق مع نفس كنفس زبيدة في مثل هذا الموقف.

ثانياً ـ شعر الأبناء في الأمهات

قـــلَّ الشـــعر المباشر للأبناء في أمهاتهم في هذا العصر، فكان الذين رثـــوا أمهـــاتهم أو ذكروهنّ في أشعارهم قلّة، ولعل السبب في ذلك يعود إلى الـــنَّظرة التقلـــيدية التي كانت تتعمق نفوس كثير من الشعراء العرب في هذا العصـــر الـــذي ابتعدوا فيه عن ذكر الحرم في أشعارهم إلا قليلاً في رثاء أو غـــيره، سواء أكانت الحرم من الأمهات أو الأخوات أو الزوجات، وكان ذلك حرصاً على عدم كشف ما يخصهنّ من أُمور، ودفعاً لكل شبهة من الممكن أن تلحق بهنَ، وقد زاد من الاهتمام بهذه القضايا طبيعة العصر العباسي باعتباره عصـــر الحجـــاب الـــذي فُـــرض على المرأة الحرّة لتمييزها عن الجارية،

(١) شاعرات العرب / ٢١٣.

ولحمايــتها مما يمكن أن يلحقها من جرّاء تَهتُك بعض المتَهتكين من الشعراء والمجّــان، ولكن ومع عدم إكثار الشعراء من القول المباشر في الأمومة، فقد وضــح تأثــرهم العميق بفكرتها، التي تعمّقت عقولهم ومشاعرهم حتى بدت واضحة من خلال أشعارهم، من خلال وصفها والتمثل بها كما سيظهر تالياً.

بــدت صــفة حرص الأُمّهات على الأبناء في الشعر كثيراً، مما جعل حرص الأُمّ مثلاً يعرض لــه الشعراء في حديثهم بالإضافة إلى اهتمامهم بهذه الصــفة علــى أساس أنّها صفة قائمة في علاقاتهم المباشرة مع أمّهاتهم. قال علي بن الجهم يصف سحابة:

وســاريَة تــرتادُ أرضــاً تجودُهــا ... شَــغَلت بهــا عَيْــناً قلــيلا هُجودُها
أَتتْــنا بهــا ريــحُ الصَّــبا وكأنّهــا ... فــتاةٌ تُزجّــيها عجــوزٌ تقودُهــا
تمــيسُ بهــا مَيْسا فلا هي إنْ ونَتْ ... نهــتْها ولا إن أســرعت تســتعيدُها
إذا فارقَــتْها ســاعةً ولهَــتْ بهــا ... كــأمٍّ ولــيدٍ غــابَ عــنها وليدُها[1]

فالشاعر يصف العلاقة بين السحابة والريح فيراها علاقة وطيدة إذ لا تستطيع الريح مفارقة السحاب، وهي لها كالعين لا تغفل عنها بنوم أو غيره، وهي تسايرها في سيرها ولا تفارقها، وإن فعلت وفارقتها لحظة تصبح والهة بهــا مــثل وله أمّ بوليدها الذي غاب عنها، فلا تستطيع لــه فراقاً، ولا تطيق عنه بعاداً، وإن فعلت مضطرة تبقى مشغولة به، بفكرها وقلبها، وهذا ما يدل على شدة الترابط بين الأُمّ وابنها، وقد خصّ الشاعر الابن الوليد بالذكر؛ لأنّ العلاقــة بينه وبين أُمه تكون أكثر ترابطاً وقوّة. ولعلّ استعمال الشاعر لكلمة (الوله) يدلّ على مقدار الشغف والحرص من الأمّ لابنها الصغير.

وقــد يُشكّل مثل هذا الحرص بعض الثقل على الابن خاصة إن بالغت الأمّ فيه. قال ربيعة الرقي:

---

(١) ديــوان علي بن الجهم/ تحقيق خليل مردم بك/ منشورات دار الآفاق الجديدة/ بيروت- لبنان/ ط٢/ ١٩٥٩ / ٥٦-٥٧. الســارية: الســحابة تأتــي ليلاً. الهجود: النوم. زجّى الشيء: دفعه برفق. ونى: فتر وضعف.

وبَلائـــــي أنّ أُمّـــــي أثقلتـــــي بـــــإزاري
فـــإذا مـــا قمْـــتُ أمْشـــي هَـــمَّ خَصْـــري بانبـــتار
كـــلّ ذا أحْمِـــلُ وَحْـــدي أيـــن أُمِّـــي مـــن فـــرَاري؟
أُمَّـــتَا هـــذا، وَرَبّـــي، حمْـــلُ بِـــرْذونٍ بُخَـــاري
أُمَّـــتَا لَسْـــتُ بـــبِرْذَوْ نٍ، ولا بَغْـــل مُكَـــارِي[1]

إنَّ الأمَّ مصـدر رحمة لأبنائها؛ لذا فهم يرجعون إليها عندما يحسّون بضـيق وخوف، ولا يكون ذلك إلا لإحساسهم بقوّة الرابطة التي تربطهم بها وتربطها بهم، فالعلاقة الدافئة والحنان الدافق من السمات المميزة للعلاقة التي تـربط الأمَّ بأولادهـا، فقـد ذُكر أنَّ الرشيد امتحن إبراهيم بن نهيك في حبّه للبرامكة، فذكر إبراهيم حبّه لهم، وخطأ الرشيد في قتله إيَّاهم، فغضب الرشيد مـنه غضباً شديداً، فقام لا يعقل ما يطأ، فانصرف إلى أُمّه، فقال: يا أمَّ ذهبت والله نفسـي. قالت: كلا -إن شاء الله- وما ذاك يا بني. قال: ذاك أنّ الرشيد امتحنني بمحنة، والله لو كان لي ألف نفس لم أَنجُ بواحدة منها.... [2]

ومن صور رحمة الأم بأبنائها ومعارضتها لقسوة الأب عليهم ما روي عـن أُمّ بشـار بـن برد قولها لوالده :"كم تضرب هذا الصبي الضرير، أما ترحَمُه!"[3] وقد كان أبوه يضربه ضربا مبّرحا بسبب تعرّضه للناس بالهجاء المقذع.

ومن ذلك ما قاله علي بن الجهم في كتاب أرسله إلى أُمه عندما حبسه أبوه في الكتاب:

يـــا أُمّـــتا أفديـــك مـــنْ أُمِّ أَشْـــكُو إلـــيك فظاظـــةَ "الجَهْـــم"
قـــد ســـرِّحَ الصـــبيَانُ كلهُـــمُ وبقيـــتُ محصـــورا بـــلا جُـــرْم[4]

---

(١) شعر ربيعة الرقي/ جمع وتحقيق د. يوسف بكار/ دار الأندلس للطباعة والنشر/ ط٢/ ١٩٨٤/ ٩٩.
(٢) تاريخ الأمم والملوك/ ج٨/٣١١-٣١٢
(٣) الأغاني/ ج٣/٢٠٨
(٤) ديوان علي بن الجهم/ ١٨٠، والأغاني/ ج١٠/٢١٧.

فالشاعر الابن يشكو إلى أُمّه قسوة أبيه، وهو يأمل أن تحقِّق لـــه العفو عـــنده، وما كان الشاعر ليفعل ذلك لولا إحساسه بحب أمه له، وحرصها على راحته، هذا أمر، والأمر الآخر أنّ الشاعر يُشير إلى بعض الأدوار التي يقوم بهـــا الأبـــوان في تربية أبنائهم أحياناً حيث تكون الأمُّ للرحمة، ويكون الأب للشدة، وذلك حسب ما تقتضيه طبيعة كل منهما.

وقـــد عرف عن الأمِّ الاهتمام الشديد بأبنائها، وقد تناول الشعراء هذا المعنى، وكان مجالاً خصباً لتشبيهاتهم وصورهم. قال أبو نواس:

وقـــانصٍ أحْقَـــى بـــه مـــن أُمَـــهِ ... لـــو يسْـــتطيعُ قَاتَـــهُ بلْحمـــهِ
مـــا زالَ فـــي تقديحـــه ونهمـــهِ ... يُوحـــي إلـــيه كلمـــاتِ علمـــهِ
يقِـــيه مـــن بَـــرْدِ الـــندى بكمِّـــهِ ... توقـــية الأُمِ ابـــنَها فـــي ضَـــمِّهِ
ومـــا يلـــذ أنفهـــا مـــن شَـــمِّهِ ... يـــنازل المكّـــاءَ عـــند نجمِـــهِ[1]

يصف أبو نواس هنا اهتمام القانص بصيده، فيشبهه باهتمام الأم بابنها الـــذي تطعمه باهتمام كبير وتحرص على أن يأكل أفضل الطعام، وهي تبذل فـــي ذلك جهداً كبيراً، ويصوّر الشاعر مقدار اهتمامها بأنّها لا تدخر جهدا في إطعامـــه ورعايته وحمايته من كل ما يمكن أن يؤذيه، وهي تفعل ذلك دونما ملـــل أو تعـــب وكذلـــك يفعل القانص الذي يهتم بصيده اهتماماً كبيراً خاصَّة بطعامه حتى أنه لو استطاع أنْ يطعمه من لحمه لفعل حتى يغدو صيداً سميناً تماما كما تفعل الأمُّ مع الاختلاف الكبير بين غاية كل منهما من هذا الاهتمام.

ولا يكـــون اهـــتمام الأُمِّ بأبنائها الصغار فقط، بل يكون بالكبار أيضا، وتخـــتلف درجة هذا الاهتمام من مناسبة إلى أخرى، وقد ورد لبعض الشعراء شـــعر فـــي هـــذا يصـــوّر جـــزءاً من صورة الأسرة العباسية، وبعضاً من اهتماماتها. قال سوّار القاضي:

---

(١) ديـــوان أبي نواس/ تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي/ دار الكتاب العربي/ بيروت- لبنان/ ١٩٨٢/ ٦٦٩.

شعر في هذا يصوّر جزءاً من صورة الأسرة العباسية، وبعضاً من اهتماماتها. قال سوّار القاضي:

فبابُك أيمنُ أبوابهم ... ودارُكَ مأهولةٌ عامرَهْ
وكفُّك حين ترى المُجْتدي ... ن أندَى من اللّيلة الماطره
وكلبُك آنسُ بالمُعْتفين ... من الأم بابنتِها الزّائره[1]

فالشاعر يعرض لصورة من صور اهتمام الأمّ بأبنائها، وقد خصّ الابنة المتزوجة، التي تأتي لزيارة أهلها، وهنا يبرز دور الأمّ بشكل خاص في الأسرة حيث تهتم وترحب بها كثيرا، وتبدو معها في غاية الكرم.

وليس الحب والاهتمام والحرص من ميزات الأم التي تنبّه إليها الشعراء فقط، بل تطرق بعضهم إلى مثاليتها في التسامح مع أبنائها، فكان هذا الخلق الرفيع مضرب مثل عند بعضهم. قال بشار بن برد:

قد وعدت والوعدُ كالكتاب ... فأنت للأدنَيْن والجناب
كالأمّ لا تجفُو على العِتابِ ... فأمْضِها مِنْ بحْرِك العُبابِ[2]

ونتيجة لهذه النظرة المثالية رأى كثير من الشعراء أنّ للأمّ مهمّة يجب أن تقوم بها وهي رعاية أولادها رعاية شاملة، وإن أخلّت بشيء من هذه الرعاية تكون قد تخلّت عن مهمّتها أُمّاً؛ لذا جعل الشعراء مثل هذا الموقف صورة يشبهّون بها من يتخلى عن مهمته الأصلية. قال ابن هرمة:

وإني وتركي ندى الأكرمينَ ... وقدحي بكفيّ زنداً شحاحا
كتاركة بيضها بالعراء ... وملبسة بيضَ أُخرى جناحا[3]

---

(١) العِقْد/ ج١/ ٢٤٣.

(٢) ديوان بشار بن برد/ جمع وشرح الشيخ محمد الطاهر بن عاشور/ الشركة التونسية للتوزيع، والشركة الوطنية للنشر والتوزيع- الجزائر/ ١٩٧٦/ ج١/ ١٦٧-١٦٨.

(٣) كتاب الصناعتين/ تصنيف أبي هلال العسكري/ تحقيق مفيد قميحة/ دار الكتب العلمية/ بيروت- لبنان/ ط١/ ١٩٨١/ ١٦٣.

وتـــرك الأمّ أولادهـــا لترعى أولاد أخرى أمر قلما يحدث، وإن حدث فيكـــون أمراً غير طبيعي، إذ إنّ الأمّ لا يمكنها أن تتخلى عن صغارها لترعى صـــغار غيـــرها ســـواء أكـــانت أمّا من بني البشر أم من غيرهم، وقد رأى الشـــاعر أنّ هـــذه صورة قريبة وواضحة إذ لا يمكنه أن يترك كرم الكرماء، ويذهب إلى غيرهم تماماً، وقد قال أبو تمّام في معنى قريب من هذا المعنى:

كمرضِـــعَةٍ أولادَ أُخـــرى وضـــيّعت بـــنيها فـــلم تَـــرقَع بذلـــك مَرقَعا[1]

فالوضـــع الطبيعي للأمّ هو إرضاع أبنائها، فإذا ما تركت مهمّتها هذه لترضـــع أولاد غيـــرها، فإنّها تضع نفسها في وضع غير طبيعي، ولن يفيدها إرضاع أولاد غيرها شيئاً عندما يضيع بنيها.

ولعـــلّ من أكثر الصور تكراراً واهتماماً عند الشعراء هي صورة الأمّ الثكـــلى، إذ كـــانت ملء خيالهم عند حديثهم عن الحزن والجزع. قال البحتري في صديق له:

إنّـــي لَـــبَاك عـــليهِ مـــا طـــرفَتْ عيْـــنٌ، ومـــا فـــاض دَمْعُها السَّرِب
بُكَـــاءَ محْـــزونةٍ عـــلى ولَـــد لـــم يُغْـــنِ عـــنها الإشفاقُ والحَدَبُ[2]

وكتبت إحداهنّ إلى إسحق الموصلي تقول:

وجـــدي بجمـــل عـــلى أني أجمجمه وجـــد الســـقيم بـــبرء بعـــد إدنـــاف
أو وجـــدُ ثَكْلَى أصاب الموتُ واحدَها أو وجـــدُ مُغـــتربٍ مـــن بين أُلاّف[3]

ليس الحزن والبكاء فقط من صفات الأمّ الثكلى، وإنّما أضافت الشاعرة لهـــا صـــفة الوجـــد، بـــل جعلت وجدها مثالاً يقاس عليه؛ لذا شبهت وجدها بصاحبها بوجد الأمّ الثكلى بما فيه من ولَهٍ وحرقة قد يصاحبهما انكسار ويأس لعظم المصاب.

---

(١) الصناعتين / ١٣٨.

(٢) ديوان البحتري/ ج١/٣٤٤.

(٣) الأغاني/ ج٥/ ٣٣١.

أمّـا أبـو تمّام، فقد صوّر وجده بوجد أُمّ ترى ابنها يصارع الموت، وتقف حائرة لا تدري ماذا تفعل له. قال:

والله لـو تَـدْرِي بِمـا أَلْقَـى ... لَحَرَجْـتَ أَنْ تَـتَجاوزَ الحَقَّـا
بـي فَـوْقَ مـا تَلْقَـى بِواحِدِهـا ... أُمٌّ تَـراهُ لُجنـبِها مُلْقَـى
تبكـي لِمـنهُوشٍ تَنيَّـبَهُ ... صِـلٌّ فمـا يُـرجَى ولا يُـرْقَى
فـارحم شَـقِيًّا فـي هـواكَ فمَـا ... يَبغِـي وإِنْ أعتَقْـتَه عِـتْقَا[1]

صـوّر الشـعراء العباسيون التعاطف مع الأمّ، فكان جانباً معبّراً من جوانب الحب الذي يربط بين الابن وأمّه، ويكون ذلك من خلال مشاركة الابن لـلأمّ فـي مشاعر الحزن والفرح، لقد كان مثل هذا الشعور متمثّلا عند ابن الرومي بعد وفاة خالته إذ قال يصف شعوره وشعور أُمّه تجاه الموقف:

أرانـي وأُمِّـي بعـد فقـدَانِ أُخْتِهَا ... وإِنْ كنـتُ فـي رَفـه بها وصَلاَح
كَفَـرْخ قَطَـاة الـدوِّ بَـان جَنَاحُهَا ... فـباتَ إلـى حِصْـن بِغَيْر جَنَاح[2]

فالشـاعر يصف عمق الخسارة التي لحقته وأُمّه بوفاة خالته. إذ كانت تربطهما صلة قوية، وعند وفاتها شعرا بفقدان كبير لها وخسارة فادحة، وهو يشبّه حالهما بحال صغير القطا الذي بان جناحه، فأصبح لا يقدر على الطيران أو الحـركة الطبيعية مما جعله يلجأ إلى مكان يؤويه. هكذا كان حال الشاعر وأمّـه فقـد فقدا نصيراً ومحباً ومعيناً لهما، مما جعلهما يشعران شعور ذلك الطائر الضعيف.

ويحـاول الشاعر أن يعزّي نفسه وأمّه بأنَّ ما حدث لهما بوفاة خالته أمر مقدّر لا بُدّ من حدوثه إذ أصاب ويصيب الناس جميعاً، فهذه الدنيا ليست بدار إقامة؛ لذا فلا أسف عليها. قال:

---

(١) ديوان أبي تمام/ ج٤/ ٢٤٤.

(٢) ديوان ابن الرومي/ ج٢/ ٥٤٠.

ألا ليسَـت الدنْـيَا بـدار فـلاح ... بعيـنْكَ صـرعاها مسـاءَ صـباح
لـنا مـن كلا العصرين ساقٍ كلاهُما ... يَـدورُ فيسـقينا بِكَـأسِ ذُبَـاحِ[1]

والفخر بالأمّ باب آخر طرقه بعض شعراء العصر العباسي، ومنهم أبو شراعة الذي يقول مفتخراً بأمّه:

أنـا ابـنُ العنـبريّة أُزّرتنـي ... إزار المكـرمات إزار خالـي
فـإن يكـن الغـنى مجـدا فإنـي ... سـأدعو الله بالـرزق الحـلال[2]

ومـن الشـعراء من فجع بأمّه، فرثاها رثاء حاراً أبرز فيه موقفه من الحـدث، ومشـاعره تجاه من ربته ورعته، فعبّر بذلك عمّا يكنّه لها من حب وتقديـر، وعـن مدى خسارته برحيلها عنه. قال ابن الرومي في رثائه لأمّه يحثّ عينيه على إفاضة الدمع لتعطي مصابه حقّه:

أفيضَـا دمـاً إنَّ الـرزايا لهـا قِيَم ... فلـيس كثـيراً أن تَجُـودَا لهـا بدمْ
ولا تسـتريحا مـن بُكاء إلى كـرى ... فـلا حمدَ مالم تُسعداني على السأمْ[3]

وقـد أكـدَّ الشاعر حاجته إلى البكاء والعزاء في مواضع أُخرى من القصيدة إذ قال:

أيـا مـوتُ: مـا أسلمتُها لك طائعاً ... هـواك، فمالـي زَفرتي زفرةُ الندم
سـأبكي بِنَـثْرِ الدمـع طوراً وتارةً ... بـنظم المَراثِـي دائمَ الحُزْنِ والوَكم
وتُسـعدُني نفـسٌ علـى ذاك سَمْحةٌ ... بمـا نـثر الشـجوُ الدخيلِ وما نظم
لأُنفَـي نوْمي لا لأشفِيَ غُلَّتـي ... علـى أنَّ عينـي مُذْ فقدتُكِ لم تنم[4]

---

(١) ديوان ابن الرومي/ ج٢/ ٥٤٠.
(٢) الأغاني/ ج٢٣/ ٣٦.
(٣) ديوان ابن الرومي/ ج٦/ ٢٢٩٩.
(٤) المصدر السابق/ ج٦/ ٢٣٠٩.

ويصوّر الشاعر حياته بعد أُمّه خليطاً من الحزن والدموع. قال:

ويـا لـذة العيشِ التي كنتُ أرتضي ... تَقَطّـعَ مـا بينـي وبيـنكِ فانصـرم
رُميـتُ بخطـبٍ لا يقـومُ لمـثْله ... شَروْرَي ولا رَضْوَى ولا الهَضْب من خيم
بأنكـرَ ذي نُكْـرٍ وأقطـعَ ذي شَبَاً ... وأمقـرٍ ذي طعـم وأوخـمَ ذي وَخَـمْ
رزيـئة أمّ كنـتُ أحـيا بِـرُوحها ... وأسـتدفع الـبلوى وأستكشِـفُ الغمـم[1]

فقد انقطع الوصل بينه وبين كل لذة بعد وفاة أمّه إذ لا يمكن الجمع بين الحزن واقتراف اللذائذ، وهو لا يرى في ذلك كثيراً بالنسبة لمصابه، إذ أُصيب بمصـاب فـادح منكر لا يستطيع حمله أحد مهما بلغ من القوّة والعظمة، فقد توفيـت أُمّه التي كان يحيا بروحها ويستدفع البلوى بها، ويبعد عن نفسه الغمّ بوجودها إلى قربه وبدعائها الدائم له.

ويؤكد الشاعر أَنَّ فقده لأمّه فقد من نوع خاص فيقول:

أَقـولُ وقـد قـالوا: أتبكـي كفـاقد ... رَضـاعاً وأين الكهلُ من راضعِ الحَلَمِ؟
هـي الأمُّ يـا للـنّاسِ جُرعتُ ثُكْلَها ... ومـن يـبكِ أُمـاً لـم تُذم قَطُّ لا يُذَم
فقـدتُ رَضـاعاً من سُرور عهدتُها ... تعللنـيه فانقضـى غـيرَ مسـتتم
رضـاعُ بـناتِ القلـب بـان ببينها ... حَمـيداً ومـا كُـلُّ الرّضاعِ رَضاعُ فَم
إلـى الله أشـكو جَهْـدَ بلـواي إنّه ... بمسـتمَعِ الشـكوى ومستوْهَبِ العصم
وإنـي لـم إيـتم صـغيرا وإنني ... يتمـت كبـيراً أسـوأ اليُـتم واليـتَم
علـى حيـن لم أَلقَ المصيبة جاهلاً ... ولا آهـلاً والدَّهـرُ دَهـرٌ قـد اعترمْ
أقاسـي وصِـنوي مـنه كل شديدة ... تَـبرَحُ بـالجَلْد الصـبُور والـبرَم[2]

فالشـاعر يـردَّ على العاذلين الذين يستغربون كثرة بكائه وشدة حزنه وكأنّـه طفل رضيع بحاجة دائمة إلى أمّه فيقول: إنَّ الرضاع أنواع ورضاعه الذي افتقده هو رضاعٍ سرور كانت تدفعه إليه، فقد كانا صديقين يحبُّ أحدهما الآخـر، إذ كانت أمّاً عظيمة في خلقها وفي أمومتها وهي لم تذمّ قطّ، وكانت

---

(١) ديوان ابن الرومي/ ج٦/ ٢٢٩٩-٢٣٠٠.

(٢) المصدر السابق/ ج٦/ ٢٣٠٠- ٢٣٠١.

تقــدم لابنها كل ما يجلب له السرور والسعادة، وقد فقد بفقدها أغلى مما يمكن أن يفقــده الابــن الرضيع. فرضاعه هو نوع خاص ربما كان أهمّ بكثير من رضــاع الفــم كما يقول؛ لذا فإنّ فقده لها كان كبيراً، وبلواه كانت عظيمة لا يمكن دفعها ولا تجاوزها إلا بمعونة من الله تعالى. وهو يصوّر عمق مصابه وضعفه إزاءه من خلال حواره التالي:

خليلــيَّ: هــذا قــبرُ أمــي فورعــا ... مــن العَــذْلِ عنــي واجعلا جابتي نَعم
فمــا ذرفــتْ عينــي على رَسم منزلٍ ... ولا عَكَفــتْ نفســي هــناك على صنم
خليلــيَّ رِقّــا لــي، أعيــنا أخاكمــا ... نشــدتكما مــن تَرْعــيانِ مــنَ الحُرَم
أمــن كــرى الشكوى تَمَلاّني جُزْتُما ... ســبيل اغتــنام الحمــد والحَمــدُ يُغتنم
فكــيف اصــطباري للمُصابِ وأنتما ... تملــلان شــكواهُ وَفــي جانبــي تَلــم
عجبــتُ لــذي ســمع يَمــلُّ شــكاية ... ويعجَــبُ مــن صدْرٍ يَضيقُ بما كَظم
إلا رُبَّ أيــــام سَــــحَبتُ ذيولَهــــا ... ســليماً مــن الأرزاءِ أملــسَ كالــزُّلم
أُرَشِّــحُ آمــالاً طــوالاً وأجتنــي ... جَــنى العــيش في ظل ظليلٍ من النعم
ولو كُنتُ أدري أنَّ ما كان كائــنٌ ... لقُمْتُ لِروَعْاتِ الخطوب على قــدم[1]

يؤكِّــد الشــاعر أنّ اعــتكافه على قبر أُمّه وبكاءه ليس كثيراً، فهو لم يجلس إلى صنم، ولم يبكِ طللاً، كما يفعل غيره من الشعراء ولعله هنا يعرّض بالشــعراء العرب الذين كانوا يفعلون ذلك، فإذا كانت الأطلال تُبكى، فلا يلام إذاً علي ملازمة قبر أُمّه وبكائه عنده وهو في هذا كله يبدو ضعيفاً أخذ الوهن منه كُلّ مأخذ، ويأمل الشاعر من أصدقائه أن يعيناه، ويرقا لــه، ويعذراه على ما يفعل بدلاً من إظهار الملل والضيق من شكاياته وزفراته، وهو يتعجب من مللهما لشكواه وضيقهما منها في حين هما يعجبان من صدره الذي يكاد ينفجر بمــا يحمــل من ألم وحزن، وهو في هذا كله يتذكر أيّامه الخوالي التي مرت ناعمــة خالية من كل ألم وحزن ليس فيها إلّا الآمال العظيمة والعيش الظليل

---

(١) ديوان ابن الرومي / ج٦/ ٢٣٠١..

دونمـــا توقـــع لما يعانيه الآن، ولو كان يعلم بحدوث ما حدث لهيأ نفسه لـــه، ولكان بالتالي وقع المصاب عليه أهون، ولكان أقدر على تجاوزه.

ويصف الشاعر نفسه بعد أُمه وما آل اليه حاله فيقول:

نـــبا ناظِـــري يـــا أُمُّ عن كُلِّ مَنْظر ... وسَـــمعي عـــن الأصوات بعدك والنغم
وأصـــبحتِ الآمـــال مُذْ بِنْتِ والمنى ... غـــوادرَ عـــندي غـــيرَ وافـــيةِ الذمـــم
وصـــارمتُ خلاَّنـــي وَهُمْ يَصلونَني ... وقـــد كنـــتُ وَصَّـــالَ الخليل وإن صَرم
وآنســـني فَقْـــدُ الجلـــيس وأوْحَشَتْ ... مَشـــاهدهُ نفســـي ولـــم أدر مـــا اجترم
ســـوى أنه يدعو إلى الصبر واعِظاً ... فـــإن لَـــجَّ ما بيَ لجَّ في العذل أو عذم
ولو أنني جمَّعْتُ وعظِي ووعظَـــهُ ... ليَشْعَبَ صَدْعا في فؤادي لما التـــأم[1]

وقـــد شـــارك الشاعر في حزنه على أمّه كل ما حولـــه بما في ذلك الأرض والجبال والسحاب والريح وغيرها، فحزنه موزّع حتى صار أحزاناً. قال:

فقدنـــاك فاسْـــوَدَّتْ علـــيك قلوبـــنا ... وحُقّـــتْ بـــأن تســـودّ وابَيضَّـــتِ اللِّمَمِ
وأظلمـــتِ الدنـــيا وبـــاخ ضَـــياؤها ... نهارا وشمسُ الصَّحْوِ حَيْرَى على القِمَم
وأجدبـــتِ الأرضُ التـــي كنتِ روضةً ... علـــيها وأبـــدتْ مكلّحـــا بعـــدِ مبتَسَم
ومـــادت لـــك الأجـــبال حـــتى كأنما ... شـــواهقها كانـــت بمحـــياك تُدَّعَـــمْ
وأصـــبحَ يبكـــيك الســـحابُ مُجـــاوِداً ... فـــأرزم إرزامَ العَجـــول ومـــا رَذِم
وناحتْ عليك الريحُ عبرى وأصبحتْ ... لـــدُنْ عَدِمَـــتْ رَيَّـــاكِ تجري فلا تُشِم
وأقامـــت علـــيكِ الجنُّ والإنس مأتماً ... تُبكِّـــي صـــلاة الليل والخمص والهضم
وأضـــحتْ عليكِ الوحشُ والطيرُ وُلَّهاً ... تبكِّـــي الـــرواء النضر والمخبر العَمَم
وأبدى اكتئابا كـــــل شيءٍ علمتـــه ... وأضعافُ ما أبداه من ذاك ما كَتَـــم[2]

---

(١) ديوان ابن الرومي/ ج٦/ ٢٣٠٩- ٢٣١٠.

(٢) المصدر السابق/ ج٦/ ٢٣١٠-٢٣١١

إنّ الشـــاعر يسقط ما في نفسه على كل ما حوله من أركان الطبيعة، فحـــزنه الشـــديد علـــى أمّه احتد ليعمّ كل شيء من حوله، فبالإضافة إلى أنّ القلوب اسودّت حزناً عليها، وابيضت الرؤوس لهول المصاب بها، فقد أظلمت الدنيا، وأصبح نور نهارها باهتا وشمسها لا تريد الخروج إذ لم يعد في الدنيا من يستحق أن تضيء له، وكذلك الأرض التي كانت معطاءة أصبحت مجدبة وتغيّر حالها، والجبال ماتت والسحاب تبكي، والريح تنوح وحتى الجنّ أقامت هي والأنس مأتماً لبكائها والصلاة عليها. ومما لا شك فيه أنّ الشاعر بالغ في وصـــف أثـــر فقد أمّه على الأشياء من حوله، ولكنّ أحزانه قد صبغت نفسه بصـــبغة الحزن التي لوّنت الأشياء من حوله بلونها نفسها، فتهيأ لـــه أن كل شـــيء حزيـــن ومصـــاب باليأس لفقدها، وكأن موتها نهاية الحياة. وقد تنبّه الشاعر نفسه لهذا، فقال:

كـــذاك أرى الأشـــياءَ إمـــا حقـــيقةً بـــدْت لـــي وإمـــا حُلْـــم مُستَيَقظ حَلم
ولـــن يَحلُـــمُ الـــيقظانُ إلا وقد أتت علـــى لُـــبِّه دهـــياءُ هائلـــةُ الفقَـــم[1]

لقـــد نجح الشاعر في تصوير أثر موتها على الأشياء من حوله، ففي حين كانت أجزاء الكون التي فقدتها حزينة يائسة، فإن الأجزاء الأخرى التي استقبلتها كانت مبتهجة فرحة. قال:

وأمـــا الســـمواتُ العلـــى فتباشـــرتْ بـــرُوحِك لمّـــا ضَـــمَّها ذلـــك المَضَم
ومـــا كنـــتِ إلا كوكـــباً كـــان بينـــنا فـــبان وأمســـى بيـــن أشـــكاله نَجـــم
رأى المَسْـــكَنَ العُلـــويَّ أوْلـــى بِمثْلِهِ فودّعَـــنا جـــادتْ معـــاهدهُ الـــرَّهَم[2]

وقد أكثر الشاعر من الحديث عن مكانة أمّه وأهميتها في حياته، ربما كان ذلك ليقنع من هم حوله بعظم خسارته بها، وضرورة الوفاء لها. قال:

---

(١) ديوان ابن الرومي/ ج٦/ ٢٣١١.

(٢) المصدر السابق/ ج٦/ ٢٣١١. الرهم: المطر الضعيف الدائم.

أحاملتـــي: أصـــبحت حمـــلاً لحُفْرة ... إذا حَمَلـــتْ يومـــاً فلـــيس لهـــا قَـــتَم
أحاملتـــي: أســـتحمِلُ الله رَوْحـــةً ... إلـــى تلكُـــم الـــروح الزكـــية والنَّسم
أمُرضِـــعَتِي: أسترضِـــعَ الغيث درّةً ... لرمْسِـــكِ بـــل استغزرُ الدمعَ ماسجم[1]

ولمّا كان دور الأمّ لا ينتهي بالحمل والرضاعة ورعاية الابن صغيراً، بـــل يمـــتدّ ويكبر مع تقدم عمره، فهو بحاجة إلى الصاحب الأمين والصديق المخلص، وليس هناك من يقوم بهذا الدور أفضل من الأمّ، وهذا هو ما كانت عليه أُمّ ابن الرومي إذ قال:

ألا مـــن أراه صـــاحباً غـــيرَ خائنٍ ... ألا مـــن أراهُ مُؤنســـاً غـــيرَ مُحتَشَم؟
ألا مـــن تليني مـــنه فـــي كلّ حالةٍ ... أَبـــرُّ يـــدٍ بَـــرّتْ بـــذي شَـــعثٍ يُلَم؟
ألا مـــن إلـــيه أشـــتكي مـــا ينوبُني ... فَـــيُفْرَجُ عَنِّـــي كُـــلَّ غـــمّ وكلَّ هَم؟[2]

ويلتفـــت الشـــاعر إلى مناقب أمّه الراحلة فيركّز على الجانب الديني قائلاً:

لعَمْـــري وعَمْـــري بعدك الآنِ هَيِّنٌ ... علـــيَّ ولكـــنْ عـــادةٌ عادهـــا القَســـم
لقـــد فجعـــتْ مَـــنك اللَّيالـــي نفوسَها ... بمجيـــبة الأَســـحار حافظـــة العَـــتم
ولـــم تُخطـــىء الأيـــامَ فـــيك فجيعةٌ ... بِصَـــوّامة فيهـــنَّ طَيَّـــبة الطَّعـــم
وفـــاتَ بـــك الأيـــتامَ حِصـــنٌ كنافة ... دفـــيءٌ علـــيهم لـــيلةَ القُـــرِّ والشَّـــبَم
رجعـــنا وأفـــردْناك غـــير فـــريدة ... مـــن الـــبرِّ والمعروفِ والخيرِ والكرم
فـــلا تعدمـــي أنْـــسَ المحـــلِّ فطالماً ... عكفـــتِ وآنستِ المحاريبَ في الظُّلم[3]

ويحـــاول الشاعر بعد هذا كلّه أن يجد طريقاً إلى الصبر والتعزي عن أمّـــه، فـــيطرق طرقاً كثيرة ويكرر أنواع التعزي التي طرقها هو وغيره من

---

(١) ديوان ابن الرومي / ج٦/ ٢٣٠٨.
(٢) المصدر السابق / ج٦/ ٢٣٠٩.
(٣) نفسه / ج٦/ ٢٣١٢.

الشعراء في التعزي عن أهلهم وأحبتهم كحال الدهر وانقلابه وتغيّره، وسطوته، وجبروته التي لا يقدر أحد على مجابهته. قال:

ألا كم أذلَ الدهرُ من متعزِّز ... وكم زمَّن أنف حميّ وكم خَطم
وكم ساور العقبانَ في اللؤم صرْفُه ... وكم غاوصَ من الحيتانَ في زاخر الحُوَم
وكم ظلمَ الظلمانَ حق صَحاحِها ... ومثل خصيم الدهرِ أذعَن واظلم
وكم غلبت غلْبَ القبول هَناتُه ... ولم تقتبَسْ من قبل ذاك ولم تُرَم
وكم نَهش الحيّات في هضباتها ... وكم فَرس الأُسْدَ الخوَادرَ في الأَجم
وكم أدرك الوحش التي لجَّ نفْرُها ... يَغورُ لها طَوْرا ويطَّلعُ الأكم
وكم قعصَ الأبطالَ إمّا شجاعةً ... وإما بمقدارٍ إذا اضطرَّه اقتحم
وكم صالَ بالأملاكِ وسْطَ جنودِها ... وأخنى على أهل النبوّات والحِكم[1]

فالدهر ذو قوة جبّارة لا يستطيع أحد دفعها أو ردّها، فهو يذلّ الأقوياء حتى يذعنوا له، ويلاحق من يصعب اللحاق بهم إلى مخابئهم، فينازلهم، وتكون الغلبة له دائماً لا يترك في ذلك إنساناً أو حيواناً أو وحشاً، وليس هذا حسب، فهو لا يخلّد شخصاً مهماً بلغ من الحكمة والعظمة.

والدليل على ذلك أنّه ذهب بالأنبياء والعظماء، ولم يترك واحداً منهم، وإذا كان الأمر هكذا فلا عجب أن أذهب أمّه ورحّلها إلى عالم آخر، وليس عجباً أنه لم يستطع مجابهته، ولا الوقوف في وجهه.

ويؤكّد الشاعر أنَّ الدهر لا يبقى على حاله أبداً، وإنما هو متغيّر متقلّب. قال:

أرى الدهَر لا يبقَى على حَدثانه ... شعيب الأعالي جهوريّ إذا بَغم[2]

---

(١) ديوان ابن الرومي / ج٦/ ٢٣٠٣

(٢) المصدر السابق/ ج٦/ ٢٣٠٤.

لقد أعاد الشاعر كثيراً من أفكاره السابقة عن حال الدَّهر وتغيّره وقوّته وجبروته، وحال الأيام وضرورة عدم الركون إليها علّه يجد في ذلك كله تعزية عن أمّه وسلوى، إلّا أنَّ هذا لم ينفع كما يقول:

تمثَّلتُ أمثالي مُعيداً ومبدئاً ... فما اندملَ الجُرح الذي بي ولا التأم
وكم قارع سمعي بوعظ يُجيدُه ... ولكنّهُ في الماء يرقم ما رَقَم
إذا عاد ألفى القلبَ لَم يَقْنَ وَعْظَهُ ... وقد ظَنّهُ كالوحى في الحجرِ الأصم
وكيف بأن يَقْنى الفؤاد عظاته ... وقد ذاب حتى لو ترقرقَ لا نسجم
وهل راقم في صفحة الماء عائد ... ليقرأ ما قد خطَ إلا وقد طسم[1]

فالتعزي الداخلي الذي قام به عن طريق تأمّله حال الدَّهر والأيّام لم يفد في تخفيف آلامه وأحزانه على أمّه، وكذلك التعزي الخارجي[2] الذي كان من الآخرين عن طريق الوعظ لم يفده أيضاً، إذ إنَّ جرحه كان فوق كل عزاء، وقد خانه صبره عنها فلم يستطع التوقف عن البكاء، أو الصبر على الفراق، خاصةً أنّ قلبه أصبح كالحجر الأصم لا يعي وعظاً ولا تفيده عبر.

ثالثا - الأم في شعر المناسبات

نال الأمّ شيئاً من مديح الشعراء وخاصّة أُمهات الخلفاء والرؤساء، ولعلّ السيدة زبيدة أُمّ الخليفة الأمين، وزوجة الخليفة هارون الرشيد، كانت أكثر أمهات هذا العصر نصيباً من المدح.

والسبب في ذلك موقعها السابق من الخليفتين هارون الرشيد والأمين وكونها عربية هاشمية تتمتع بخلق وكرم وسيادة، إن هذا كلّه جعلها هدفاً لمدائح الشعراء. ومن هؤلاء نصيب الأصغر الذي قال فيها عندما حجّت:

---

(١) ديوان ابن الرومي / ج٦/٢٣٠٨.

(٢) انظر كتاب رثاء الأبناء في الشعر العربي/ د مخيمر صالح/ مكتبة المنار/ الزرقاء- الأردن/ ط١/ ٢١.

سيستبشر البيتُ الحرامُ وزمزمٌ ... بأمٍّ وليّ العهدِ زين المواسمِ
ويعلم من وافى المحصّب أنها ... ستحمل ثقل الغُرم عن كل غارمِ
بنو هاشم زينُ البرية كلّها ... وأمُّ وليٍّ العهد زينٌ لهاشمِ
سليلةُ أملاك تفرّعت الذرى ... كرامٍ لأبناء الملوك الأكارمِ
فوالله ما ندري: أفضل حديثها ... عليهم به تَسمو أم المُتقادم
يظنّ الذي أعطته منها رغيبةً ... يقصّ عليه الناسُ أحلامَ نائمِ[1]

فالشاعر يمدح أُمّ وليّ العهد الخليفة الأمين بما تمتدح به الشريفات من النساء ، وينوّه بكرمها ومساعدتها للآخرين، ثم يتوجه إلى قومها بني هاشم إذ يرى الشاعر فيهم كل صفة تمتدح، وكل فضل يذكر، فهم عنده زين البرية، وهي زينتهم بما تتمتع به من شرف وخلق، إنها سليلة هذا البيت الذي ما لبث يخرج الكرام والملوك واحداً تلو الآخر، وقد أنجبت شريفاً اكتسب خلق قومه، إنّ الشاعر يذكر طيب حديثها، وبلاغة كرمها، فعطاؤها كان ترجمة لأخلاقها الكريمة الموروثة.

ويقال إنّها أعطته فرساً بلا سرج، فقال في ذلك:

لقد سادت زُبيدةُ كلَّ حيٍّ ... ومِتْ ما خلا الملكَ الهُماما
تُقيّ وسماحة وخلوصُ مجد ... إذا الأنسابُ أخلصت الكراما
إذا نزلتْ منازلَها قريشٌ ... نزلتِ الأنفَ منها والسَّناما
بلغت من المفاخر كلَّ فخر ... وجاوزْتَ الكلامَ فلا كلاما
وأعطيتِ اللهى لكنَّ طرفي ... يريد السَّرجَ واللِّجاما[2]

وقال أبو نواس في مدح الأمين منوها بفضائل أُمّه التي ساهمت في رفعته، وأوجبت على الشعراء مدحه:

---

(١) الأغاني/ ج٢٣/ ١٤.

(٢) المصدر السابق/ ج ٢٣/ ١٤-١٥.

إنَّ الخلافَـــةَ لـــم تـــزل تـــزهو، وتفخـــر بالأميـــن
جـــاءت بـــه ابـــنةُ جعفـــرٍ قمـــراً جـــلاَ ظُلَـــمَ الدجـــون
مهديَّـــةٌ، خـــير النســـاءِ كـــذا ابـــنها خـــير البنيـــن
فـــاللهُ يبقـــيهِ، ويـــبـ قـــيها لـــنا حقـــب الســـنين[1]

ومن الشعراء من أشرك والد الأمين مع والدته في المدح فرأى أشجع السلمي أنّهما نبعة أضاءت الطريق للأُمّة. قال:

ملـــكُ أبُـــوه وأُمُّـــه مـــن نَـــبْعَة مـــنها سِـــراجُ الأُمَّـــة الوَهَّـــاجُ
شَـــرِبَتْ بمكـــة فـــي رُبـــا بَطْحائهاً مـــاءَ النُّـــبوَّة لـــيس فـــيهاَ مِـــزاجُ[2]

ومثله قول التيمي[3] في الأمين:

خلـــيفةُ الله خـــير منتخَـــب لخـــير أُم مـــن هاشـــم وأب
خلافـــة الله قـــد تَوارثهـــا آبـــاؤه فـــي ســـوالف الكتُـــب
فهـــي لـــه دونكـــم مورَّثـــة عـــن خـــاتم الأنبـــياء فـــي الحقـــب
يـــا بـــن الـــذرا مـــن الشـــرف الأ قـــدم أنـــتم دعـــائم العـــرب[4]

ويشارك الشاعر مروان بن أبي حفصة غيره في مدح زبيدة أُمّ الخليفة الأمين فيقول:

لله درُّك يـــا عَقـــيلَةَ جَعْفَـــرٍ مـــاذا ولَـــدْتِ مـــنَ العُـــلا والسُّـــؤْدد
إنَّ الخِلافَـــةَ قـــد تبيَّـــنَ نُورُهـــاً للنَّاظِريـــنَ علَـــى جَبِيـــنِ مُحَمَّـــدِ[5]

---

(١) ديوان أبي نواس/٤١١.

(٢) الأغاني/ ج١٨/ ٢٢٦، وطبقات الشعراء لابن المعتز/ تحقيق عبد الستار أحمد فرّاج/ دار المعارف المصرية/ القاهرة، ط٢ /١٩٦٨/٢٥١-٢٥٢.

(٣) التيمي: هو عبد الله بن أيوب من شعراء الدولة العباسية، أكثر شعره في وصف الخمرة.

(٤) المصدر السابق/ ج٢٠/ ٥٤.

(٥) شعر مروان بن أبي حفصة/ جمع وتحقيق د. حسين عطوان/ دار المعارف/ مصر/ ط٣/ ١٩٨٢/٤.

ومثلما كانت الأمّ هدفاً لمدائح الشعراء كانت عرضة لأهاجيهم وشتائمهم مثلها مثل الزوجة والأخت والابنة، على أنَّ نصيبها من هذا ربما كان أكبر، فإذا اختلف شاعر مع شاعر آخر أو مع غيره من الناس، فإنه يرشقهم بشتائمه، وقد يقذف المحصنات من نسائه، وسرعان ما يلحق الأمّ نصيبها من ذلك، وقد يقتصون منه ويقابلونه بالمثل، فينال أمّه ما نال أمّهاتهم، وقد ينبو بعضهم في هجائه نبوّا كبيرا، ويخرج عن حدود المعقول إذ قد يفحش إفحاشاً بالغاً، وقد تمثّل شتمهم للأمّ في الطعن في خلقها، ومنه قول ابن الرومي في أحدهم ويُدعى ابن الجنازة:

لما رأى أُمّهُ نُهبَى مقسّمةً ... يجري الهجاءُ بها في كل ميدانِ
أحرجتُهُ فهجاني غيرَ منتصرٍ ... لا سابقٌ من مجاراتي ولا ثانِ[1]

ومن الشعر الذي قيل في الهجاء بالأمّهات قول عبد الحميد اللاحقي في هجائه لأبي نواس:

أبو نواس بنُ هاني ... وأمُّه جُلُّبانِ
والناسُ أفطنُ شيءٍ ... إلى حروف المعاني
إن زدت بيتاً على ذي ... ما عشت فاقطع لساني[2]

أمّا التعزية بالأمّ فقد نالت قسطاً وافراً من اهتمام الشعراء خاصّة فيما يتعلق بأمّهات الخلفاء والرؤساء، إذ عزّى الشعراء بهن، فأبدوا الحزن عليهن، والبكاء لوعة لفقدهنَّ بالإضافة إلى تعداد مناقبهن، ومن هؤلاء البحتري الذي قال في رثاء أمّ الخليفة المتوكّل:

---

(١) ديوان ابن الرومي/ ج٦/ ٢٥٤٦.

(٢) طبقات الشعراء/ ٢٤١، وأخبار أبي نواس/ ٣٣-٣٤ مع اختلاف.

غُـروبُ دَمْـعٍ مِـنَ الأجفَانِ تَنْهَمِلُ ... وُحـرْقَةٌ بغَلِـيلِ الحُـزْنِ تَشْـتَعِلُ
ولـيْسَ يُطْفِـيءُ نَارَ الحُزْنِ إذْ وَقَدتْ ... عَلَـى الجَوَانِـحِ إلاّ الوَاكِـفُ الخَضِلُ
إنْ لـجّ حُـزْنٌ، فـلا بِدْعٌ ولا عَجَبٌ ... أو قَـلّ صَـبْرٌ، فـلا لَـوْمٌ ولا عَذَلُ
عَمْـري لَقَدْ فَدَحَ الخَطْبَ الذي طَرَقَتْ ... بـه اللّيالي، وَجَلّ الحادِثُ الجَلَـلُ[1]

وقـد حثّ الشاعر ابن الرومي عينيه على البكاء في تعزيته للمعتضد بأمّه؛ لأنّها قد تطفيء لهيب الحزن الذي جاء على قدر الخطب. قال:

عينـيَّ هـذا ربـيعُ الدمـعِ فاحتشِدا ... وأبليانـي بـلاءً غـير تعذيـرِ
خـصّ الإمـامَ وعـمَّ النـاس كلهمُ ... رزءٌ لَعمـر المـنايا غـير مجـبورِ
أُمّ الإمـام أُصـيبت وهـو شـاهِدها ... ولا مُجـير علـى صـرف المقاديـرِ
لقـد تجـاوز مقـدارٌ تخـرمها ... ظهـرا منـيعا وعِـزّا غير مقهور[2]

وقـد نـال شخص الأمّ قدراً لا بأس به من اهتمام الشاعر في قصيدة التعزية، وهذا خلاف ما رأيناه في قصيدة التعزية بالزوجة، ومن هذا الاهتمام ذكر مناقب الأمّ الراحلة. قال ابن الرومي في تعزيته للخليفة المعتضد:

نَعـاءِ أمّ أمـير المؤمنيـن إلـى ... بيـت بمكـة فالـبطحاء معمـور
نعـاء راعـيةَ المعـروف رعيـتَه ... لكـل عـان بـأرض الـروم مأسور
ولاخـتلال ثغـور طـال مـا حملتْ ... أبناءَهُـنّ علـى الجُـرْد المحاضـير
مواطـنُ الـبر أمسـتْ وهي موحشة ... مـنها وأنكـرن عهـد الأنس والنور
ليـبكها راغـبٌ كانـت ذريعـته ... حـتى تـبدل ميسـورا بمعسـور
وليـبكها راهـبٌ كانـت شـفيعته ... أمسـى يحـاذر ذنـبا غـير مغفـور
وليـبكها خـلال لا كِفـاء لهـا ... أجملـن مـن كـل خير كل تفسير[3]

---

(١) ديوان البحتري/ ج٣/١٨٨٧

(٢) ديوان ابن الرومي/ ج٣/ ١٠٣٥.

(٣) المصدر السابق/ ج٣/ ١٠٣٥.

ومـــن ذكر مناقب الأمّ الراحلة ما كان من ابن الرومي في تعزيته عبيد الله بـــن عـــبد الله في والدته التي كانت غاية في الخلق؛ لذا فإنّ موعدها الجَّنة كما قال:

مضت بعدما مُدَّت على الأرض برهةً ... لـــتُمجدَ مـــن فيهـــا مـــن الـــبركات
فـــإن تـــكُ طـــوبى راجعـــت أخواتها ... فقـــد زوِّدت مـــن طيـــب الـــثمرات
لَعمرك ما زُفّت إلى قعر حفـــــــرةٍ ... ولكـــنّها زُفّتْ إلى الغُرُفـــــــات[1]

وقـــال البحتري في رثاء أمّ الخليفة المتوكّل.. يذكر صفات لها مماثلة للصفات السابقة:

ســـيّدةُ الـــنّاسِ حقّـــاً بَعْـــدَ سَـــيِّدِهم ... وَمَـــنْ لهـــا المأثُـــرَاتُ السُّبَّقُ الأُوَلُ[2]

إنّ من الصفات والمناقب العظيمة التي يمتدح بها الرجال والنّساء على حـــد سواء السيادة ورفعة المكانة، وهذا ما كانت عليه أُمّ الخليفة الراحلة، فهي سيدة للنّاس بعد الخليفة بالإضافة إلى كونها صاحبة مآثر وفضائل عظيمة.

وليـــس تعداد المناقب، أو ذكر الفضائل هو وحده نصيب الأمّ الراحلة في قصيدة العزاء، بل أكثر الشعراء من الدعاء لها.

قال ابن الرومي في تعزيته لعبيد الله بن عبد الله بأمّه:

ســـقاها مـــع الدمـــع الـــذي بُكِيَتْ به ... حيـــا الغيـــثِ في الروحات والغدوات
وصلّى عليهـــا كلمـــا ذر شـــــارقٌ ... وحـــان غروبٌ، صاحبُ الصـــلواتِ[3]

فابن الرومي يدعو للأمّ الراحلة بالسقيا، ويأمل أنْ تكون الأمطار التي ستســـقي قـــبرها غزيـــرة كغزارة الدمع الذي نزفته عيناه عليها حتى تغمرها بالـــرحمة والغفـــران، ومثلما دعا الشعراء لقبر الأمّ بالسقيا وبالصّلاة الدائمة، دعوا لغيرها بالتحيَّة الطيّبة لعلّها في ذلك تكسب كل عفو وكل خير.

---

(١) ديوان ابن الرومي/ ج١/ ٣٧٧.

(٢) ديوان البحتري/ج٣/ ١٨٨٧.

(٣) ديوان ابن الرومي/ ج١/ ٣٧٧.

قال ابن الرومي في دعائه لأمّ المعتضد:

تحـــية الله أزكاهـــا وأطيـــبها علـى مَعَـارِفِ وجهٍ فيك منضورِ[1]

والدعـــاء لـــلأمّ في قصيدة العزاء هو تتمة لما تعوّده الشعراء خاصّة، والنّاس عامة من الدعاء للمتوفّى وطلب الرحمة والغفران لـــه سواء أكان ذلك عـــن طريق طلب السقيا لقبره أم في إلقاء السلام عليه، وطلب الرحمة لـــه. ولعلّ ذلك كلّه مواكب لطبيعة الحدث إذ لا ينفع مع الموت شيء سوى الدعاء للميت، وطلب الرحمة له.كان حزن الأبناء الفاقدين لأمهّاتهم كبيراً، مما أفقدهم الصبر وأعجزهم عن العزاء، فوجد الشعراء أنّ من واجبهم استخدام ما أمكنهم مـــن وسائل العزاء والحثّ على الصبر، كالتذكير بحال الدهر المتقلبة، وفناء الناس جميعاً. قال ابن الرومي يُعزي عبيد الله بن عبد الله عن أمّه:

عـــزاؤك أنّ الدهـــرَ ذو فَجعـــاتِ وكـــلُّ جمـــيع صـــائرٌ لشَـــتات
لـــك الخـــيرُ كـــم أبصرته وسمعته قرائـــن حـــيّ غـــيرَ مخـــتلجات
هـــلِ الـــناس إلا معشـــرٌ من سلالة تعـــود رفاتـــا ثـــم أيَّ رفـــات[2]!

ومـــن وسائل التعزية عند ابن الرومي التذكير بأحوال الناس من أهل المعزى وممن هم حوله. قال:

تعـــزَ بمـــوت الصِّيد من آل مُصْعب تجدَهُـــم أُســـى إن شـــئت أو قُدوات
تَعـــزَّوا وقـــد نابـــتهُمُ كـــلُّ نوبـــة ومـــاتوا فَعـــزّوا كـــل ذي حسرات
ومـــن سُنَنَ الله التي سنَّ في الورى إذا جالـــت الآراءُ مُعتـــبِرات
زوالُ أصـــول الـــناس قبل فروعهم وتلـــك وهـــذي غـــيرُ ذات ثـــبات
ليـــبقَى جديـــدٌ بعـــد بـــالٍ وكلُّهـــم سَـــيبلى علـــى الصّـــيفات والشَّتوات
وإن زالَ فـــرعٌ قـــبل أصـــلٍ فإنمـــا تعـــد مـــن الأحـــداث والفَلَـــتات
وتلـــك قضـــايا الله جـــلَّ ثـــناؤه وليســـت قضـــايا الله بـــالهَفوات[3]

---

(١) ديوان ابن الرومي/ ج٣/ ١٠٣٦.

(٢) المصدر السابق/ ج١/ ٣٧٤.

(٣) نفسه/ ج١/ ٣٧٥-٣٧٦.

وقد خلط بعضهم مدح المعزى بالدعاء لـــه. قال البحتري في تعزيته للخليفة المتوكل:

قُـــلْ للإِمـــامِ الَّـــذي آلاؤُهُ جُمَـــلٌ ... وبِشْـــرُهُ أَمَـــلٌ، وسُـــخْطُهُ وَجَـــلُ
لـــكَ الـــبقاءُ عَلَـــى الأَيَّـــامِ يَقْتَـــبِلُ ... والعُمْـــرُ يَمْـــتَدّ بالـــنُّعْمى ويتّصـــلُ
والـــنّاسُ كلّهُـــمُ فـــي كـــلِّ حادثَـــةٍ ... فـــدَاءُ نَعْلَـــكَ أَنْ يَغْـــتَالَكَ الـــزَّلَلُ
إِذا بقِيَـــتَ لِدِيـــنِ اللهِ تكـــلأُهُ ... فَكـــلّ رُزْءٍ صـــغِيرُ القـــدْرِ مُحْتَمَلُ[1]

وهكـــذا فـــإن شخصـــية المُعزّى هي البارزة في مثل هذا النوع من الشـــعر، ولعـــل بروز شخصية الأمّ أكثر من الزوجة فيه هو نابع من طبيعة مكانـــة الأم بالنسبة للمعزى حيث يمكن معها ذكر صفاتها، خاصّة وأنّها غالباً مـــا تكـــون في سنٍ يمكن معها الحديث عن صفاتها التي ظهرت واضحة في شخصية الأبناء.

ويضـــرب الشاعر مثلاً لمعزيه بالعظماء من آل مصعب الذين رحلوا عـــن الدنيا، والذين بقوا فيها، فصبروا وتعزوا عن السابقين منهم، ثم يوضّح الشّـــاعر بعـــض ســـنن الله في خلقه، ومنها زوال الأصول من الناس وبقاء الفـــروع وهـــذه السنة وإنْ كانت متغيّرة وغير ثابتة، فإنّ لله سبحانه وتعالى حكمـــة كبـــيرة فيها فكأنّه يُبقي الجدد من الناس، ويذهب بالأصول، وهؤلاء سيلحقون بسابقيهم، ويبقى الجديد من أبنائهم وهكذا. لقد تعوّد الناس على تقبل هـــذا الأمـــر الذي إن أصابه خلل فذهب الفرع قبل الأصل، جزعوا وأصيبوا بالهلع. إنّ هذا كلّه من حكم الله العظيمة يذكرها الشاعر حتى يقنع معزيه بأنّ وفاة أمّه أمر طبيعي ومقدّر ولا يعدّ فلتة أو حدثا غير طبيعي، وعليه أنْ يحمد الله إذ سارت الأمور هكذا، ولم يحدث العكس، فذهب الفرع قبل الأصل.

---

(١) ديوان البحتري/ج٣، ١٨٨٨.

ومن الشّعراء من طلب من معزيه أنْ يتعزى عن والدته بالرسول عليه السلام. قال البحتري:

عَزّيْتَ نَفْسَكَ عَنْهَا بالنَّبِيِّ، وما ... في الخُلْدِ بَعْدَ النَّبِيِّ المُصْطَفَى أَمَلُ
وكَيْفَ نَرْجُو خُلُوداً لم يُخصّ بهِ ... مِنْ قبْلِنَا أنْبِيَاءُ الله والرُّسُلُ[1]

لقد جمع الشعراء بين تقوى الله والصبر، إذ هو من موجبات الإيمان، ومن أخلاق المتقين؛ لذا فقد حثّ عليه الشعراء، وافترضوا في المعزّى تقبله إذ فيه حماية من شرور الدهر. قال البحتري في تعزية المتوكل عن والدته حاثّا إياه على الصبر:

صبراً وَمَعْرِفَةً بالله صادِقَةً ... والصَّبْرُ أجْمَلُ ثَوْبٍ حِينُ يُبتَذَلُ [2]

أمّا ابن الرومي، فقد جعل الصبر بمثابة لباس يلبسه المصاب، ويؤكد أنّه أجمل الثياب وأكثرها فائدة لصاحبه، وقد دعا معزيه إلى تجربته، وأرفق دعواه له بضرورة الإيمان بالله للارتباط الوثيق بينهما، وحتى يحقّق الشاعر الصبر والعزاء عند معزيه أنشده مديحاً صوّره فيه بصورة الرجل القوي الذي يستطيع تجاوز أصعب المصاعب، وأشدّ المصائب. قال ابن الرومي في معزيه:

أميري وأنت المرءُ ينجم رأيهُ ... فيسري به السارونَ في الظُّلمات
وتعصف ريح الخطب عند هُبوبها ... وأنت كرُكنِ الطَّود ذي الهَضبات
عليكَ بتقوى الله والصبر إنه ... معاذٌ و إنَّ الدهر ذو سَطوات
ولَيس حكيمُ القوم بالرجل الذي ... تكون الرزايا عنده نَقمات
فُجعَتَ فلا عادت إليك فجيعةٌ ... كما يُفجَع الأملاك بالملكات
أُصِبْتَ وكلٌ قد أصيبَ بنكبةٍ ... يُهاض بها الماضي من النكبات[3]

---

(١) ديوان البحتري / ج٣/١٨٨٨

(٢) المصدر السابق / ج٣/١٨٨٨.

(٣) ديوان ابن الرومي/ ج١/ ٣٧٤-٣٧٥.

وهكـــذا استخدم الشعراء وسائل متعددة ومتنوعة للتأثير على المعزّى في والدته المتوفاة محاولين تخفيف مصابه الذي بدا واضحاً وكبيراً عند كثير من الأبناء الخلفاء أو الوزراء كما هو عند غيرهم، ولعلّ في هذا إشارة مهمّة لمكانة الأمّ عند أبنائها وحزنهم وجزعهم لفقدها؛ مما جعل كثيراً من الشعراء يهرعون للتعزية بها.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الثالث

الأُبوّة والبُنوّة

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الأبوّة والبُنوّة

علاقة الأبوّة والبنوّة من العلاقات البارزة في شعر أُسرة العصر العباسي، فالشعر الذي يخصّهما جد كثير، بل لقد أخذ النصيب الأوفر من شعر العلاقات الأسرية، ولعل ذلك راجع إلى قوّة أواصر العلاقة بينهما بالإضافة إلى أنَّ الطرفين ذكور لا يرى الشاعر حرجاً من أن يتحدث حول أي منهما في عصر حجبت فيه المرأة، إذ كانوا يتحفظون في وصف العلاقة الأسرية التي تكون الأُنثى طرفاً فيها، ودليل ذلك أنَّ الشعر الذي يتحدث عن البنات كان نصيبه أقل بكثير من الشعر الذي يتحدث عن الأبناء في باب الأبوّة. ولقد ارتأيت أن أقوم بتقسيم هذا الشعر إلى ثلاثة أقسام لتسهيل دراسته، وهي:

شعر الأبوّة: ويشمل شعر الآباء في الأبناء، وشعر البنوّة: ويشمل شعر الأبناء في الآباء، ثم الأبوّة والبنوّة في شعر المناسبات.

أولاً - شعر الأبوّة

عاطفة الأبوة أو الرابطة التي تربط الأب بأبنائه لا تخفى أهميتها على أحد، إذ إنها قضية مُعاشة من الناس جميعا، فهم في ذلك إمّا أن يكونوا آباء، وإمّا أن يكونوا أبناء، وكثير منهم عاش الحالتين معاً، ولا شكّ أنَّ الرابطة التي تربط بينهما هي رابطة الحب والعطف في أغلب الأحيان، وقد تضعف هذه العاطفة في فترات، وقد تختفي للحظات قصيرة أو فترات طويلة، ولكنّها لا تنعدم مهما كانت المؤثرات والظروف الخارجية الضاغطة عليها، وهي إن ضعفت في بعض مظاهرها أو اختفت، فإنّ لها مظاهر أُخرى تظل باقية أبدا.

إنَّ حب الآباء لأبنائهم من الأُمور التي جُبل عليها بنو البشر، وهذا الحب يبدأ منذ قدوم المولود إلى الحياة، إن لم يكن قبل ذلك، إذ يحس الأب أنَّ ابنه جزء منه، وينمو هذا الحب بمرور الأيام، فيرى فيه الأب زينة الحياة وسبب بهجتها، ويستمر هذا الشعور والاهتمام بحكم اضطلاع الأب بواجباته

وتقديم كل ما يمكنه تقديمه إليه عن طيب خاطر. وهو كذلك يعقد عليه آمالاً كثيرة ترضيه هو أولاً فيشعر بالسرور تجاهها وهو يرى ابنه يسير نحو تحقيقها، فكأنّ نجاح ابنه في تحقيق ما يصبو إليه نجاح للأب الذي يرى أنه صنيعة من صنائعه، إضافة إلى رغبة الأب في رؤية ابنه سعيدا هانئاً في حياته، وعند اشتداد حاجة الأب إلى الابن نتيجة ظروف معينة كالمرض أو الشيخوخة يرى أنّ على الابن سداد ما قدم له، فينتظر منه أن يحوطه بالعناية والرعاية، ولكن لا ينتهي في أثناء ذلك دور الحب والاهتمام الذي بدأه، بل يستمر إلى نهاية حياته، ودليل ذلك أنّ الأب يترك كل شيء بعد موته للابن عن طيب خاطر، ويفخر بذلك، بل قد يحسّ بالألم الشديد لو أحسّ أنّ أحدا غير ولده سيرثه، وبالتالي تكتمل دورة حياة الأب كما أرادها له خالق البشر، وتبدأ بعد ذلك دورة حياة الابن كأب لأولاده، وهذه الدورة هي الدورة المتوقعة من الأب في حياته مع أبنائه، وهي بلا شك دورة مثالية إذا ما تمت بالتتابع السابق دون أي تقصير من الأب، ودون أي جحود أو نكران من الابن، ولكن الآباء لا يقومون جميعا بهذا الدور المثالي، وقد لا تكون الظروف مواتية لهم جميعا ليقوموا بأدوارهم بشكل جيد، ومن هنا فإنّ هذه الدورة قد تختل في بعض الأحوال لفترة من الزمن قد تطول تبعا للأسباب أو الظروف المحيطة. وإبّان تلك الدورة الحياتية للأب مع أبنائه تكون هناك مناسبات وظروف يظهر فيها الحب والود أكثر من غيرها، ولهذا الحب مظاهر أبرزها:

خوف الآباء وحرصهم على أبنائهم

الخوف أو الحرص على الأبناء مظهر من مظاهر حب الآباء لأبنائهم في مراحل حياتهم المختلفة فهم يحرصون عليهم من كل ما يمكن أن يؤذيهم أيّاً كان نوع الأذى ومقداره، وهو أيضا من أهم واجبات الأب نحو أبنائه، ويبدأ هذا الحرص منذ نعومة أظفار الابن فيحاول الأب وقايته من كل ما يمكن أن يؤذيه صحيّاً وعقلياً وخلقياً، من ذلك حرص الخليفة المهدي على

ولديـــه موسى الهادي وهارون الرشيد، وذلك بمنعه إبراهيم الموصلي المغني من الدخول عليهما[1].

فإحســـاس الخليفة المهدي بما قد يكون لإبراهيم الموصلي وهو على ما هـــو عـــليه من شرب وتبذل من تأثير سيء على ولديه أدى به إلى منعه من الدخول عليهما، ولم يكتفِ المهدي بطرد الموصلي، فحين بلغه أنه وابن جامع المغـــني يأتيان موسى ابنه، بعث إليهما فجيء بهما فضرب إبراهيم الموصلي ضـــربا مـــبرّحا، أما ابن جامع فتوسل إليه قائلا: ارحم أمي! فرق له واكتفى بطرده[2].

وقـــد لا يكتفي الأب بالحرص على ابنه في أثناء حياته، وإنما يمتد هذا الحرص بعد وفاته، وقد يفعل ذلك حتى لو كان فيه تضحية كبيرة منه، ومثال ذلـــك حـــرص البحتري على ابنه، من جلب العداوة والبغضاء له بسبب شعر الهجاء الذي قاله هو في حياته، فقد ذكر صاحب الأغاني:" أنّ ابن البحتري أبا الغـــوث كان قد عزا سبب قلة بضاعة أبيه في فن الهجاء إلى إتلافه لـــه قبل وفاته. قال: إنّه لمّا حضره- البحتري- الموت دعا ابنه، وقال لـــه: اجمع كل شيء قلته في الهجاء، ففعل فأمره بإحراقه، ثم قال: يا بني، هذا شيء قلته في وقت، فشفيت به غيظي وكافأت به قبيحا فعل بي، وقد انقضى أربي في ذلك، وإن بقـــي روي، وللـــناس أعقاب يورثونهم العداء والمودة، وأخشى أن يعود عليك من هذا شيء في نفسك أو معاشك لا فائدة لك ولا لي فيه...".[3]

ورغـــم إمكانيـــة صنع أبي الغوث لهذه الرواية لتسويغ قلة الهجاء عند أبيـــه إلا أنَّ هذه إشارة لما يكون من حرص الأب على ابنه بعد وفاته من كل مـــا يمكـــن أن يجـــلب لـــه الضرر سواء في شخصه أو في مصالحه المادية والاجتماعية.

---

(١) انظر تفاصيل ذلك في الأغاني/ج٥/١٦٠.

(٢) المصدر السابق/ ج ٦/٣٠٣.

(٣) نفسه/ ج ٢١/ ٣٧.

ومن أنواع الحرص الشائعة آنذاك توفير الحاجات المادية للأبناء أثناء حياة الأب وما بعدها. ومن هنا ضرب الآباء في الأرض لطلب الرزق وتوفيره لأبنائهم، ومن وسائل كسب الرزق التي كانت شائعة في هذا العصر طرق باب الخلفاء والأمراء وذوي المال والجاه، وكان الشاعر يُعاني من رحلاته هذه كثيراً، وكذلك أولاده من بعده. قال مطيع بن إياس مخاطباً ابنته التي بكت حين أراد الرحيل إلى هشام بن عمرو:

اسكُتي قد حَزَزْتِ بالدَّمع قلبي ... طالما حَزَّ دمعكنَّ القُلوبا
ودَعي أن تقطّعي الآن قلبي ... وتُريني في رِحلتي تعذيبا
فعسى الله أن يُدافعَ عني ... ريبَ ما تحذرين حتى أؤوبا
ليس شيءٌ يشاؤه ذو المعالي ... بعزيزٍ عليه فادعي المُجيبا
أنا في قبضةِ الإله إذا ما ... كنت بُعدا أو كنت منك قريبا[1]

إنَّ الأبيات تُبرز مدى الترابط بين الأب وابنته، فالابنة تبكي لفراق والدها وتخشى عليه مما يمكن أن يلاقيه في أثناء رحلته في حين أن الأب يتألم لبكائها لما لدموعها من تأثير معذب لنفسه، وهو يشير إلى أنَّ لدموع البنات خاصّة أثراً كبيراً، ولعله يُشير بذلك إلى النظرة المتعارف عليها بأنَّ البنت بحاجة إلى الشفقة والرحمة أكثر، ومن هنا فإنَّ الخوف عليها يكون أكثر من الخوف على الأولاد الذكور؛ لذا فإن الأب لا يريد منها أنْ تبكي في وداعها له حتى يستطيع أن يذهب في رحلته مطمئناً.

ومن الآباء من رأى أنَّ مكانه بقرب أولاده خاصّة الإناث منهم؛ لأنَّه يرى في رحيله عنهنَّ مشقة عليهن، وبالتالي فقد آثر البقاء إلى جانبهن، قال المعلّى الطائيّ:

---

(١) الأغاني/ ج١٣/ ٢٩٠.

لـــولا بُنـــيات كزُغْـــب القطَـــا ... حُطِطْـــن مـــن بعْـــضٍ إلـــى بَعـــضِ
لكـــان لـــي مُضـــطَرب واســـعٌ ... فـــي الأرض ذاتِ الطـــول والعَرْض
وإنمـــــا أولادُنَـــــا بَيْنـــــنا ... أكـــبادُنا تمشـــي علـــى الأرض
إن هبّـــت الـــريحُ علـــى بَعْضِـــهم ... لـــم تَشْـــبع العيـــنُ مـــن الغَمْـــض[1]

ومنهم من خصَّ الإناث من الأبناء بمزيد من الخوف والقلق بعد موته؛ لـــذا فقـــد تمنى لهن الموت حرصاً عليهنَّ كما هو الحال عند محمد بن يسير الرياشي:

لـــولا البُنَـــيَّةُ لـــم أَجْـــزَع من العَدَمِ ... ولـــم أَجُـــبْ فـــي الليالي حِنْدس الظُّلَمِ
وزادنـــي رغـــبةً في العيش معرفتي ... ذُلّ اليتـــيمة يجْفوهـــا ذوُو الرَحـــمِ
أَخشـــى فظاظـــة عـــمٍّ أو جفـــاء أخٍ ... وكنـــتُ أَخشـــى علـــيها من أَذى الكلمِ
إذا تذكّـــرتُ بنتـــي حيـــن تندبنـــي ... جَـــرَت لِعـــبْرة بنتـــي عَبرتي بـــدمِ
تهـــوى بَقائـــي وأهـــوى موتها شفقاً ... والمـــوتُ أكـــرم نَـــزالٍ على الحرم[2]

إنَّ شـــدّة خوف الأَب على ابنته وحرصه عليها جعله يتمنى أنْ تموت قبله. وهو وإن أحسن النية في أمنيته تلك- شفقةً عليها- كما يقول، إلا أنَّ ذلك يؤكِّـــد نظرة تقليدية للمرأة أكدّها بقوله: إنَّ الموت أفضل ما تُصان به الحرم، وهـــي نظرة بلا شك فيها أُصول جاهلية كانت - كما يبدو - ما تزال تتعمق نفوس بعض الناس في هذا العصر.

ومـــن الآبـــاء من يخرج في الصباح الباكر لكسب الرزق لأولاده حتى يخلصهم من براثن الفقر المدقع الذي يعيشونه. قال أبو فرعون الساسي:

---

(١) العقد/ ج٢/ ٤٣٨.

(٢) طبقات الشعراء/ ٢٨١.

وصـــبية مـــثل فـــراخ الـــذرّ ... ســـود الوجـــوه كســـواد القِـــدرِ
جـــاءَ الشـــتاءُ وَهُـــم بشـــر ... بغـــير قُمْـــصٍ وبغـــير أُزْرِ
حـــتى إذا لاح عمـــود الفجْـــرِ ... وجاءَنـــي الصـــبح غـــدوت أَســـري
وبعضـــهمْ ملتصـــقٌ بصـــدري ... وبعضـــهمْ مُـــنحجر بحجـــرِي
أَســـبِقُهم إلـــى أُصـــول الجُـــدْر ... هـــذا جمـــيع قصـــتي وأَمـــري
فـــارحم عيالـــي وتَـــولّ أَمـــري ... كَنيّـــتُ نفســـي كنْـــية فـــي شـــعري

(أَنا أَبو الفقر وأمّ الفقرِ)[1]

فالشـــاعر يصـــف نفسه وأولاده وقد لاح الصباح وحان وقت خروجه المـــبكر للعمـــل، فيرسم لوحة جميلة لأولاده المتعلقين به إذ يلتصق بعضهم بصـــدره، وبعضهم الآخر يجلس بثبات بحجره، وكأنّهم بهذا التعلق سيمنعونه مـــن الخروج ليبقى معهم، وسواء أكانت كثرة عياله أو شدة فقره صحيحة أم اخـــتلقها ليكسب عطف مستمعه، إلا أنه استطاع أن ينقل لنا صورة من صور الأبـــوّة المشرقة التي تحتمل كثيراً من التعب، واحتمال الفراق من أجل كسب الرزق للأبناء.

وقـــد يســـبق الابن أباه إلى دار البقاء، فلا يكتفي الأب حينها بالجزع والحـــزن والـــبكاء، بل يحرص على أنْ يقدّم كلّ مساعدة ممكنة لزوجة ابنه المـــتوفى وأولاده، فهـــو من جانب يوفر لهم الحياة الكريمة، ومن جانب آخر يحـــاول تعويضهم عما خسروه بوفاة راعيهم. إنّ محبة الأب لابنه، والحرص علـــيه تمتد بهذه الحالة لتشمل أهله جميعا، فقد روي عن الحسين بن الضحاك أنّـــه كان لـــه ابن يسمى محمدا لـــه أرزاق فمات فقطعت أرزاقه. فقال شعراً يخاطب المتوكل ويسأله أن يجعل أرزاق ابنه المتوفى لزوجته وأولاده:

---

(١) طبقات الشعراء / ٣٧٦.

إنـــي أتيـــتُكَ شـــافعاً ... بولـــيِّ عهـــد المســـلمينا
وشـــبيهك المعـــتز أو ... جـــه شـــافعٍ فـــي العالميـــنا
يابـــن الخَلائـــف الأوّلـــيـــ ... ـن ويـــا أبـــا المتأخريـــنا
إنّ ابـــنَ عـــبدك مـــات و ... الأيّـــامُ تخـــترِم القَريـــنا
ومضـــى وخلّـــف صـــبيةً ... بعراصـــه متلدّديـــنا
ومُهـــيْرةً عـــبرى خـــلا ... فَ أقـــارب مُسْـــتعبرينا
أصـــبحنَ فـــي ريـــب الحـــوا ... دث يُحســـنون بـــك الظـــنونا
قطـــع الـــوُلاةُ جـــرايةً ... كـــانوا بهـــا مستمســـكِينا
فامنُـــن بـــردّ جمـــيع مـــا ... قطعـــوه غـــيرَ مراقِبيـــنا
أعطـــاك أفضـــل مـــا تـــؤ ... مِّـــل أفضـــل المتفضّـــلينا[1]

فالشـــاعر يستشفع بأولاد الخليفة المتوكل ليحقق مطلبه، ولم يكن يفعل ذلك لولا علمه بمقدار الحب الذي يكنّه الأب لأبنائه، وبالتالي فإنه سيقيم وزناً لهـــذه الشـــفاعة، ويحقق له طلبه، وقد نجح الشاعر في ذلك إذ أمر الخليفة له بكـــل ما أراد. ومن الواضح أيضا أن التفكير في الابن وعقبه وأهله لم ينقطع بوفاته، وإنما ظلّ هَمّاً يشغل الأب ويدفعه للسعي من أجل البرّ به، وهذا جانب إنساني واجتماعي جسّده شعر الأبوّة بشكل جيد.

وقد أدى هنا الحرص عند الآباء إلى قلق بعضهم على مستقبل أبنائهم؛ فكان يرغب بالعمل من أجل تحقيق حياة فضلى لهم، ولم يكتفِ بالقول، وإنما كان يعمل جاهداً في كسب الرزق، وذلك لعلمه أنّ هذا مما يساعد على توفير حياة جيدة مستقرة. والقلق أكثر ما يكون عند الآباء في حالة إحساسهم بخطر ضياع الابن نتيجة لاتجاهه وجهة معينة يكون الأب غير مقتنع فيها، أو عندما يُصاب الابن في جسمه أو ما شابه ذلك من ظروف وأحوال. فمن الأول قلق والـــد محمـــد بن عبد الملك الزيات من اتجاه ابنه نحو الأدب والكتابة، فعقلية الوالـــد الاقتصادية (كان تاجر زيت) جعلته يخاف ألا تحقق مهنة الأدب لـــه كسباً ماديا يوفر لـــه حياة مريحة ومستقرة. ذكر الأخفش عن عمر بن محمد

---

(١) الأغاني/ ج٧/ ٢٢٣- ٢٢٤.

ابن عبد الملك الزيات أنه قال: "كان جدي موسراً من تجار الكرخ، وكان يريد من أبي أن يتعلّق بالتجارة ويتشاغل بها، فيمتنع من ذلك، ويلزم الأدب وطلبه، ويخالط الكتّاب، ويلازم الدواوين. فقال له ذات يوم: والله ما أرى ما أنت ملازمه ينفعك، وليضرّنك؛ لأنك تَدَع عاجل المنفعة، وما أنت فيه مكفيّ. ولك ولأبيك فيه مال وجاه، وتطلب الآجل الذي لا تدري كيف تكون فيه"[1]، ولم يمتنع عن حثّه هذا إلا عند أول مكسب حققه ابنه من الأدب، فكان مبلغ عشرة آلاف درهم كسبها من إحدى مدائحه، فتركه، ولم يمنعه بعد ذلك مما يريد.

وأما قلق الأب عند إصابة ابنه في جسمه، فقد كان أمراً يشغل بال الأب كثيرا في حياته، ويؤرقه الليالي الطوال محاولا إيجاد مخرج لما يعاني منه، فيساعده على الحياة الحرة الكريمة. ومن ذلك ما روي عن والد علي بن جبلة وكان أصغر أولاده فكان يرق عليه كثيرا، فذهبت إحدى عينيه في الجدري، ثم نشأ، فأسلم في الكتاب، فحذق بعض ما يحذق الصبيان، فحمل على دابة ونثر عليه اللوز، فوقعت على عينه الصحيحة لوزة فذهبت، فقال الشيخ لولده: أنتم لكم أرزاق من السلطان، فإن أعنتموني على هذا الصبي، وإلا صرفت بعض أرزاقكم إليه. فقالوا: وما تريد؟ قال: تختلفون به إلى مجالس الأدب.... [2].

هذا القلق الذي يعيشه الآباء على أبنائهم قد يكون سببا من أسباب الخوف من السفر والارتحال، وكذلك الخوف من الموت، إذ كثيرا ما كان الشعراء يعللون لعدم ارتحالهم من أجل العلم أو طلب الرزق بالخوف على أولادهم من بعدهم. وقد لا يخاف أحدهم الموت ولا يجزع له، ولكن حينما يتذكر أبناءه، وما قد يحلّ بهم بعد وفاته من حزن وضياع لعدم وجود من يرعاهم، أو ينفق عليهم، وكذلك لما قد يلاقونه من جفوة الأقارب خاصة، والناس عامة، فعند ذلك يجزع لذكر الموت ويتشبث بالحياة، فقد رُوي عن

---

(١) الأغاني/ ج٢٣/ ٤٦.

(٢) المصدر السابق/ ج٢٠ / ١٤.

تميم بن جميل أنَّه وقف بين يدي المعتصم، وعندما سمعه دعا بالنطع والسيف قال:

أرى الموتَ بين السّيف والنِّطع كامنًا ... يُلاحظني من حَيثما أتلفّت
وأكبر ظنّي أنك اليومَ قاتلي ... وأيُّ امرئ مما قَضى اللهُ يفلت
وَمن ذا الذي يُدلي بعذرٍ، وحُجَّة ... وسَيف المنايا بين عَيْنَيْه مُصلَت
يعزُّ على الأوس بن تَغلبَ موقفٌ ... يُسَلُّ عليَّ السيف فيه وأسكُت
وما جَزَعي مِنْ أن أموت وإنّني ... لأعلَم أنَّ الموتَ شيءٌ مُؤقَّت
ولكنّ خَلْفي صِبْيَةٌ قد تركتهم ... وأكبادهم من حسرة تتفتت
كأني أراهم حين أُنْعَى إليهمُ ... وقد خمشوا تلك الوجوهَ وصَوَّتوا
فإن عشتُ عاشوا خافضين بِغبْطة ... أذودُ الردَى عنهم وإن متُّ مُوتوا
فكم قائلٍ لا يبعد الله روحه ... وآخر جذلان يسرُّ ويشمت

فجزعه ليس من الموت نفسه كما يقول، وإنَّما من مصير أبنائه بعد أن يصلهم نعيه. إنَّه يتخيلهم في أسوأ حال. بل يرى حياتهم مرتبطة بحياته، وموته مرهوناً بموتهم.

ومن الشعراء الذين أكثروا في هذا المجال الشاعر يموت بن المزرّع الذي كان فيما يبدو كثير القلق والخوف على أبنائه. قال:

مهلهل أحشائي عليك تقطع ... وأقرع أجفاني أخوك مزرع
إلى الله أشكو ما تجنّ جوانحي ... وما فيكما من غصّة أتجرع
فلولاكما إن سلكت تنائفا ... ولولاكما قد كان في القوم مقنع
فإن ذرفت عيناي وجدا عليكما ... ففي دون ما ألقاه مبكى ومجزع
أخاف حماماً يا مهلهل باعثا ... وطير المنايا حائمات ووقع[1]

إنَّ الشاعر يخشى على ابنيه من الموت وتركهما وحيدين؛ لذا فهو قلق وقد غادر النوم أجفانه، وقد قال في قصيدة أخرى مخاطباً ابنه:

---

(١) معجم الشعراء / أبو عبد الله محمد المرزباني/ تصحيح وتعليق د. ف كرنكو/ دار الكتب العلمية/ ١٩٨٢/ ٥١٠.

وَقَـدْ أَسْـهَرْتُ عَيْنِـي بَعْدَ غَمْضٍ مَخَافَـةَ أَنْ تَضِـيعَ إِذَا فَنِيـتُ
وَفِـي لُطْـفِ المُهَيْمِـنِ لِـي عَزَاءٌ بِمْـثلِكَ إِنْ فَنِيـتُ وإِنْ بَقِيَـتُ[1]

إنَّ مثل هذه المشاعر تطرق عقول الآباء كثيراً؛ لذا فإنَّ بعضهم يكون دائم القلق والتفكير في أمر الموت لا جزعاً منه، ولكن لما قد يلحق الأبناء من بعده، ولما يجدونه من حزن عليه، ووجد لفراقه؛ لذا فهو يعمل بجد ويدخر ما يمكنه ادخاره، وقد يجعله هذا يعمل فوق طاقته، ويجوب في الأرض الواسعة لأجل توفير حياة أفضل لهم.

النصح والإرشاد

وحـتى تـتحقق الغاية التي أرادها الآباء من حرصهم وخوفهم على أبـنائهم وهـي توفـير الحـياة الآمـنة لهم رأى كثير من الآباء أن نصحهم وإرشـادهم لأبـنائهم جزء من واجب تربيتهم لهم، فهم يرون أن كونهم أكبر سـناً، وأكثر خبرة يجعلهم أكثر معرفةً بما يحتاج الأبناء إليه، وبما يجب أن يكونـوا عليه، ويرى آخرون أن عملية النصح والإرشاد هذه ما هي إلا تعبير عن محبتهم لأبنائهم وحرصهم عليهم دون أن يكون لرغباتهم الشخصية يد في ذلـك، ومـن هنا فإنَّ ردة فعل الأبناء تجاه نصائح آبائهم تختلف حيث يتقبل بعضـهم هذه النصائح، ويرفضها بعضهم الآخر بينما قد يقف آخرون موقفاً معـتدلاً يقـبل بعضها، ويرفض بعضها الآخر. وقد تنوعت مجالات النصح والإرشـاد ولعـلّ من أهمها: الحثّ على العلم والرحيل في سبيله، ومجالسة العلماء والجلوس إليهم. قال يموت بن المزرّع موصيا ابنه:

وإِنْ يَشـتدّ عَظْمُـكَ بَعْـدَ مَوْتِـي فَـلاَ تَقْطَعـكَ جَائحَـةٌ سَـبُوتُ
فَجُـبْ فِـي الأَرْضِ وَابْغِ بِهَا عُلُوماً وَلاَ تَلْفـتَكَ عَـنْ هَـذَا الدُّسُـوتُ
وإِنْ بَخِـلَ الْعَلِـيمُ عَلَـيْكَ يَوْمـاً فَـذِلَّ لَـهُ وَدَيْدَنـكَ السُّـكُوتُ[2]

---

(١) معجم الأدباء ج٢٠/٥٨.

(٢) المصدر السابق / ج٢٠/٥٨

ويطلب إليه السير على النهج نفسه الذي سار عليه هو من قبل. فيقول:

وَقُلْ بالْعِلْمِ كَانَ أَبِي جَوَاداً ... يُقَالُ فَمَنْ أَبُوكَ فَقُلْ يَمُوتُ؟
تَقِرَّ لَكَ الأَبَاعِدُ والأَدَانِي ... بِعِلْمٍ لَيْسَ يَجْحَدُهُ الْبَهُوتُ[1]

ويبدو أنَّ الحثّ على العلم كان من أهم اهتمامات آباء هذا العصر. قال مساور الوراق ناصحاً ابنه:

شَمِّر قميصَك واستَعِدّ لقائلٍ ... واحكُك جبينَكَ للقَضَاءِ بِثُومِ
واجعَل صِحابَك كلّ حبرٍ ناسكٍ ... حسن التعهُّد للصَّلاة صَؤُوم
من ضَربِ حمادٍ هناك ومسعرٍ ... وسِمَاكِ العبسيّ، وابن حَكيم
وعليك بالغَنَويّ فاجلس عنده ... حتى تَصيب وديعة ليتيم[2]

فالشاعر يوجه ابنه نحو القضاء لقيمة هذا العلم، ومن ثمَّ يوضح له ما يحتاج إليه هذا العلم من عمل واستعداد إذ عليه أن يتعلم العلوم التي تفيده في مجال القول والمناقشة، كما عليه أن يقوم بواجباته الدينية، ويعاشر من هم كذلك من العلماء والأصدقاء حتى يبدو متديناً، ويقنع الناس بورعه وتقواه مما يشجعهم على التقاضي عنده.

ولا غرابة في اهتمام الآباء بالعلم وحثّ أبنائهم على النهل منه في عصر ازدهر فيه العلم ازدهاراً كبيراً، وانتشرت فيه العلوم العقلية والأدبية والنقلية، وقد أنجز الخلفاء مهمة كبيرة وأساسية في تشجيع العلم والتعليم، فإضافة لكونهم هم أنفسهم علماء كالخليفة هارون الرشيد وكذلك المأمون وغيرهما، فقد شجعوا العلماء بمكافأتهم مكافأة جزيلة، ويجد القارىء في كتب الأخبار والتاريخ أمثلة كثيرة على إغداق الخلفاء والوزراء المال على العلماء والشعراء، ولعل هذا التشجيع من قبل أصحاب الأمر دفع الناس إلى تعليم

---

(١) معجم الأدباء/ ج٢٠/٥٨. البهوت: جمع، والبهيته: الباطل الذي يتحيّر من بطلانه، والكذب.
(٢) البيان والتبيين/ ج٣/ ١٧٥- ١٧٦.

أبـــنائهم وإرســـالهم إلى الكتاتيب وغيرها من دور العلم المتوافرة آنذاك، وقد اهـــتم الخلفاء اهتماماً كبيراً بتعليم أبنائهم وتثقيفهم الثقافة التي تليق بهم كولاة للعهـــد أو كأمـــراء مـــن بيت الخلافة، ولعلّ من أكثرهم اهتماماً بتعليم أبنائه وتثقـــيفهم هـــو الخلـــيفة هارون الرشيد، فقد ألحق بهم العلماء لتعليمهم اللغة والأدب وغـــيرهما من فنون العلم، ولم يكتفِ بذلك، بل كان يصدر توجيهاته لهـــم ولأســـاتذتهم بين الحين والآخر. فقد ذكر الأحمر النحوي أنّ الرشيد قال لـــــه عندما اختاره مؤدباً لابنه الأمين: " يا أحمر، إنّ أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه وثمرة قلبه؛ فصيّر يدك عليه مبسوطة وطاعتك عليه واجبة، فكـــن لـــــه بحيث وضعك أمير المؤمنين. أقرئه القرآن، وعرّفه الآثار وَروِّه الأشـــعار وعلمه السنن، وبصَّره مواقع الكلام، وبدْأه، وامنعه الضحك إلا في أوقاته، وخذْه بتعظيم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا عليه، ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه، ولا تمرنّ بك ساعة إلا وأنت مغتنم فيها فائدة تفيده إياها من غـــير أن تخـــرق بـــه فتميت ذهنه، ولا تمعن في مسامحته، فيستحلي الفراغ ويألفـــه، وقوّمـــهُ مـــا اســـتطعت بالقرب والملاينة: فإن أَبَاهُمَا فعليك بالشدة والغلظة"[1].

وقـــد كـــان بعض الآباء يجلسون إلى أبنائهم ويناقشونهم في القضايا الـــنَّحوية والأدبـــية. ذكر المفضل الضبي أنّ الرشيد طلبه، وعندما صار إليه وجده متكئاً ومحمد بن زبيدة عن يساره والمأمون عن يمينه فسلَّم وجلس، فقال لـــه الرشـــيد: "يـــا مفضـــل قلـــت: لبيك يا أمير المؤمنين. قال: كم اسماً في (فسيكفيكهم) قال المفضل ثلاثة أسماء يا أمير المؤمنين. قال: وما هي؟ قلت: الكـــاف لرســـول الله صلى الله عليه وسلم، والهاء والميم وهي للكفار، والياء وهـــي لله عز وجل. قال: صدقت، هكذا أفادني الكسائي، ثم التفت إلى محمد فقـــال لـــــه: أفهمـــت يـــا محمد. قال: نعم. قال: أعد عليّ المسألة كما قال المفضل، فأعادها....[2]

---

(١) مروج الذهب/ ج٤/ ٢١٢.

(٢) تاريخ الأمم والملوك/ ج٨/ ٣٦١.

وقــد يطلب الخليفة الأب إلى علماء اللغة والأدب مناقشة أبنائه؛ ليرى ما وصلوا إليه من علم فقد روي عن الكسائي أنه قال: دخلت على الرشيد فلما قضيت حقّ التسليم والدعاء وثبت للقيام، فقال: اقعد. فلم أزل عنده حتى خفّ عامة من كان في مجلسه، ولم يبق إلا خاصته، فقال لي: يا علي ألا تحب أن تــرى محمــداً وعبد الله؟ قلت: ما أشوقني إليهما يا أميرٌ المؤمنين، وأسرني بمعايــنة نعم الله عز وجل على أمير المؤمنين فيهما، فأمر بإحضارهما.. ثم أمرنـــي أن أستقرئهما وأسألهما، ففعلت ذلك، فما سألتهما عن شيء إلا أحسنا الجــواب فيه والخروج منه، فسرّ بذلك الرشيد حتى تبينته فيه، ثم قال لي: يا علــي، كــيف ترى مذهبهما وجوابهما؟ فقلت يا أمير المؤمنين، هما كما قال الشاعر:

أرى قمــري مجــد وفرعــيْ خلافةٍ يزيــنّهما عــرق كــريمٌ ومحــتد[1]

وقد كان الخليفة هارون الرشيد يهتم بضمِّ من يتوافر فيه حسن المعرفة والأدب إلى أولاده، فقد وصف لــه يحيى بن خالد الفضل بن سهل وهو غلام على المجوسية، وذكر أدبه وحسن معرفته، فعمل على ضمّه للمأمون[2].

وقــد امــتدَّ حرص الخليفة في اختيارِ الأُستاذ الجيد إلى مراعاة شكله الخارجي فلم يكتفِ بحسن علمه ومعرفته، وإنما رأى ضرورة أن يكون شكله مقبولاً محبباً للنفس، ولعلهم في ذلك قد سبقوا علم النفس الحديث الذي يوصي بضــرورة أن يكون المعلم على درجة من حسن المظهر والأناقة والترتيب، خاصــة معلــم الأطفال لما لــه من أثرٍ على نفسية الطفل وترغيبه في العلم والتعلم، فقد روي عن الجاحظ أنَّه قال: ذُكرت لأمير المؤمنين المتوكل لتأديب بعــض ولــده، فلمــا رآنـــي استبشع منظري، فأمر لي بعشرة آلاف درهم وصرفني.[3]

---

(١) مروج الذهب/ ج٤/ ٢١٠- ٢١١.

(٢) المحاسن والأضداد/ ١٦.

(٣) مروج الذهب/ ج٥/ ١٧.

ولـــم يكن حب العلم والحث عليه عند الخاصة فقط، بل هو كذلك عند العامة، فقد ذكر أنّ والد حماد عجرد وجهه إلى الدرس والتعلم مبكّرا. وكذلك والد سعيد بن حميد فقد اهتمَّ بإرساله إلى مجالس العلم.(١)

لم يكن التعليم مقتصراً على الأولاد الذكور منهم، فقد أخذت البنت عند الطـــبقة العلـــيا في المجتمع نصيباً لا بأس به، أمَّا العامة، فقلما كانوا يهتمون بتعلـــيمها، وإذا فعلـــوا فـــإنهم يرسلونها إلى الكُتّاب مع الصبيان لتَتَعلم قراءة القرآن الكريم وبعض مبادىء القراءة الأخرى والكتابة، فقد روي عن علي بن الجهم أنّه التقى بفتاة كانت معه في الكتّاب أعجبته وقال فيها شعرا(٢).

ومـــن النصـــح والإرشاد ما يكون في مجال السياسة إذ إنَّ من عادة الخلفـــاء نصح أولياء العهد من أبناء وإخوان، ولعل من أروع ما وقعت عليه من ذلك قول المنصور ينصح ابنه المهدي وقد كان شديد الشغف به، فكان إذا صـــادر مـــال أحـــد، وضع ذلك المال وحده في بيت المال وكتب عليه اسم صـــاحبه، فلما مرض مرض الوفاة قال لابنه المهدي: يا بُنَيَّ، إنّي قد أفردت كـــل شيء أخذته من الناس على وجه المصادرة، وكتبت عليه أسماء أصحابه فـــإذا وليت أنت فأعده إلى أربابه ليدعو لك الناس ويحبوك(٣). فقد حمّل نفسه وزر ذلك العمل حيًّا وميتاً من أجل أن يجعل ابنه صاحب فضل يحمده الناس، ويحبونه.

وقـــد يكـــون النصح كذلك في مجال الرعاية الصحيّة للابن إذ كانت الصحة الجسدية والنفسية من اهتمامات الآباء الأساسية، فهم يرغبون في بقاء أجساد أبنائهم صحيحة قوية وقد كان هذا الأمر مجال فخر لهم. فقد روي عن

---

(١) الأغاني/ ج ١٨/ ١٥٥.

(٢) ديوان علي بن الجهم/ المقدمة/ ٧.

(٣) الكامل في التاريخ/ ابن الأثير الجوزي/ المطبعة الأزهرية القاهرة/ ط١/ ١٣٠١هـ/ ج٦/ ١٣.

أبـــان بن عبد الحميد أنَّ والده نصحه للخروج إلى البساتين لعله يسلو الشرب بعد ما رأى منه تهالكا عليه[1].

ومـــن النصح والإرشاد ما يكون في مجال اختيار الأَصدقاء، فقد تَنَبّه الآبـــاء آنذاك إلى أهمية الصديق، وما يكون لـــه من أثر على الابن. قال ابن كناسة ينصح ابنه في اختيار الصديق:

يُنبـــيك عـــن عيـــب الفـــتى تـــركُ الصـــلاة أو الخديـــنُ
فـــإذا تهـــاون بالصّـــلا ةِ فمـــا لـــه فـــي الـــناس ديـــنُ
ويُـــزَنُّ ذو الحـــدث المـــريـ ـبِ بمـــا يُـــزَنُّ بـــه القريـــن

إنَّ العفـــيفَ إذا تكـــنَّفه المريـــب هـــو الظنيـــنُ[2]

فـــالأب يذكـــر الشروط التي يجب أن تتوافر في الصديق حتى يوثق بصداقته ألا وهي حسن التدين، والقيام بواجباته الدينية، ويخصّ الصلاة منها بالاهـــتمام الأكبر إذ إنه يرى أنَّ تارك الصلاة لا دين له، ولعله هنا يُشير إلى قوله عليه الصلاة والسلام " رأس الأمر وعموده الصلاة"[3].

ولـــيس كـــل النصح على هذا المستوى الأخلاقي الذي يؤدي إلى خير الابـــن وصـــالحه، فقـــد وجد من الآباء الشعراء من نصح ابنته بما هو غير أخلاقي. قال أبو دلامة موصيا ابنته:

ســـبّي الحَمـــاة وابْهتـــي علـــيها وإن أبـــت فازدلفـــي إلـــيها
ثـــم اقرعـــي بـــالعُود مِرْفَقـــيها وجَـــددّي الخلـــف بـــه علـــيها[4]

---

(١) العصر العباسي الأول/ د. شوقي ضيف / دار المعارف/ ط٢/مصر/١٩٦٦/ ٦٨-٦٩.
(٢) الأغاني/ ج١٣ / ٣٤٣.
(٣) مسند الإمام أحمد/ ج٥/ ٢٣١.
(٤) العقد/ ج١/ ٣١٨.

وليست الحماة وحدها هي التي يوصي أبو دلامة ابنته بها شرا، بل بقية الجماعة التي ستساكن في موقعها الجديد بعد الزواج. قال:

أوصيت من بَرّة قلبا برّا ... بالكلب خَيراً والحماة شَرّا
لا تسأمي خنقا لها وجرّا ... والحيّ عُميّهم بشرّ طرّا
وإن كسَوكِ ذَهباً وُدرًّا ... حتى يَرَوا حلو الحياة مُرّا[1]

ولا أدري ما الذي دفع أبا دلامة إلى هذا النصح، فهو ينصح ابنته عكس ما يفعل الآباء عادة، وما يجب أن يفعلوا في مثل هذا الموقف تماما، فمن المتعارف عليه أن الآباء يوصون بناتهم خيرا بأقارب أزواجهن، كما يوصونهنّ بضرورة التمسك بالخلق الطيب والمعاملة الحسنة.

ولكن قد تكون هذه نادرة من نوادر أبي دلامة وجزءاً من ظرفه الذي عُرف عنه، وإن كان غير ذلك، فهو يصوّر بعضا من أفراد المجتمع من الآباء غير المسؤولين في تربية أبنائهم ونصحهم وإرشادهم، كما أنّ الأبيات تصوّر جانباً من جوانب الأسرة ومشكلاتها في العصر العباسي، وهو العداء التقليدي الذي يمكن أن يكون بين الحماة وزوجة الابن.

الشوق والحنين

ومن علامات الود والحب عند الأب الشوق والحنين لأبنائه، وأحلاه ما كان من الأب لأبنائه الصغار، وقد أكثر بعض الشعراء في شعرهم من الشوق والحنين إلى أبنائهم، ومنهم إسحاق بن إبراهيم الموصلي إذ قال: خرجت في رحلة مع الواثق إلى النجف وانحدرت إلى الصالحية فذكرت الصبيان وبغداد، فقلت:

---

(١) العقد/ ج١/ ٣١٩.

أتبكـــي علـــى بغـــدادَ وهـــي قريبةٌ ... فكـــيف إذا ما ازددتَ منها غدا بُعْدا
لعمـــرُك مـــا فارقتُ بغداد عن قلىً ... لـــو أنـــا وجدنـــا عـــن فراق لها بُدّا
إذا ذكـــرت بغـــدادَ نفســـي تقطّعَت ... من الشوق أو كادت تموت بها وجدا
كفـــى حـــزنا إن رُحتُ لم أستطع لها ... وداعـــا ولـــم أُحدِثْ بساكنها عهدا[1]

فالشاعر يبدو في حالات جادة من الشوق والحنين لأهله الذين يسكنون مديـــنة بغداد، فهو عندما اقترب منها أحسَّ برغبة بالبكاء وجداً وحنينا لأهله فيها. وتتمة الرواية السابقة أنّ الواثق سأله: يا موصلي أشتقت إلى بغداد؟ فرد عليه: لا والله يا أمير المؤمنين، ولكن من أجل الصبيان، وقد حضرني بيتان، فقال: هاتهما، فأنشد:

حننـــتَ إلـــى الأُصـــيبيةِ الصِّـــغار ... وشـــاقك مـــنهمُ قـــربُ المَـــزار
وأبْـــرحُ مـــا يكـــون الشـــوقُ يومًا ... إذا دَنَـــتِ الدّيـــارُ مـــن الديـــارِ[2]

فالشـــوق والحنيـــن يكـــون عـــادة إلى الصغار من الأولاد لما لعلاقة الصغير بأبيه من طبيعة خاصة تثير اشتياقه إليه إن ابتعد عنه.

ولـــيس قرب الشاعر من دياره وأهله هو وحده الذي كان يثير حنينه إلى أبنائه، فإنّ لصوت الحمام أيضاً دوراً في إثارة هذا الشعور. قال عوف بن محلم:

وأرقنـــي بالليـــل صـــوت حمامـــة ... فنحـــتُ وذو الشـــوق القديـــم يـــنُوحُ
علـــى أنهـــا ناحـــت ولم تذر دمعة ... ونحـــت وأســـراب الدمـــوع ســـفوحُ
وناحـــت وفـــرخاها بحيـــث تراهما ... ومـــن دون أفراخـــي مَهَامِـــه فيحُ[3]

---

(١) الأغاني/ ج٥/ ٣٥٧.

(٢) المصدر السابق / ج٥/ ٣٥٨.

(٣) بدائـــع الـــبدائة/ علـــي بن ظافر الأزدي/ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم/ مكتبة الأنجلو المصرية/ القاهرة / ١٩٧٠/.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رثاء الأبناء

ومن مظاهر حبّ الآباء لأبنائهم الحزن عليهم والجزع لفقدهم، فالفجيعة بالأبناء من أكثر القضايا بروزاً في شعر الأبوّة، وأعظمها تأثيراً في نفوس قارئيها، ولا غرابة في ذلك، فالفجيعة بالابن من أشد لحظات الحياة قسوة وألماً، ومن أكثر التجارب الإنسانية خصباً في الأعمال الفنية، إذ إنّ المعاناة التي يعانيها المفجوع بابنه كبيرة بلا شك، وبالتالي فإنّ الشعر المنظوم فيها سيكون غزيراً ومتدفقاً في الكم وفي التركيز العاطفي، فالشاعر حينما يفجع بابنه يرثيه رثاءً حاراً يسكب من خلاله دموعه وآلامه لفقد فلذة كبده ويؤبّنه تأبيناً عظيماً يذكر فيه مناقبه الحميدة سواء أكانت موجودة أم مأمولة.

وقد أكثر الشعراء في هذا العصر من رثاء أبنائهم، فقد نشط الرثاء في هذا العصر نشاطاً واسعاً، فلم يمت خليفة ولا وزير، ولا قائد إلا وأبّنوه[1]، فإذا كان الرثاء الرسمي قد شاع مثل هذا الشيوع، فإنّه من باب أولى أن يرثي الشعراء أهليهم وأبناءهم ممن فقدوهم، وهم إليهم أقرب، وعليهم أشفق.

ويلاحظ في رثاء الآباء لأبنائهم أنّ ثمة تشابهاً كبيراً في معالجة الموضوع إلا أنّه توجد بعض الأمور التي يفترق عندها الشعراء بعضهم عن بعض، فيتميز كل واحد منهم بأشياء تخصّه دون غيره، وسأعرض لهذا كلّه فيما يأتي.

كان الدارسون قديماً وحديثاً يعرّفون الرثاء بأنّه حزن وبكاء وتوجع، ومن هنا فقد كان حزن الشاعر الفاقد لفلذة كبده حزناً عظيماً، وبكاؤه بكاءً غزيراً، وتوجعه عليه توجعاً كبيراً، وقد أسهب الشعراء في وصف أحزانهم تلك إسهاباً واسعاً. والحزن على الأبناء ليس ميزة لشعراء هذا العصر ذلك أنّ الحزن لفقد الأولاد هو قضية إنسانية عامة يشترك فيها جميع البشر، وقد حزن

---

(١) الأدب في ظل الخلافة العباسية/ د. علي جميل مهنا/ مراكش- المغرب/ مطبعة النجاح الحديثة/ ١٩٨١/ ١٣٨.

الشعراء الجاهليون والإسلاميون والأمويون من قبل لفقد أبنائهم، ورثوهم رثاءً حاراً، ولعلَّ من أشهرهم أبا ذؤيب الهذلي الذي فقد عدداً من أولاده.[١]

وقد تابع الشعراء الإسلاميون سابقيهم الجاهليين في بكائهم لأبنائهم وقد وجدوا في حزن الرسول عليه الصلاة والسلام لوفاة ابنه إبراهيم قدوةً لهم في أحزانهم وبكائهم[٢]، واستمروا على ذلك في العصر العباسي،[٣] إذ بكى شعراء هذا العصر أبناءهم بكاءً حاراً وحزنوا عليهم حزناً شديداً، وقد وصف العتبي الحزن على الولد بقوله:

ما عالج الحزن والحرارة في الأ حشاء من لم يمت له ولد[٤]

من الذين جزعوا لموت أبنائهم الخليفة المهدي، فقد ذكر الطبري في كتابه أخبار الأمم والملوك أنّه كان للمهدي ابنة اسمها البانوقة حسنة القد حلوة ماتت ببغداد، فأظهر عليها المهدي جزعاً لم يُسمع بمثله، فجلس للناس يعزونه، وأمر ألا يحجب عنه أحد، فأكثر الناس في التعازي واجتهدوا في البلاغة".[٥] والحزن أقل ما يمكن أنْ يفعله الأب إذ إنَّ مثل هذا المصاب يفطر القلب همّاً وحزناً، ولعل هذا هو الذي دفع المهدي لتقبل التعازي في ابنته " إذ لم تكن العرب تعزي في المرأة إلا أن تكون أمّا.[٦]

---

(١) شرح أشعار الهذليين/ أبو سعيد السكري/ تحقيق عبدالستار أحمد فراج / مراجعة محمود شاكر/ دار العروبة/ القاهرة/١٩٦٥ /ج ١/ ٤ وما بعدها.

(٢) ورد عن الرسول عليه الصلاة والسلام أنه دخل على ابنه إبراهيم وهو يجود بنفسه، فجعلت عينا رسول الله عليه الصلاة والسلام تذرفان فقال له عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: وأنت يا رسول الله؟ فقال يابن عوف إنها رحمة، ثم أتبعها بأخرى، فقال صلى الله عليه وسلم: إنَّ العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون. " صحيح البخاري"/ الإمام أبو عبدالله محمد بن إسماعيل بن المغيرة/ مطبعة دار الفكر/ ١٩٨١/ ج٢/ ٨٥.

(٣) ا نظر في ذلك كتاب الدكتور مخيمر صالح/ رثاء الأبناء/ ص٨١. وما بعدها.

(٤) الكامل في الأدب / ج٤/ ٢٥.

(٥) تاريخ الأمم والملوك/ ج٨/ ١٨٦.

(٦) العقد/ ج٣/ ٣١٠.

فالحزن من الأمور البارزة، بل هو الأمر البارز في شعر الرثاء عامة، ورثاء الأبناء خاصة، وقد أكثر الشعراء من وصف هذا الحزن وأبدعوا في ذلك إبداعاً أثَّر في قارئيهم فجعلوهم يتعاطفون معهم إذ أحسوا بعمق المصاب الذي أصابهم.

ومن الذين أسهبوا في وصف أحزانهم لفقد الولد ابن الرومي إذ فقد ثلاثة من الأولاد، وقد قال في رثاء ابنه هبة الله:

أبنيَّ إن أحزنْ عليك فلي ... في أن فقدتُك ساعة حزن
وإن افتقدت الحزن مفتقداً ... لُبيّ لفقدك للحرى القَمن
بل لا إخال شجاك تَعدَمُه ... روحٌ ألمَّ بها ولا بَدن[1]

وقد يخلط الشاعر وصف أحزانه بالتحسر والتفجع تعبيراً منه عن عمق مصابه، وشدة خسارته بابنه، قال القاسم بن يوسف في رثاء ابنه:

أسفاً عليكَ أبا علـ ... ـي والمنايا رُصَّد
أسفا عليك أبا علـ ... ـي يومَ ضمكَ ملحد[2]

وقال:

أسفا عليكَ بحسرة ... بينَ الحشَا تتوقَد
أسفا عليكَ بحرقةً ... وحرارةٍ لا تبرد
يبلى الزمانُ وحزنها ... بمحمد يتجدد[3]

وشبيه بهذا قول ابن الرومي:

يا حسرتا فارقتني فَناً ... غضا ولم يُثمر ليَ الفنن[4]

---

(١) ديوان ابن الرومي/ ج٦ / ٢٥١٥.
(٢) الأوراق / ٢٠٤.
(٣) المصدر السابق/ ٢٠٥.
(٤) ديوان ابن الرومي/ ج٦/ ٢٥١٥.

ومن الأمور التي زادت من لوعة الشاعر موت ابنه في ريعان الشباب، وبما أنّ الابن يمثل أملاً يرنو إليه الأب بتطلعات واسعة فإنّ موته صغيراً دون أن يحقق الأب أياً من هذه التطلعات يزيد من ألمه وحسرته.

وممّا كان يلهب أحزان الشاعر ذكرياته مع ابنه، إذ إنّها كانت توري له نار الشوق فتتوقد في أحشائه فتلهبها، فيلهج لسانه بشعر فيه نتاج هذا الألم. قال ابن الرومي مخاطباً ابنه المتوفى:

كأني ما اسْتَمْتَعْتُ منك بنظْرةٍ ... ولا قُبلةً أحْلَى مَذَاقاً من الشَّهدْ
كأني ما استمتعتُ منك بِضَمَّةٍ ... ولا شمّةٍ في مَلعبٍ لك أو مَهْدْ[1]

فتلك اللحظات السعيدة التي كان يقضيها مداعباً ابنه ضامًّا له، ومقبلاً إياه قد أصبحت ذكريات في خيال الشاعر بعد أن كانت حقيقةً تملأ يديه؛ لذا فإنّ هذه الذكريات تقلّب الشاعر على جمر من نار فتزيد من لهيب ذلك الحزن، وقد تمتد هذه الذكريات فتدفع الأب لاستعراض أحوال ابنه وصفاته المادية والمعنوية بكثير من الإعجاب والحب. قال إبراهيم بن المهدي في رثاء ابنه:

كأن لم يكن كالدرّ يلمَعُ نورُهُ ... بأصدافه لما تشنْهُ ثقوبُ
كأن لم يكن كالغصنِ في ميعة الضحى ... سقاه النَدى فاهتزّ وهو رطيبُ
كأن لم يكن زيْنَ الفناء ومعقل النساء إذا يومٌ يكون عصيبُ
وريحانَ قلبي كان حينَ أشمهُ ... ومؤنس قَصري كان حينَ أغيبُ[2]

إنّ حزن إبراهيم بن المهدي في تذكره لابنه يلمس ويحسّ، فقد كان يملأ حياته بشبابه وجماله فكان كالدرّ جمالاً ونقاء وكالريحان رائحة وزينة لحياة أبيه، وإن غاب الأب كان يقوم مكانه فيرعى قصره ويؤنسه وفجأة ضاع

---

(١) ديوان ابن الرومي/ ج٢/ ٦٢٦.

(٢) التعازي والمراثي/ ١٥٣-١٥٤، وانظر الكامل في الأدب ج٤/٢٤ مع اختلاف في بعض المفردات وفي ترتيب الأبيات.

كل شيء بموته. إنَّ مثل هذا الشعور، وتلك الذكريات الحبيبة إلى نفسه تجعله يحسُّ بالضياع والألم من جديد.

ومن الشعراء من عاش لحظات مرض ابنه الذي أودى بحياته، فكان لا يلبث يتذكر حاله وهو يموت لحظة بعد أخرى، فكان ذلك مبعثاً آخر من مباعث الحزن والألم له. مات طفل لابن الرومي إثر نزيف أصابه، فقال ابن الرومي يصف التحولات التي أصابته، وأثر ذلك على أهله:

أَلِحَ عليه النَّزفُ حتَّى أحالَهُ ... إلى صُفرَة الجاديِّ عن حُمْرة الوَرْد
وظلَّ على الأيْدي تَسَاقَطُ نَفْسُه ... ويذْوي كما يذوي القَضيب من الرَّنْدِ[1]

إنّ حال ابنه، وقد تغيّر لونه من حمرة الورد إلى صفرة الزعفران وتلاشت نفسه مرحلة بعد مرحلة كانت تلهب نفسه حزناً وأسفاً خاصة لشعوره بالعجز عن عمل أيّ شيء يمكن أن ينقذ هذا الابن العزيز. ومن الذين عاشوا هذه اللحظات المؤلمة أبو القاسم بن يوسف، فقال يصف لحظات احتضار ابنه:

آخرُ عهدي به صريعا ... للموت بالذل مستكينا
يشخص طوْراً بناظريه ... وتارَة يكسر الجفونا
إذا شكا غصّة وكربا ... لاحظ أو رجع الأنينا
يديرُ في رجعه لسانا ... يمنعه الموْت أن يبينا
ثم قضى نحبه فأمسى ... في جدث للبلى رهينا[2]

كانت لحظات النزع الأخيرة مثار ألم دائم للأب الذي وقف عاجزاً لا يستطيع عمل شيء، فهو الحدث الذي يعجز أمامه أقوى البشر، وأكثرهم جبروتاً. قال القاسم بن يوسف موضحاً عجزه أمام الموت:

دافعتُ إلا المنونَ عنهُ ... والمرء لا يدفع المنونا[3]

---

(١) ديوان ابن الرومي/ ج٢/ ٦٢٥.
(٢) الأوراق/ ٢٠٣.
(٣) المصدر السابق والصفحة ذاتها.

فالموت قضاء الله الذي لا ينفع معه عمل أب أو غيره، ولكن إن كان هذا هو موقف الأب في مواجهة لحظات الموت، فإنّ موقفه لم يكن كذلك قبله، إذ كان يعمل من قبل ما وسعه العمل، حتى يشفى ابنه من المرض، وينقذه من براثن الموت. قال إبراهيم بن المهدي:

جمعتُ أطبّاءَ العراق فلم يُصِبْ ... دواءكَ منهم في البلاد طبيبُ
ولم يملكِ الآسون دفعاً لمهجةٍ ... عليها لأشراك المنُونِ رقيبُ[1]

وقد يقدّم في سبيل ذلك كل غالٍ، ولكن عندما يحمّ القضاء لا ينفع معه عمل أو أمل، وقديماً قال أبو ذؤيب الهذلي بيته المشهور:

وإذا المنيّةُ أنشبت أظفارَها ... ألفيتَ كلَّ تميمة لاى تنفعُ[2]

وممّا كان يُثير حزن الشاعر أيضاً الحال التي أصبح عليها ابنه المتوفى، وقد أبدع الشعراء في وصف ذلك إبداعاً جعل قارئيهم يحسّون معهم إحساس اللوعة والحزن. قال دعبل الخزاعي في رثاء ابنه أحمد:

على الكره ما فارقتُ أحمدَ وانطوى ... عليه بناءٌ جندلٌ ورزينُ
وأسكنتهُ بيتا خسيسا متاعُهُ ... وإني -على رَغمي- به لضنينُ[3]

فهذه الحال التي أصبح عليها ابنه من وحدة تحت التراب والحجارة جعلت الشاعر يدرك مدى صعوبة الحال التي آل إليها بالإضافة إلى خسّة البيت الجديد- القبر- الذي أسكنه إياه رغماً عنه، ولو كان باختياره لأسكنه بيتاً مغايراً له تماماً.

قال القاسم بن يوسف يصف الحال التي أصبح عليها أولاده:

---

(١) التعازي والمراثي/ ١٥٥، وأشعار أولاد الخلفاء/ ٤٥.
(٢) المصدر السابق / ٧.
(٣) ديوان دعبل الخزاعي/ ١٥١.

غـــــابَ الأَحـــــبّة غيـــــبة وكـــــأنهم لـــــم يشـــــهدوا
وارتهـــــم حفـــــرُ الـــــبلى فممهـــــــد وموســـــــد
هجـــــدوا بـــــدار لا يهـــــــ بّ بهـــــا النـــــيام الهجـــــد
حلـــوا علـــى قـــرب الجـــوا ر كمـــــا يحـــــلّ الأبعـــــد
فكـــــأنهم حيـــــث اســـــتقـ ل مـــــن الســـــماء الفـــــرقد[1]

لقد أصبح أبناؤه بعيدين بغيبتهم الأبدية تلك وكأنّهم لم يكونوا موجودين من قبل، فالشاعر يحسّ ببعد أبنائه عنه إحساساً عميقاً، فقد أصبحوا في مقابرهم تلك بعيدين غرباء رغم قربهم من قلب أبيهم ونفسه، ولكن هذه هي حال الموت يجعل أقرب الناس وأحبهم بمثابة الغريب، ويشبّه الشاعر حال أبنائه في حياتهم وموتهم بنجم هوى من السماء سريعاً لم يكد رائيه يملأ عينيه منه حتى غاب، وهكذا كان أولاده مثل ذاك النجم أهميةً ومكانةً بالنسبة لأبيهم، ولكن الموت لم يمهلهم، بل سرعان ما خطفهم وهم في ريعان الشباب.

والشعر الذي يتحدث عن غربة الابن الراحل كثير، فقد قال إبراهيم بن المهدي يصف هذه الغربة التي آل إليها ابنه:

تَـــبَدّل داراً غَـــيْرَ دارِي وَجِـــيرةً ســـوايَ وأحـــداثُ الـــزّمان تَـــنوبُ
أقـــام بهـــا مســـتوطنا غَـــيْرَ أنّـــهُ علـــى طُـــول أيّـــام المقَامِ غَرِيبُ[2]

كأنّ ابنه اختار طوعاً داراً غير دار أبيه، ورغب عن جيرته إلى سواه، فاتخذ هذه الدار موطناً أبدياً له، وهو غريب طالما هو فيها. ولعلّ هذا الرحيل هو الذي كان يُثير ألم الشاعر وحزنه، فالأب كان يرى أنّ مكان ابنه هو إلى قربه وجواره، ولكنّه أُبدل بهذا الجوار بُعداً أبدياً سيجعله غريباً طول بقائه في هذا المستوطن الجديد.

---

(١) الأوراق/ ٢٠٤.

(٢) أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم من كتاب الأوراق / أبو بكر محمد بن يحيى الصولي / نشر ج. هيوارث. د.ن / مطبعة الصاوي / دار المسيرة / بيروت- لبنان/ط٢/١٩٧٩/ ٤٤.

ومن الأُمور الاجتماعية الأُخرى التي تزيد من وقع المأساة على الأب تلـــك النظرة التي كان يبديها الشامتون مما زاد من ألم الأب وحزنه، ولكنّه لم يهن أو يضعف إزاء ذلك، بل سرعان ما كان يذكّرهم بأنّ الموت حق واجب علـــى جمـــيعِ الناس، ولن يسلم منه شامت ولا حاسد، وأنّ ما أصابه اليوم قد يصـــيبهم غداً، وقد بلغ مقدار الاهتمام بهؤلاء الشامتين أنّ بعض الشعراء لم يكـــتفوا بالإشارة إليهم من خلال قصائدهم في رثاء الأبناء، وإنّما قصر بعض القصـــائد والمقطوعات الشعرية على وصفهم والرد عليهم، ومن ذلك ما قاله أبو تمام مخاطباً إياهم:

لا يَشْـــمَتِ الأعـــداءُ بِـــالموتِ إنّـــنا ... سنُخلي لهمْ مِنْ عَرْصَةِ الموتِ مورداً
ولا تحســـبَنَ المـــوتَ عـــاراً فإنـــنا ... رأيـــنا المـــنايا قـــد أَصَـــبنَ محمدا
ولا يحســـبِ الأعـــداء أنّ مصـــيبتي ... أكلّـــت لهـــم منّـــي لســـانا ولا يَـــدَا
تـــتابع فـــي عـــامٍ بَنـــيَّ وإخوتـــي ... فأصـــبحْتُ إنْ لم يُخلفِ اللهُ واحِدَا[1]

ولـــيس كل الآباء كأبي تمام قوة، فمنهم من أثرت فيه شماتة الواشين تأثيراً جعله ينقم على كلّ شيء حوله، من هؤلاء أبو عبد الله العتبي فقد توفي له بنون كان آخرهم يكنى أبا عمرو. قال:

لقـــد شـــمت الواشون بي وتغيّرت ... وجـــوه أراهـــا بعد موت أبي عمرو
تجـــرَّى علـــيّ الدهـــر لمـــا فقدتـــه ... ولـــو كان حيا لاجترأت على الدهر
أســـكّان بطـــن الأرض لو يقبل الفدَا ... فديـــنا وأعطينا بكم ساكني الظَّهر[2]

وقـــد أخذ الحزن من بعضهم كلّ مأخذ، فترك علامات وتقرّحات على أَجســـادهم وفي نفوسهم إلى آخر العمر، فكل حزن يبلى إلا الحزن لفقد الولد. قال أبو عبد الرحمن العتبي في رثاء ولده:

---

(١) ديوان أبي تمام/ ج٤/ ٦٤.
(٢) زهر الآداب/ ج٢ /٧٩٦

وأوطنت حرقة حشاي فقد ذاب عليها الفؤاد والكبد
ما عالج الحزن والحرارة في الأ حشاء من لم يمت له ولد[1]

أما القاسم بن يوسف، فقد كاد الحزن يقطع منه حبل الوتين إذ إنَّ موت ابنه أصاب صميم قلبه. قال:

تصرف الدهر بي صروفا وعاد لي شأنه شؤونا
أصاب مني صميم قلبي وكادَ أن يقطعَ الوتينا[2]

ومن مظاهر الحزن كآبة النفس واعتلالها، فقد ترك موت الابن الأب أسير حالة نفسية صعبة، فهو مسلوب الفؤاد يعيش حالة من الكآبة المقيتة حينما أحسَّ أنَّ ابنه ذهب دون عودة. قال إبراهيم بن المهدي يصف هذه الحال:

نَأى آخِرَ الأيَّام عَنْكَ حَبِيبُ فَلِلعينِ سَحّ دائِمٌ وَغُروبُ
دعته نوى لا يرتجى أوبة لها فقلبك مسلوب وأنت كئيب[3]

ولعل قوله آخر الأيام إشارةً إلى تقدم الشاعر في السن عند رحيل ابنه، وهذا يجعل الأب أكثر حرصاً على حياة ابنه للحاجة النفسية المتمثلة في الاطمئنان على من يخلفه في الحياة بجميع عناصرها، وللحاجة الكبيرة له المتمثلة في رعايته جسمياً وصحيّاً، وهذا كلّه مما يزيد من الإحساس بالألم والكآبة.

ومن مظاهر الحالة النفسية الصعبة التي قد يعيشها الأب المُصاب بابنه الغربة النفسية، ومن الذين عاشوا هذه الغربة بشار بن برد حيث قال:

---

(١) الكامل في الأدب/ج٤ / ٢٥.
(٢) الأوراق/ ٢٠٤. الوتين: عرق في القلب إذا انقطع مات صاحبه.
(٣) الكامل في الأدب/ج٤/٤٣.

أجارَتَـــنَا لا تَجْزَعِـــي وأنيبـــي أتانـــي مـــن المـــوتِ المُطلِّ نَصِيبي
بُنَـــي علـــى قلبـــي وعينـــي كأنـــه ثـــوى رهـــن أحجـــارٍ وجـــارَ قليب
كأنـــي غريـــب بعـــد موتِ "محمد" ومـــا المـــوت فيـــنا بعده بغريبِ[1]

إنّ مـــوت ابـــنه جعله يعيش حياة غربة بين أهله وأقرانه، فابنه كان أقـــرب الناس إلى نفسه، وأحبهم إليه، وبموته فقد ركناً هاماً من حياته إن لم يكن أهم أركانها على الإطلاق. وإذا أخذنا حياة بشار موضع اهتمام من حيث قلّة أصدقائه ومحبيه إضافةً إلى كونه ضريراً، فلا نعجب من شعوره هذا وقد فقـــد ابنه، وليس هذا حسب، بل إنّ الموازين اختلت لفقد هذا الابن، ففي حين أصبحت الحياة من بعده حياة غربة أصبح الموت الذي يراه الناس غريباً ليس غريباً، فكأنّ موت ابنه أبطل هذه الغربة من جهة، ونقلها إلى حياته، فأصبحت حياته هي الغريبة.

ومن الذين طرقوا هذا المعنى أيضاً ابن الرومي إذ قال:

وأنـــتَ وإن أُفـــرِدْتَ في دار وَحْشَةٍ فإنـــي بـــدار الأُنس في وحشة الفَرْد[2]

ومـــن أهـــم مظاهر الحزن، البكاء الدائم على الفقيد المتوفى، فقد بكى الإنســـان لفـــراق أحبته فرقة مؤقتة، فكيف وقد عرف أنّ فراقهم أبدي، وأنّ هـــؤلاء الأبناء هم أغلى من في الوجود وما في الوجود؛ لذا فقد ذرف الآباء الدموع الغزيرة لفراق أبنائهم، خاصة وأنّهم أمام المُصاب الجلل أحسوا بحاجة إلـــى شـــيء يُعطي الابن حقه من الحب والوفاء، وقد عجزوا عن حمايته من الموت، بالإضافة إلى حاجتهم إلى شفاء أنفسهم مما بها من ألم وحزن. فها هو إبراهيم بن المهدي ترك العنان لعيونه تصبّ الدمع صبّاً فجرت جرياناً. قال:

نـــأى آخِـــرَ الأيَّـــام عَـــنْكَ حبيـــبُ فللعيـــن سَـــحٌّ دائـــمٌ وَغُـــروبُ[3]

---

(١) ديوان بشار بن برد/ ج١/ ٢٧٨-٢٧٩.

(٢) ديوان ابن الرومي/ ج٢/ ٦٢٧.

(٣) التعازي والمراثي/١٥٣ .

ولـم يكتفِ الشعراء بسحّ الدموع عند الحدث، أو عند تذكرهم الفقيد، وإنّمـا بكوا أبناءهم زمناً طويلاً استمر عند بعضهم لآخر العمر، وقد أصروا علـى موقفهـم هـذا من استمرارية البكاء، إذ إنّهم رأوا في ذلك دليلاً على اسـتمرارية الحزن، وهي دليل على بقاء الفقيد في ذاكرة الأب ووفائه له، فقد قال إبراهيم بن المهدي مخاطباً ابنه المتوفى:

سـأبكيك مـا أبقـت دموعي والبكا ... بعينـيّ مـاءً يـا بنـي يجيـب
ومـا لاح نجـم أو تغنّت حمامـةٌ ... أو اخضـرّ فـي فرع الآراك قضيب
وأُضـمر إن أنفـدت دمعـي لوعة ... علـيك لهـا تحت الضلوع وجيـب
حياتـي مـا كانـت حياتي فإن أَمت ... ثويـت وفـي قلبـي علـيك ندوب[1]

إنَّ كلمـة (نـدوب) توحي بالآثار المؤلمة الموجعة التي تركها موت الابـن؛ لذا يؤكد ديمومة بكائه على ابنه ما وجد في عينه ماء، بل يذهب إلى أكـثر مـن ذلك، فهو سيبكيه كلما غار نجم أو غنّت حمامة أو اخضرّ غصن آراك أي طيلة حياته، وحتى يحقق الشعراء ما أرادوا من ديمومة البكاء على أبنائهم فقد حثّوا دموعهم على الاستمرار في الهطول، وعلى الجود بالدموع. قال ابن الرومي مخاطباً عينيه:

أعينّـيَّ جُـودا لي فقد جُدْتُ للثَّرَى ... بـأنفَسَ ممـا تُسْـألان مـن الـرِّفد
أعينـيّ: إنْ لا تُسْـعِداني أُلُمْكُمـا ... وإن تُسْـعداني اليومَ تَستوْجبا حَمْدي[2]

إنّ ابن الرومي واحد من الشعراء الذين يصرون على ديمومة البكاء، وسكب الدموع الغزيرة رغم علمه بأنها لن تفيد. قال مخاطباً ابنه الراحل:

سأسـقيك مـاءَ العيْن ما اسعدت به ... وإن كانت السُّقْيا من الدمع لا تُجْدي[3]

ولكـنّه ربما أراد ذلك لعلمه أنّ البكاء يُعقب راحة، ويريح النفس، وقد عـرف القدماء فائدة الدمع، فأطلقوا العنان لدموعهم المدرارة، ومن أشهر من

---

(١) التعازي والمراثي/١٥٥

(٢) ديوان ابن الرومي/ ج٢/ ٦٢٦.

(٣) المصدر السابق/ ج٢/ ٦٢٦

طـرق هـذا المعـنى الشـاعر ذو الرمة في بيتيه المشهورين(١). وقد تابع الشعراء العباسيون سابقيهم فعرفوا أنّ في البكاء شفاء للنفس مما أَلمَّ بها. قال ابـن الرومي أيضاً في مطلع قصيدته التي يرثي فيها ابنه الأوسط الذي يعدل عينيه أهميةً ومحبة:

بكاؤكُمـا يشـفي وإن كان لا يُجْدي فجُـودًا فقـد أودى نظـيركُما عندي(٢)

ومـن الشـعراء من رأى نفسه عاجزاً عن وصف حاله لشدّة ألمه في مصـابه خاصـة أُولـئك الذين ثكلوا بغير واحد من الأبناء فأحسوا بقاصمة الظهر. قال أبو عبد الرحمن العتبي وقد تتابع له بنون:

كَـلّ لسـاني عـن وصـف ما أجِدُ وذقـت ثُكْـلاً مـا ذاقَـهُ أَحَـد
وأوطِنَـتْ حُـرقَة حَشـايَ فقـد ذاب علـيها الفـؤادُ والكَـبد(٣)

وكـيف لا يحـس بكلّ هذا الألم، وهذه الحرقة، وقد فجع باثنين ليس بينهما إلا ليالٍ قليلة كما قال:

فُجِعْـتُ باثنيـن ليسـت بيـنهما إلا لَـيالٍ ليسـت لهـا عـدد(٤)

لذا فإنَّ حزنه عليهم بدا متجدداً مع الأيام:

فكـلُّ حـزن يـبلى علـى قدم الد هـر وحزنـي يُجـدّه الأبـد(٥)

---

(١) البيتان هما:

خليلي عوجا من صدور الرواحل ببرقة حزوى فابكيا في المنازل
لعلّ انحدار الدمع يعقب راحـة من الوجد او يشفي نجي البلابل

ديـوان ذي الـرمة/ تحقيق عبد القدوس أبو صالح/ مؤسسة الرسالة/ بيروت/ ط٣/ ١٩٩٣/ ١٣٢٢-١٣٣٣.

(٢) ديوان ابن الرومي/ ج٢/ ٦٢٤.

(٣) الكامل في الأدب/ ج٤/ ٢٥.

(٤) المصدر السابق /ج٤/ ٢٥.

(٥) نفسه/ج٤/ ٢٥.

لقــد بكى الشعراء مناقب أبنائهم مثلما بكوا نفوسهم المحزونة وقلوبهم المجروحة، وقلة هؤلاء الذين لم يذكروا تلك المناقب، ولكل واحد من هذه القلة أسبابه الخاصة[١]. وقد تنبّه الدارسون إلى شيوع هذا الأمر في قصائد الرثاء، وحاولوا إيجاد تفسيرات. قال شوقي ضيف: ونحن نجده- التأبين- دائراً على ألســنة الرجال والنساء، فهم جميعاً لا يكتفون بتصوير شعورهم الحزين، بل يضيفون إليه إشادة بالميت ومناقبه"[٢]. وقد أكثر الشعراء من هذه الإشادة حتى رأى بعضهم أنّ ذكر شمائل المرثي ومناقبه من أصعب ما يعالج الشاعر في مضــمار الرثاء لتداول معانيها واشتراكها مع معاني المديح[٣]. والسؤال الذي يطــرح نفســه مــا السر في إصرار الشعراء قديماً وحديثاً على ذكر مناقب موتــاهم؟! هل هو تقليد بعضهم لبعض، ربما، ولكن هذا قد لا يكون تفسيراً مقــبولاً إذ لا بد من أمور تدفع الشاعر إلى متابعة الآخرين في تعداد مناقب المرثــي سواء أكان قريباً أو بعيداً. ويعلل الدكتور شوقي ضيف ذلك بقوله: " هــم يــبكون فيه نموذج المروءة كما يتمثلها أهل البادية يبكون فيه الشجاعة والوفــاء وحمايــة الجار والكرم وكل ما يزين الرجل من صفات وخلال... وكأنّمــا كــان غرضــهم من تأبينهم أن يصوروا تصويراً تاماً مدى الخسارة والمصــيبة في الفقيد"[٤]. ويعلل الدكتور مخيمر صالح ذلك عند الآباء بشكل خــاص، فيقول: "في رأينا أنّ الأب عندما يبكي تلك الفضائل إنّما يبكي نفسه أيضاً، فلا غرابة والحال هذه أن يكثر الشاعر من بكاء هذه الصفات، والتغني بها، كثرة تجعلنا نحس أنّه يحنّ إليها حنينه إلى ابنه الفقيد"[٥].

---

(١) رثاء الأبناء في الشعر العربي /٣٧-٣٨/ انظرشرح الدكتور مخيمر صالح لهذه الأسباب.

(٢) الرثاء/ د. شوقي ضيف/ دار المعارف/ مصر١٩٧٩/ ٥٤.

(٣) الشعر والشعراء في العصر العباسي/ د. مصطفى الشكعة/ دار العلم للملايين/ بيروت/ ط٢/١٩٨٦/ ٥٨٨.

(٤) الرثاء/ ٥٤.

(٥) رثاء الأبناء/ ٣٥.

إنّ الناس اعتادوا في أغلب أحوال الوفاة أن يذكروا للشخص المتوفى صفاته الحسنة، وهذا يحصل إذا كان المتوفى بعيداً، فكيف إن كان فلذة الكبد التي يرى فيها الأب كل ما هو حسن وجميل؟ وكيف يكون الأمر إن توفاه الله؟ إنّ مصيبة الأب في ابنه في هذه الحال ستدفعه إلى أن يلهج بصفات ابنه الحسنة سواء أكانت موجودة على الحقيقة أم لا، يضاف إلى هذا وضع مناقب الابن وصفاته المعنوية والجسدية في صورة مثالية يعبّر عن المصاب وعظم الخسارة التي خسرها الشاعر بوفاة ابنه، وهذا القول الأخير ينسحب على شعر رثاء الآباء والإخوة كما سنرى فيما بعد.

ومن الشعراء الذين عبروا عن عمق المصاب في أبنائهم القاسم بن يوسف إذ قال:

أُصبتُ فيه وكان عندي ... على المصيباتِ لي معينا
كنتُ كثيراً به عزيزا ... وكنتُ صبّا به ضنينا[1]

أمّا المناقب التي ذكرها الشعراء في أبنائهم فهي مناقب تعارف الناس على فضلها، وعلى مدح أصحابها بها كالشجاعة والكرم والعقل والعدل والعفة. قال إبراهيم بن المهدي في ابنه:

كأنْ لَمْ يَكُنْ كالصَّقْرِ أوفَى بشامخ الْـ ... ـذُرى وَهْوَ يَقْظَانُ الفُؤَادِ طَلُوب
كَأنْ لَمْ يَكُنْ كالرُّمْحِ يَعْدِلُ صَدْرَهُ ... غَداةَ الطِّعانِ لَهْذَمٌ وكَعُوبُ
يَفُضُّ الحديدَ المُحْكَمَ النَسْجِ حدُّه ... وَيَبْدو وَرَاءَ القَرن وَهُوَ خَضيبُ[2]

أما القاسم بن محمد، فقد أضاف إلى صفات ابنه النفسية بعض الصفات العقلية. قال:

---

(١) الأوراق/ ٢٠٣.
(٢) أشعار أولاد الخلفاء/ ٤٤-٤٥.

وكـــان غـــرّته رقـــيـ ق الشـــفرتين مهـــند
وفـــتىً يزيّـــن لـــبَّه أدبٌ ورأي محصـــد
وعفافـــةٌ وســـماحة وطلاقـــة وتـــودُّد
ومهـــذبٌ محـــضُ الضـــرا ئـــب للصـــوَاب مســـدّد
لقـــنٌ بحجـــتهِ إذا جمـــع الـــرِّجالَ المشـــهد[1]

أمـــا الصفات الجمالية، فقد ندر استخدامها، وكانت تدور في معظمها حـــول جمال هيئة المتوفى، وحسن وجهه وطلعته، ومنها تشبيهه بالبدر. قال القاسم بن يوسف في ابنه:

كالـــبدر فارقـــه الـــنحو سُ وقارنـــته الأســـعد[2]

ومـــن الأسباب الموجبة لعرض بعض الصفات الجسمية عند الشعراء أن يكـــون المـــتوفى طفلاً لم يبلغ عمراً يؤهله لأن يحوز مجداً أو شجاعةً أو رأياً. ومن هنا أحسّ بعض الدارسين بالصعوبة البالغة التي يواجهها الشعراء فـــي رثاء الأطفال، فقال: " ورثاء الأطفال مركب صعب للشعراء، فإن الطفل لم يصب بعد مجداً يمكن أن يرثى من خلاله[3]؛ لذا فقد لجأ الشعراء إلى بكاء مســـتقبل الابن الطفل الذي كان يؤمل فيه، وهو ما يسمى بالأماني الضائعة. ومن الذين خاضوا في هذا المجال بشار بن برد إذ قال:

وقـــد كنـــت أرجـــو أن يكون "محمدٌ" لـــنا كافـــيا مـــن فـــارس وخطيب[4]

فالفروســـية والخطابة صفتان كان الشاعر يأملهما في ابنه عندما يكبر لـــيقابل الفرسان، ويجيب الخطباء إلا أنَّ القدر لم يمهله لتحقيقهما، فكان ذلك يزيد من إحساسه بعمق المصاب وشدّة الخسارة.

---

(١) الأوراق/ ٢٠٤-٢٠٥.
(٢) المصدر السابق/ ٢٠٤.
(٣) الشعر والشعراء في العصر العباسي/ ٦٧٨.
(٤) ديوان بشار بن برد ج١/ ٢٧٩.

ورثـــاء الأطفـــال حقّاً يكون مركباً صعباً للشعراء في الرثاء الرسمي الـــذي يرثي الشاعر فيه ابن غيره فلا يجد كثيرا مما يمكن أن يصف به الطفل المـــتوفى، أما عندما يكون المرثي ابناً للشاعر فالأمر يكون مختلفاً، إذ رغم ما ورد مـــن بكاء الشعراء لأمانيهم الضائعة في أبنائهم الأطفال، فإنّ الأب ينظر لابنه من زوايا أُخرى غير المجد والمستقبل المشرق إذ تربطه علاقة من نوع خـــاص لا يمكن تسميتها بغير كلمة الأبوّة. هذه العلاقة توجد نوعاً من الحب والإعجـــاب بـــالطفل قـــد تفوق كثيراً إعجابه وحبه لأبنائه الكبار الذين حققوا مجـــداً؛ لـــذا لا أرانـــي أُغالي كثيرا إذا قلت: إن حزن الأب أحياناً لفقدان ابنه الطفـــل لا يقل عن حزنه لفقد ولده الشاب، وقد لمس بعض الشعراء طرفاً من هذه الأمور، فبكوا أبناءهم الأطفال بطريقة تكاد تكون مؤثرة أكثر من الطريقة الـــتي رثـــوا بها أبناءهم الذين ماتوا في سنّ الشباب أو الرجولة. فالشاعر قد يبكي العلاقة التي كانت تربطه بابنه بما فيها إحساس الأب تجاه ابنه الذي كان بالنســـبة لـــــه كالـــريحانة يراها بعينيه أجمل ما تكون، ويشمّها فتكون أزكى العطـــور، فذكرياته معه ضمن هذه الأوصاف بما في ذلك الاستمتاع بنظراته وقـــبلاته الـــتي هـــي أحلى من الشهد.. كل هذه الأمور جعلت الشاعر يطرق مجـــالا في رثاء ابنه الطفل ربما كان أوسع من بكاء أمانٍ ضائعة وحسب. من ذلك ما قاله أبو عبد الله العتبي في ابن لـــه توفي صغيرا:

إن يكُـــنْ مـــاتَ صـــغيراً فالأَسَـــى غَيْـــرُ صَـــغيرِ
كـــانَ رَيْحَـــاني فأمســـى وهـــو رَيْحَـــانُ القُـــبُورِ
غَرَسَـــتْهُ فـــي بســـاتيـ ـن البـــلى أيـــدي الدهـــور[1]

فـــالأب لا يهمّه في أي سن كان ابنه، فهو في مواجهة الحدث لا يقوم بحســـاب الخســـائر التي خسرها به، بل الذي يهمه أنّ ابنه الحبيب إلى قلبه قد ذهب دونما رجعة، بعدما كان ريحان حياته يزينها بجماله ورائحته، والآن وقد ضمّه القبر ترك حياة أبيه ليزين القبور من حولـــه، فهو بدل أن يكون غرسة

(١) زهر الآداب/ ج٢/ ٧٩٧.

طيبة في الحياة، نقلته المقادير ليكون غرسة للبلى، وشتان ما بين الغرستين، فلا شك أنه موقف صعب للأب الذي عاش هذه اللحظات، وفكر في نتائجها، ولكن لم يكن للإنسان، ولن يكون له يد فيما قدّر له من الموت أيا كانت صفات المتوفى ومناقبه، وأياً كان عمره أو مكانته، وما على الأب إلا التعزي والتأسي بأحوال الزمان، وتغيّر الأحوال.

ومن القضايا التي ترددت في رثاء الآباء لأبنائهم تعبيرهم عن مواقفهم من الحدث وقد اختلف الشعراء فيها، فمنهم من استسلم للأمر وتقبله صابراً محتسباً مؤمناً بمشيئة الله، ولم يكن ليفعل ذلك لولا أنّه قد علم بأنّ الله قد أعدّ للصابرين على المصائب أجراً عظيماً خاصة في مصاب فقد الولد قال الله تعالى في كتابه الحكيم: ﴿ **الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ** (١٥٦) **أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ** (١٥٧) ﴾ [١].

وقال رسول الله ﷺ :« أيما مسلمين مضى لهما ثلاثة من أولادهما لم يبلغوا حنثا كانوا لهما حصناً حصيناً من النّار. قال: فقال أبو ذر: مضى لي اثنان يا رسول الله، قال: واثنان. قال: فقال أبو المنذر سيد القراء: مضى لي واحد يا رسول الله فقال رسول الله ﷺ : وواحد، وذلك في الصدمة الأولى » .[٢].

فقد كان لهذه القيمة أثر كبير في تخفيف وقع الحدث على الآباء، إذ اعتبروا الابن المتوفى ذخراً لهم عند الله يوم القيامة.

ومن هنا يحسن بهم الصبر والتجلد حتى يحققوا ما وعدهم الله به. قال بشار بن برد:

---

(١) سورة البقرة/ ١٥٦/ ١٥٧.

(٢) مسند الإمام أحمد/ ج١/٤٥١.

صـــبرتُ علـــى خـــير الفُتوّ رُزئتُهُ ... ولـــولا اتقـــاءُ الله طـــالَ نحيبـــي
لعمـــري لقـــد دافعتُ موتَ "محمد" ... لـــو أنَّ المـــنايا تـــرعوي لطبيـــبِ
ومـــا جزعـــي مـــن زائلٍ عمَّ فجعُه ... ومـــن ورد آبـــاري وقصـــد شَعيبي
فأصـــبحتُ أُبـــدي للعُـــيُون تجلُّـــداً ... ويـــا لَـــكَ مـــن قلـــب علـــيه كئيب
يذكّرنـــي نـــوحُ الحمـــام فـــراقَهُ ... وإرنـــانُ أبكـــار النســـاءِ وثيـــب
ولـــي كـــل يـــوم عـــبرةٌ لا أفيضها ... لأحظـــى بصـــبر أو بِحـــطٍّ ذنوب[1]

فبشـــار بن برد، رغم ما اتهم به من بعد عن الدين، يبدو مقتنعاً بفكرة الاحتساب هذه اقتناعاً تاماً، فهو صابر على مصابه يحبس دموعه مخافة الله، وليعدّ مع الصابرين وتغفر ذنوبه؛ لذا فمظهره يبدو عليه التجلد في حين يحوي قلباً فيه من الكآبة والحرقة الكثير.

أما القاسم بن يوسف، فقد تقبل موت ابنه بما يُتوقع من الإنسان المؤمن بقضاء الله. قال:

كـــانَ الـــذي خفـــتُ أن يكونـــا ... إنّـــا إلـــى الله راجعونـــا
أمســـى المـــرجى أبـــو علـــي ... موسّـــداً فـــي الـــثرى يمينـــا[2]

فالشاعر يُشير في بيتيه إلى القلق الذي يعيشه بعض الآباء خوفاً على أولادهم، ويبدو أنه كان واحداً منهم، فكان يحذر عليه الموت، ولكن حذره هذا لم يفده في شيء إذ مات، ومع هذا تقبّل الأب الحدث بالرجوع إلى الله لعلّه في ذلك يكسب رحمته، وقد انتهى أمله ورجاؤه موسدين مع ابنه إلى التراب.

ولـــم يكتف الشاعر بهذا الموقف المؤمن، وإنّما أراد من الآخرين أن يفعلوا كذلك، فقد قالَ في قصيدة أُخرى له يحثّ زوجته لبابه على الصبر مبيّناً أنه خير ما يؤجر عليه المصاب:

---

(١) ديوان بشار بن برد/ ج١/ ٢٧٩.

(٢) الأوراق/ ٢٠٣.

ألا بابَ إنّ الصبر أنفع في الأمور وأحمد
ألا بابَ إنّ الصبر أبقى للإله وأرشد[1]

ولكن لم تكن مواقف الشعراء جميعها كموقف بشار بن برد، ولا كموقف القاسم بن محمد، وإنّما هناك طائفة منهم فقدت صوابها إزاء الحدث، فرفضت الأجر والثواب، وخانها الصبر فلم تستطع إليه سبيلاً، وابن الرومي واحد من هؤلاء الذين بلغ بهم المصاب حد رفض فكرة الاحتساب رفضاً تاماً، ويقرّ أنّه لم يسره أن يكون موت ابنه ثواباً له يوم القيامة. قال:

وما سرني أنّ بعْتُهُ بثوابه ولو أنه التخليدُ في جنّة الخُلد
ولا بعْتُهُ طَوْعاً ولكن غُصْبته وليس على ظُلْمِ الحوادِث من مُعْدِي[2]

فالخلود في الجنة لا يساوي عنده فقد ابنه، لذا نجده رافضاً له، وهذا الموقف من ابن الرومي لا نجده إلا في قصائد رثاء أبنائه، أمّا في التعزية بأبناء الآخرين، فنجده يركز على فكرة الاحتساب تركيزاً يدل على إيمانه بها، ويزيد على ذلك بأنْ يحثّ معزيه على الصبر الذي خانه فلم يستطعه عند فقده لابنه الثاني إذ قال مخاطباً إياه:

أبنيَّ إنك والعزاءَ معاً بالأمسِ لُفَّ عليكما كفن
فإذا تناولت العزاء أبى نَيْليه إنْ قد ضَمَّه الجنن[3]

فصبره قد ذهب بموت ابنه، فلم يعد يقدر عليه، وإن أراده تأبّى عليه. ولا يمكن أن نفسر هذا على أنّه تناقض في موقفه، أو ضعف إيمان كما فسره الحاوي[4]. ولكننا نراه حالة من حالات الضعف التي تعتري الإنسان عندما

---

(١) الأوراق/ ٢٠٥.
(٢) ديوان ابن الرومي/ ج٢/ ٦٢٥.
(٣) المصدر السابق / ج٦/ ٢٥١٥.
(٤) ابن الرومي فنه ونفسيته من خلال شعره / إيليا الحاوي/ دار الكتاب اللبناني المصري/ بيروت- القاهرة/ ١٩٨٠/ ط٢/ ١٥.

يصـــاب في نفسه، أو في أهله، فيحيد عن طريق الصواب للحظات، قد تطول أحـــياناً، إلا أنّه سرعان ما يعود إلى وعيه وإدراكه، فيطلب الغفران لما كان منه. ودليل ذلك ما ذكرت من حسن تعزيته لغيره كما سيأتي في باب التعزية بالأبناء. وإذا ما أضفنا ذلك كله إلى كثرة مصائب ابن الرومي في أبنائه وأهل بيته، فقد نجد تفسيراً للأثر البالغ لحدث وفاة ابنه على نفسيته ومواقفه.

ومن الشعراء من كان يضعف إزاء الحدث ضعفاً يجعله لا يقدر على شـــيء سوى أن يتمنى الموت لنفسه إمَّا فداءً لابنه، وإما رغبةً في اللحاق به. قال إبراهيم بن المهدي في ذلك:

وإنِّـــي وإنْ قُدِّمْـــتَ قَبْلِـــي لَعـــالِمٌ بأنِـــي وإنْ أُخِّـــرتُ مـــنك قريـــب
وإنَّ صـــباحاً نَلْتَقِـــي فـــي مســـائِهِ صَـــباحٌ إلـــى قَلْبـــي الْغَداةَ حَبِيبُ[1]

إنَّ ما وجده الأب من حزن على ابنه جعله يضعف ضعفاً لا يقدر معه علـــى الحياة، فهو يحسُّ أن أَجله سيكون قريباً، وهذا أمر لا يزعجه البتة، بل علـــى العكـــس مـــن ذلك، فهو ينتظر ذلك اليوم الذي يجمعه وابنه معاً بحب وشوق.

وقد أكثر ابن الرومي أيضا من طلب الموت. قال:

بـــودِّي أنـــي كنـــتُ قُدِّمْـــتُ قـــبلَهُ وأَنَّ المـــنايا دونَهُ صَمَدت صَمْدِي[2]

وقال:

أودُّ إذا مـــا المـــوتُ أَوفَـــدَ مَعْشَـــراً إلى عسكر الأمواتِ أني من الوفْد[3]

فالشاعر يتمنى في بيته الأول لو أَنّه استطاع أَن يفدي ابنه بنفسه، أمَّا في البيت الثاني، فإنّي أكاد ألمس نفس ابن الرومي اليائسة من الحياة؛ لذا فهو يتمنى الموت خلاصاً من حياة الألم التي يعيشها.

---

(١) أشعار أولاد الخلفاء/ ٤٥.

(٢) ديوان ابن الرومي/ ج٢/ ٦٢٥.

(٣) المصدر السابق نفسه/ ٦٢٧.

وقد لا يكتفي الشاعر بتمني الموت لنفسه فقط، وإنّما قد يبلغ به الأمر حدّ السخط والثورة على الناس والحياة، ونراه يتمنى الموت للناس جميعاً فداءً لأولاده الذين هلكوا. قال أبو عبد الله العتبي:

أسُكانَ بَطن الأرْض لو يُقْبَلُ الفدَا ... فَدَينا وأعْطينا بكم ساكني الظَّهْر
فَياليتَ من فيها عليها وليتَ مَن ... عليها ثَوى فيها مُقيما إلى الحَشر
وقاسَمني دهري بنيّ بشطْره ... فلما تقضى شَطْرَه مالَ في شطري
فصاروا ديوناً للمنايا ولم يكن ... عليهم لها دين قضوه على عُسر
كأنهم لم يعرف الموتُ غيرهم ... فثكل على ثكل وقبْر على قبر[1]

فالشاعر يشير إلى أنّ الدهر متسلط يتقصده في موت أبنائه؛ لذا فهو ثائر على الحياة التي أخذت بنيه منه واحداً تلو الآخر، وكأنّ الموت لم يعرف غيرهم. ولكنه لا يلبث أن يهدأ استسلاماً مقنعاً نفسه بأنّ ليس هناك أفضل من الصبر على مثل هذه الرزايا. قال:

فللّه ما أعطى ولله ما حَوَى ... وليس لأيّام الرزيَّة كالصَّبر[2]

لعلّ هذه الأبيات تمثل جانباً من انفعالات الشاعر المُصاب بابنه فهو تارة ثائر، وتارة مستسلم يحاول الوقوف من الحدث موقف الإنسان المؤمن.

ومن المعاني التي طرقها الشعراء في قصيدة رثاء الأبناء أيضاً التأسي والتعزي عن المصاب، وهما من الأمور التي ألهمها الله سبحانه وتعالى لبني البشر لتخفيف ألمهم في مصائبهم، فعندما يُصاب الإنسان في نفسه أو أهله يضعف، ولا يعود يقوى على الصبر والاحتمال، ولكن عندما يفكر بما حوله من أحوال الدنيا وأحوال أصحابها يجد أنّ ما أصابه أمر أصاب وسيصيب الناس جميعا عاجلاً أم آجلاً، وقد يرى أن مصابه أخف أحياناً من مصاب الآخرين من حوله؛ لذا سرعان ما يعود إلى رشده وصوابه، بل سرعان ما

---

(١) العقد/ ج٣/ ٢٥٤/ وزهر الآداب/ ج٢/ ٧٩٦-٧٩٧ مع اختلاف، وقد نسبت هذه الأبيات إلى أعرابي في العقد، أما صاحب زهر الآداب فقد نسبها إلى أبي عبدالله العتبي وهو شاعر عباسي.

(٢) المصدر السابق/ ج٣/ ٢٥٤.

يتأسّى ويتعزّى فيقوى على تحمّل مصابه بطريقة أكثر قوة، وأكثر صبراً سواء أكان ذلك قناعة منه أم استسلاما.

وللتعزي ألوان كثيرة، استخدمها الشعراء، منها ما يتعلق بأحوال الدنيا وأهلها، ومنها ما يتعلق بقيم آمنوا بها واعتنقوها، فمما يتعلق بتغيّر الدنيا وانقلاب أحوالها ما كان من ابن الرومي، فقد قال في رثاء ابنه هبة الله:

يا هل يخلّد منظر حسن ... لممتّع، أو مَخْبرٌ حَسنُ؟
أم هل يطيبُ لمقلةٍ وسنٌ ... فيقرُ فيها ذلك الوسن؟
أم هل يبيتُ لذاهبٍ قرن ... يوما فيوصل ذلك القرن؟
كم منّةً للدهر كدَّرها ... لم تصفُ منه ولا له المنن
ما زال يكسونا ويسلبنا ... حتى نظلَّ وشُكرنا إحَن
فحتى أراك بصرفِهِ زينا ... فهي الزخارفُ منه لا الزّين[1]

فالدهر لا يدوم على حال أبداً؛ لذا علينا أن لا نغتر بمباهجه، فهي ليست إلا زخارف خارجية تخفي وراءها كثيراً من الآلام والمتاعب، وهذا هو حال الدهر مع ابن الرومي، فهو لم يمهل فرحته وسعادته بابنه، بل سرعان ما أصابه به فحوّل حياته من سعادة إلى شقاء، والشاعر يحاول أن يقنع نفسه ويعزيها بأنّ هذا هو حال الدهر دائماً، ومع الناس جميعاً إلا أنّه فشل في هذا، فالتفكرّ بأحوال الدهر لم يعزّه عن ابنه؛ لأن العزاء ذهب مع ابنه كما قال:

أبنُيّ إنك والعزاءَ معا ... بالأمسِ لُفَّ عليكما كفن[2]

فابن الرومي واحد من الشعراء الذين خانهم الصبر، ولم ينفع معه أي نوع من أنواع التعزي لا الدهر وأحواله المتقلبة، ولا حال الناس من حوله، ولا القيم الدينية والاجتماعية، ولا أي نوع من العزاء الخارجي كما سنرى فيما بعد، ولكن هذا كان فقط في رثائه لأبنائه، أمّا في تعزيته للآخرين، فنجده

---

(١) ديوان ابن الرومي/ ج٦/ ٢٥١٤-٢٥١٥.

(٢) المصدر السابق/ ج٦ / ٢٥١٥.

أكـثر هدوءاً وتعقلاً، وأقدر على التصبر والعزاء، بل أقدر على التأثير على الآخرين وإقناعهم بضرورة الصبر والتأسي بأحوال الدنيا وأصحابها.

أمّـا القاسـم بن يوسف، فقد كان أكثر قدرة على التعزي بتغير حال الدهـر إذ إنّه يرى الدهر يراوح بين حالتي الشدة واللين، وموت ابنه هو من هذه الشدّة التي قد تصيب الناس جميعاً؛ لذا ما عليه سوى التأسي. قال:

والدهـر رهـن بحالتيه فشـدة مـرّة وليـنا[1]

وقد أكثر القاسم بن يوسف من وسائل تعزيه ونوّع فيها. قال في مطلع قصيدة أخرى له:

هلـك البنون محمـد ومحمـدٌ ومحمـد
وردوا مـوارد سـبلهم ولكـل نفـسٍ مـورد
واسـتأثرت بهـم المنـيـ ـة والمنـيةُ موعـد
تـأبى المنـية أن يكـو نَ علـى الـزمان مخلـد
كـل امـرىء سـتغوله وتـناله مـنها يـد
والفـاقدون اليوم قصـ رهـم غـدا أن يفقـدوا
لا يلبـث القـرناءُ والـ خلطـاءُ أن يتـبددوا[2]

فالشـاعر يعرض لحال الدنيا التي لا تخلد أحداً، فلكل نفس موعد مع الموت لا بد أن يتحقق شاء الإنسان أم أبى، وهو إن يفقد اليوم أحبته ويبكيهم فسيكون هو المفقود غداً، إذ لا يبقى اثنان مجتمعان أبداً، وبالتالي فإنّ الموت، حالة عاشها وسيعيشها جميع بني البشر، وهذا الأمر بلا شك مدعاة لأن يصبر ويحتمل.

والقاسـم بـن يوسف واحد من الشعراء الذين يكثرون من التعزي في قصائدهم وغالباً ما يفتتح قصائده به، ولعلّ ذلك راجع إلى قناعته بهذه الفكرة،

---

(١) الأوراق/ ٢٠٤.

(٢) المصدر السابق / ٢٠٤.

فهــو يعلم أنَّ موت ابنه أمر مقدّر لابدّ منه، وهو مؤمن بحق الموت في ابنه ونفسه والآخرين، إلا أنّ هذا كله لا يمنعه من تأبين ابنه وبكائه ووصف حزنه وألمه تجاه فقده، فلعلّ ذلك يؤكد وفاءه له، وإبقاء وجوده في ذاكرته إلى الأبد. قال:

تاللّــــه أنســـاك مـــا تجلـــى صـــبح نهـــار المصـــبحينا
ومـــا دعـــا طائـــر هديـــلا ورجعـــت والـــه حنيـــنا[1]

ومــن الشــعراء من تعزّى بوفاة الرسول عليه الصلاة والسلام وآله، فكــان ذلــك مدعــاة لأن يخفف جزعه وحزنه، وقد روي عن الرسول عليه الصلاة والسلام أنّه قال: "تعزوا عن مصائبكم بي".[2] وقد أفاد الشاعر المتشيع دعبل الخزاعي من هذا الحديث الشريف، بل ووسع من نطاقه، فقد تعزّى عن ولــده أحمــد بوفــاة الرسول الكريم وآل بيته، ولولا هذا التأسي بهم لكان له موقف آخر كما قال:

علــى الكره ما فارقت أحمد وانطوى عليــه بــناءٌ جــندَلٌ ورزيــنُ
وأســكنتُهُ بيــتا خسيســا مــتاعُهُ وإنــي -علــى رغمــي- به لضنينُ
ولــولا التأســي بالنبــي وأهلــه لأســبلَ مــن عينــي عليه شؤونُ
هــوَ الــنفسُ إلا أنَّ آل محمــدٍ لهــم دونَ نفســي في الفؤاد كمينُ[3]

إنَّ مثل هذا الموقف ليس غريباً على شاعر كدعبل الذي قضى حياته مادحــاً لآل البيت ومدافعاً عنهم وعن حقوقهم بالخلافة، وهذا الموقف ذاته هو الــذي دفعــه إلى أن يقصر معظم قصيدته في رثاء ابنه على الحديث عن آل البيت، وما تعرضوا له من ظلم وقتل أثناء الخلافتين الأموية والعباسية، وهو لم يُسهب كعادة الشعراء في الحديث عن موقفه من الحدث أو البكاء والجزع، وكذلك لم يؤبن ابنه كما رأينا غيره من الشعراء يفعل.

---

(١) الأوراق / ٢٠٣- ٢٠٤.
(٢) الكامل في الأدب/ ج٤/ ٩١.
(٣) ديوان دعبل الخزاعي/ ١٥١.

ومن الذين جمعوا بين حال الدنيا وحال أصحابها في التعزي بشار بن برد إذ قال:

وما نحنُ إلا كالخليطِ الذي مضى ... فرائسُ دهر مخطىء ومُصيبِ
نؤمِّلُ عيشا في حياة ذميمة ... أضرّت بأبدان لنا وقُلوبِ
وما خيرُ عيش لا يزالُ مفجَّعاً ... بموت نعيم أو فراق حبيبِ
إذا شئتُ راعتني مقيما وظاعناً ... مصارعُ شُبّانٍ لديَّ وشيبِ[1]

فحال الشاعر ليس بأفضل من حال سابقيه، بل هو مثلهم فريسة للدهر وسيصيبه الموت في يوم ويذهب كغيره، وبالتالي فلا أمل له بالعيش الآمن في ظل هذه الحياة الذميمة، ولا يتوقع خيراً يصيبه، بل ذهاباً للنعيم وفراقا للأحبّة. فكل ما حوله يذكّره بحال الدنيا المتقلبة التي لا تدوم على حال، وبالموت الذي لا يترك أحداً شاباً كان أم شيباً، ولا شك أنَّ نغمة اليأس بادية في هذا الشعر، وهو نوع من اليأس الذي يُصيب المفجوع بابنه عادة.

وليس كلُّ التعزي يكون داخلياً عن طريق التفكر بحال الدنيا وأصحابها، وإنّما هناك نوع آخر خارجي يكون من الآخرين ممن هم حول الشاعر من أهل وأصدقاء ... إذ قد يكون للمخلصين منهم دور في تخفيف حدّة المُصاب على الأب، وقد يلجؤون إلى الطرق السابقة للتعزية مع التذكير بواجب الصبر؛ ليحقق الأجر الذي وُعد به الصابرون، وقد يشتدّ مثل هذا التعزي على النفس، فيصبح نوعاً من العذل إن استمر الأب في جزعه وحزنه، إننا نلمس هذا من خلال ردود الشعراء على هؤلاء المعزين.

مثال ذلك موقف ابن الرومي الذي كان فيما يبدو لي رافضاً مثل هذا النوع من العزاء. قال:

---

(١) ديوان بشار بن برد/ ج١/ ٢٨٠.

وإنـــي وإن متّعْـتُ بابنـــي بعـــده ... لذاكُـــره مـــا حنَّـــت النيـــبُ في نَجْد
وأولادُنـــا مـــثلُ الجـــوارح أيُّهـــا ... فقدنـــاه كـــان الفـــاجِعَ البيِّـــنَ الفقد
لكـــلِّ مكـــانٌ لا يسُـــدُّ اختـــلالَهُ ... مكـــان أخـــيه فـــي جزُوع ولا جَلد
هـــل العيْـــنُ بعد السمع تكفِي مكانَهُ ... أم السمْعُ بعدَ العيْنِ يَهدي كما تَهْدي[1]

فالشاعر هنا يردُّ على بعض معزيه ممن يرون أنَّ له في ابنيه الباقيين سلوة عن الذي رحل، ولكنّه لا يرى الأمر كذلك إذ إنَّ لـــه رأيا آخر في هذا ملخصـــه أنَّ الأولاد كالجوارح لكل مكانته وقيمته فكما أنَّ العين لا يمكن أن تسدّ مكان السمع، ولا يمكن للسمع أن يسدَّ مكان العين فإنّه لا يمكن للأبناء أن يسدّ أحدهم مكان الآخر، وبالتالي فلن يكون في ابنيه الباقيين عزاء وتسلية عن ابنه الراحل، وسيبقى يذكره، ومثل هذا الشعور قد لا نجده عند غير الأبوين.

ويـــردّ ابن الرومي على معزيه في مكان آخر وينعته " بالعاذل" قائلاً وقد ضاق به:

يـــا عاذلـــي فـــي مـــثل نائبتـــي ... تُلْفَـــى دمـــوع العيـــن تمتهـــن
فـــدع المـــلام فإننـــي رجـــل ... عـــدل علـــى العـــبرات مؤتمـــن
أنفقـــت دمعـــي فـــي مواضـــعه ... لا الوكـــس يلحقنـــي ولا الغبـــن
أبكانـــي ابنـــي إذ فُجعـــتُ بـــه ... لـــم تُبكنـــي الأطـــلال والدِّمـــن
وعكفـــتُ بالقـــبر المحـــيط بـــه ... فـــاعذر فـــلا صـــنمٌ ولا وثـــن[2]

فالشـــاعر يـــردُّ ردّاً حاســـماً على من يعذله لكثرة دموعه على ابنه، وعكوفـــه علـــى قـــبره بأنّه مؤتمن على دموعه عليه أن ينفقها في مواضعها الصحيحة، وليس دمعه على ابنه إلا من هذه المواضع بل- كما يرى الشاعر- هـــي أكـــثرها صـــحة، فبكاؤه على ابنه أفضل من بكاء غيره على الأطلال والدمـــن، ولعل في هذا تعريضاً آخر بالشعراء الذين ظلوا في عصر الشاعر مولعين ببكاء الأطلال تقليداً، وهو كذلك يعكف على قبر ابنه، وهذا أمر يرى

---

(١) ديوان ابن الرومي/ ج٢/ ٦٢٥-٦٢٦.

(٢) المصدر السابق / ٢٥١٦.

أنّـــه ليس مما يعذل عليه إذ لم يعكف على الأصنام والأوثان، وهذا تعريض آخـــر بالعـــرب الذين كانوا يعبدون الأصنام في الجاهلية. والمجال هنا ليس مجـــال نقـــاش أو ردّ على ابن الرومي في تعريضه هذا أوذاك إلا أنّ هذا قد يصوّر أمرين: أولهما أنّ التعزي الخارجي قد يكون غير مريح ولا يؤثر على الأب المُصاب خاصة إذا كان المعزي لا يملك الوسيلة المناسبة والقدرة الكافية للتأثير والإقناع، إذ قد تصبح التعزية عند بعضهم نوعاً من العذل وهذا ما كان من معزي ابن الرومي السابق. والأمر الثاني أنّ المصاب الشديد الذي يصيب الإنســـان قـــد يجعله يردُّ ردّاً قاسياً، وهذا ما كان من الشاعر في ردّه السابق أيضاً، وذلك لأنّه فيما يبدو كان يضيق بمعزيه، ولا يرغب بسماع عذله له في وقت كان الجزع يأخذ منه كلّ مأخذ.

هجاء الأبناء

رغـــم كـــل مـــا ذكر من مظاهر حسن العلاقة بين الأب وأبنائه وقوة أواصر الرابطة بينهما إلا أنّه وجدت مظاهر سلبية لهذه العلاقة من ذلك هجاء الآبـــاء لأبـــنائهم، وهذا الهجاء وإن كان قليلاً إلا أنّه يبقى ظاهرة موجودة قد تكـــون الغايـــة من وراء بعضها العبث واللهو كما في قول أبي دلامة يصف ابنته:

كـــأنَّ ظلاّمـــة أخـــت شـــيبان يتـــيمة ووالداهـــا حـــيّان
الـــرأس قمـــل كلّـــه وصـــئبان ولـــيس فـــي الرجليـــن إلا خـــيطان

(فهـــي التـــي يذعر منها الشيطان)[1]

إنَّ هذه الصورة التي رسمها الشاعر لابنته صورة بشعة قذرة بلا شك، ولكـــن هل من الممكن أن يصف أب ابنته بهذه الصفات؟! ربما إذا كان مثل أبي دلامة يريد أن يجعلها طرفة من طرائفه التي يبهج بها الخلفاء؛ لينال منهم مالاً وعطايا، فقد ورد في تتمة الرواية السابقة أنّه غدا إلى المنصور، فأخبره

---

(١) العقد / ج١/ ٣١٩.

بقصـــة ابنـــته، وأنشده الأبيات فقال لـــه: بأي شيء تحب أن أُعينك على قبح ابنتك هذه، فأخرج خريطة كان قد خاطها في الليل، فقال: تملأ لي هذه دراهم، فملئت، فوسعت أربعة آلاف درهم.

وممـــا روي في هذا المجال أنّه دعا السيد الحميري إلى منزله، فبكت ابنة لـــه، فحملها على عاتقه فبالت عليه فوضعها مغضباً، وقال:

بلـــلت عـــلى لا حييّـــت ثوبـــي ... فـــبال عـــليك شـــيطانٌ رجيـــم
فمـــا ولدتـــك مـــريم أُم عيســـى ... ولا ربّـــاكِ لقمـــان الحكيـــم

ثم استجاز السيد الحميري، فقال:

ولكـــن قـــد تضـــمك أم ســـوءٍ ... إلى لـــــباتها وأبٌ لـــــئيمُ[1]

إنّ ما كان يقوم به أبو دلامة هو حالة من حالات الظرف كانت السبيل إلى إيجـــاد مكـــان لـــــه فـــي مجالس الخلفاء، فيحوز على ما يحب من مال وعطاء، أو هو وليد مناسبته وليس هجاء مقصوداً لذاته.

ثانيا- شعر الأبناء في الآباء

قـــلَّ شـــعر الأبناء في الآباء في هذا العصر كثيراً إذا ما قورن بشعر الآبـــاء في الأبناء من حيث الكم، والتركيز العاطفي، وبدت الرابطة بينهما من جهـــة الابن أقل قوة، ولعلّ ذلك نابع من طبيعة العلاقة التي تربط الابن بأبيه، ففي حين أنَّ الأب يقدم جلّ حياته في رعاية أبنائه وإغداق أنواع الحب عليهم، نجد أنَّ الأبناء قد لا يقابلون آباءهم بمثل هذه العواطف في القوة والمقدار، بل يـــتجهون غالـــباً بعواطفهم واهتمامهم لأبنائهم، وهكذا تستمر دورة الحياة التي أرادهـــا الله لبـــني البشر بطريقة ممكنة ومعقولة إذ إنَّ غالبية الناس سيأخذون قســـطاً مشابهاً لما يأخذه بعضهم عن بعض، فهم سيمرون بمرحلة البنوَّة أولاً فيـــأخذون من آبائهم المحبة والاهتمام، وعندما يصبحون آباء يغدقون مثل هذه

---

(١) بدائع البدائه /١٢٠.

المحبة على أبنائهم، وهكذا... ومن الطبيعي والحال هكذا أن يقل شعر الأبناء في آبائهم، ويقتصر قوله في ظروف ومناسبات محددة.

رثاء الآباء

من المناسبات المهمة التي أكثر فيها الشعراء من قول الشعر في آبائهم الوفاة إذ رثى بعض الشعراء آباءهم بأشعار فيها كثير من مشاعر البنوّة الصالحة. منهم إسحاق بن إبراهيم الموصلي إذ قال موضحا أثر موت أبيه عليه وعلى الآخرين:

سلامٌ على القبر الذي لا يُجيبنا ... ونحن نحيِّي تربَه ونخاطبه
ستبكيه أشراف الملوك إذا رأوا ... محلَّ التصابي قد خلا منه جانبُهْ
ويبكيه أهلُ الظَّرف طُرّا كما بكى ... عليه أميرُ المؤمنين وحاجبُهْ
ولما بدا لي اليأسُ منه وأنزفت ... عيونُ بواكيه وملّت نوادبُهْ
وصار شفاءُ النفس من بعض ما بها ... إفاضةَ دمع تستهلّ سواكبُهْ
جعلت على عيني للصُبح عَبْرةً ... وللّيلِ أُخرى ما بدت لي كواكبُهْ[1]

فالشاعر يشير إلى منزلة أبيه إبراهيم الموصلي- المغني- في مجالس اللهو والطرب في قصور الخلفاء والأمراء، فهذه المجالس ستفقد بموته عنصراً مهما من عناصرها، إذ فقدوا بفقده صديقاً مقرّباً. أما الابن، فقد حزن وتألم لموت أبيه، ثم لم يلبث أن بكاه بدمع غزير آملاً من هذا الدمع أن يخفف على نفسه بعض ما تجد، وهو يؤكد على ديمومة بكائه لأبيه ما ظهرت له كواكب الليل، إذ إن ذكرى أبيه، وحبّه له سيبقيان ما بقي حيا، وما طول بكائه هذا إلا دليل على هذه الاستمرارية التي تمثل وفاء الابن لأبيه الراحل. ومن الشعراء الذين وصفوا حالهم إزاء وفاة آبائهم عبد الله بن أحمد بن يوسف. قال:

---

(١) ديوان إسحاق الموصلي/ جمع وتحقيق ماجد أحمد العزّي/ مطبعة الإيمان/ بغداد / ط١/١٩٧٠/٨٩، وانظر كذلك الأغاني /ج٥/٢٥٧.

تطـــاول فـــي بغـــداد ليلي وضافني نـــزيلا جـــوى بين الحشا والترائب
أناخـــا علـــى صـــبري فخلى مكانه لفقـــد أب بـــرّ جـــزيل المواهـــب[1]

فقد طال ليل الشاعر وصحب ذلك حزن وجوى على والده الذي رحل فأتـــيا علـــى كـــل صبر ممكن، كيف لا وقد كان أبوه مثالاً في البر والسيادة والخلق. قال:

أبـــا جعفـــر يـــا خـــير وائـــل كلها إذا نزلـــت بالـــناس إحـــدى النوائب
وراحـــت أفـــال الشول غرثي تشكها شـــآمية ترمـــي الوجـــوه بحاصـــب
وحامـــيهم أن صـــبحتهم مغـــيرةٌ علـــيها المـــنايا فـــي صدور الكتائب
فـــتى كـــان مـــثل السيف إن هززته أتـــى حـــدّه دون الطلـــى والغوارب
لـــه شـــيمة عـــند المحامـــة فظـــة تشـــيم العـــدا مـــنها بروق المعاطب
وتملكـــه عـــند الـــندى أريحـــية تحكـــم فـــي أموالـــه كـــلّ راغـــب
تخـــال بـــه ليـــثا وغيـــثا وســـنّة مـــن الـــبدر تجلو مسدفات الغياهب
إذا يـــده بلّـــت بقـــائم ســـيفه هـــوت قمم الأعداء من كل جانب[2]

فالشاعر يشيد بمناقب أبيه المتمثلة في الشجاعة والكرم، فشجاعته من نـــوع خـــاص، فهو حامٍ لقومه في أوقات الشدة يتقدم فرسانهم، ولـــه أخلاق وشـــيم ترهـــب الأعـــداء وترضخهم لـــه، وكذلك هو كريم معطاء لقومه إن أصـــابهم عـــوز أو حاجـــة؛ غيّاث لهم في كل حال، وبالتالي فإنّ من كانت صفاته، كذلك، فإنّ خسارة أهله وقومه به كبيرة، والجزع ونفاذ الصبر أقل ما يمكن أن يُصاب به ابنه.

ومـــن الذين رثوا آباءهم كذلك هبة الله بن إبراهيم بن المهدي مشيراً إلى مكانة أبيه بين الناس. قال:

---

(١) الأوراق/ ٢٣٨.

(٢) المصدر السابق/٢٣٨.

الحمـــد لله علـــى مـــا أرى ... أفقدنـــي المـــوت لذيـــد الكـــرى
أصـبح أعلـى الـناس فـي قـدره ... منخفضـا يعلـو علـيه الـثرى
قـد وتـر المـوت الـورى كلهـم ... بمـوت إبراهـيم خـير الـورى[1]

لا بـدّ هـنا من الإشارة إلى أمر وهو أنَّ الأبناء وإن طرقوا في رثاء آبـائهم قضية ديمومة البكاء والحزن والجزع عليهم، إلا أنّ هناك فرقاً شاسعاً بين مشاعر الابن تجاه أبيه، ومشاعر الأب تجاه ابنه، فقد كان الأب يبكي ابنه بمزيد من الحسرة والألم، وبالتالي فإنَّ إصراره على ديمومة البكاء كان أكبر بكثير مما هو عند الابن.

أمّـا الـتعزي والصـبر على المصاب بفقد الأب، فهو قليل في شعر الأبـناء، قال إسحاق في أبيه وقد غلبه وجده وحزنه على فراق أبيه، فلم يدع مجالاً لعزاء أو صبر خاصة عند تفكّره في أمر موته وعلمه بأنَّ لا لقاء معه إلى يوم الحشر:

لقـد عزّنـي وجـدي عليك فلم يدع ... لقلبـي نصـيبا من عزاء ولا صبر
وقـد كنـت أبكـي مـن فراقك ليلة ... فكيف وقد صارَ الفِراقُ إلى الحشرِ[2]

ولكنَّ الشاعر حاول تجاوز المحنة قائلاً:

أظـلُّ كأنـي لـم تُصـبْني مصيبةٌ ... وفـي الصـدرِ من وَجْد عليك بلابلُ
وهـوّنَ عـندي فقـدَه أنَّ شخصَـهُ ... علـى كـل حـالٍ بين عينيّ ماثلُ[3]

فالشـاعر كغيره من الناس يظهر عجزه أمام الموت، ولكن لا بُدَّ من الاسـتمرار في الحياة رغم ما يصادف الإنسان من مصاعب ومتاعب، فلا بُدّ لـه من تجاوز المحنة، والاستمرار في الحياة مع وجود الألم والحزن لفقد أبـيه، ولعلَّ الاستمرار في الحزن والألم هو تعبير آخر عن خلوده في نفسه،

---

(١) أشعار أولاد الخلفاء/ ٥٣.
(٢) ديوان إسحاق الموصلي/ ١٣٠، والأغاني/ ج٥/ ٢٥٧.
(٣) المصدر السابق/ ١٧٣.

وهذا ما يخفف من مصابه، ولكن ليس هو ذاك الحزن الذي رأيناه عند الآباء، ولا هو ذاك الصبر الذي عجز عنه الآباء عند فقدهم أبناءهم، وإنّما هذا جزء قليل منه، وهنا لا بد من ذكر أمر هو إلى جانب الأبناء من حيث الحزن على آبائهم وتقبلهم للحدث بصورة أكثر هدوءاً من الآباء، وكذلك إمكانية الصبر والعزاء ومحاولة تجاوز المحنة، ذلك أنّ موت الآباء غالباً ما يكون متوقعاً من قبل الأبناء إذ قد يكونون في سن متقدمة، أمّا موت الأبناء فغالباً ما يكون مفاجئاً بالنسبة للأب سواء أكان ذلك في سن الطفولة أم في سن الشباب، ومن هنا فقد استقبل الآباء موت أبنائهم بفزع كبير كان مشوباً بالسخط عند بعضهم كما رأينا عند ابن الرومي، ثم إنّ بكاءهم وجزعهم كان أكثر ديمومة، بالإضافة إلى العجز عن الصبر والعزاء وعدم قدرة كثيرين منهم على تجاوز المحنة، ولهذه الأسباب جميعاً فقد وعد الله الصابرين على فقد الولد خاصة بحسن الجزاء، ولم يكن ليخصّهم الله بهذا الوعد إلا لعلمه عزّ وجل بكبر المصاب، بل ربما رأوا أنّ عليهم واجباً مهماً تجاه آبائهم في مثل هذا المصاب من حسن الدعوة والاسترحام وطلب المغفرة لهم، وهذا من أهم ما يميّز شعر الأبناء في رثاء الآباء. قال محمد بن أبي العتاهية في رثاء أبيه:

يا أبي ضمّك الثرى ... وطوى الموتُ أجمعَك
ليتني يوم مُتّ صر ... ت إلى حفرة معَك
رحم الله مصرعَك ... بردّ الله مضجعَك[1]

فمثل هذا الرثاء لا يحوي من الجدية في الحزن والعواطف تجاه الأب سوى الدعاء له بالرحمة من الله، وبالراحة في مستقره الأخير.

أمّا إسحاق بن إبراهيم الموصلي، فقد ابتدأ ثلاث مقطوعات له في رثاء أبيه بالسلام عليه إذ قال:

أقول له لما وقفت بقبرِهِ ... عليكَ سلامُ اللهِ يا صاحبَ القبرِ[2]

---

(١) الكامل في الأدب/ج٤/ ٢٣.

(٢) ديوان إسحاق الموصلي/ ١٣٠، والأغاني/ج٥/٢٥٦.

وقال:

سـلامٌ علـى القـبرِ الذي لا يُجيبنا ونحـنُ نحيـي تـربَه ونخاطبهْ [1]

وقال:

علـيكَ سـلامُ اللهِ مـن قـبر فاجعٍ وجـادكَ مـن نورِ السماكين وابلُ[2]

إنَّ مـثل هذا الإسلوب من إلقاء السلام وطلب الرحمة والمغفرة للأب المـتوفى، وكذلك طلب السقيا للقبر كان من اهتمامات الشعراء الواضحة في رثـاء آبـائهم إذ ربما كان من أهمّ ما يحتاج إليه المتوفى، وقلما نجد هذا في رثـاء الأبـناء لسببين: أولهما أنَّ الآباء شغلوا بالجزع والبكاء والحزن على الابن. وثانيهما أنَّ كثيراً من الأبناء المذكورين في الشعر ماتوا أطفالا أو شباباً صـغاراً لم يقترفوا ذنوباً يخشى عليها عدم الغفران، ومن هنا فقد قلّ اهتمام الشعراء بمثل هذه الأدعية كما هو شائع في شعر رثاء الآباء.

عقوق الآباء

قد لا تسود المحبة والاحترام علاقة الأبناء بآبائهم دائماً إذ قد تضعف الروابط بينهما لأسباب كثيرة منها المادية، ومنها الاجتماعية ومنها السياسية، وقد تتحول أحياناً إلى بغض وكره، فيسوم الابن أباه ألواناً من الهوان ضارباً بتعالـيم الدين والأعراف الاجتماعية عرض الحائط، فقد حثّت الآيات القرآنية الكـريمة الأبـناء على الرفق بآبائهم، وحسن معاملتهم قال تعالى : ﴿ **وَقَضَى رَبُّـكَ ألا تَعْبُدُوا إلا إيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إحْسَاناً** ﴾ [3]، وقد حذّرت بعض الأحاديث الشريفة من عقوق الوالدين وعدّته من الكبائر، فقد ورد عن رسول الله ﷺ أنّه

---

(١) ديوان إسحاق الموصلي / ٨٩.

(٢) المصدر السابق / ١٧٣.

(٣) الإسراء/ ٢٣.

سئل عن الكبائر فقال: « الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغموس »[1].

لقد جعل الرسول عليه السلام عقوق الوالدين مع الشرك بالله في مرتبة واحدة، ومع هذا فقد وجد عاقون لآبائهم في هذا العصر، بل لقد هجا بعضهم آباءهم هجاء مُرّاً على نحو ما سنرى.

تضمّن الشعر العباسي بعض الاعتقادات الاجتماعية الشائعة في هذا المجال، تؤكد أنّ من يعقّ أباه لا بد أن يأتي يوم يعقه فيه بنوه، وهذا واضح في عائلة الشاعر العباسي يونس بن الخياط الذي قال فيه أبوه:

يونس قلبي عليك يلتهفُ ... والعينِ عبرى دموعها تَكِفُ
تلحفني كسوة العقوق فلا ... برحتَ منها ما عشتَ تلتحفُ
أُمرتَ بالخفض للجناح وبالر ... ق فأمسى يعوقك الأَنَفُ
وتلك والله من زبانية ... إنْ سلطوا في عذابهم عَنُفوا[2]

وقد أجابه ابنه مذكراً إياه بعقوقه لوالده في السابق، وجاء الآن دوره ليعقّه أبناؤه:

أصبح شيخي يُزري به الخَرف ... ما إن له حرمة ولا نَصَفُ
صفاتنا في العقوق واحدة ... ما خلتنا في العقوق نختلف
لحفتهُ سالفاً أباك فقد ... أصبحتَ مني كذلك تلتحف[3]

وقد جمع يونس هذا عقوق أُمه وأبيه معاً، فقد روى صاحب الأغاني أنّه كان عاقّاً لأمه وأبيه معاً، وكان يُجاهر بذلك، فقد ذُكر أنّ أحدهم أتى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل عن والد يونس إثر سماعه بعض شعره، فأوصله لعنده وبعد سؤاله إياه عن الشعر أشرع يده إليه بشيء وجزاه خيرا. فقال يونس: فبادرت فأخذت بيد السائل، وقلت لا تعجل فإني قد قلت

---

(١) مسند أحمد بن حنبل/ ج٢/ ٢٠١.
(٢) معجم الأدباء/ ج٢٠/ ٦٧.
(٣) المصدر السابق/ ج٢٠/ ٦٨.

شـــعراً أجود من شعره. فقال أبي: ويلك يا يونس... تحرمني. فقلت دع عنك هذا فوالله لا تجوع امرأتي وتشبع امرأتك. فسئل يونس ومن كانت امرأة أبيك يومئذ. فقال: أُمي، وجمعت والله عقوقهما... .[1]

والعقوق كما يُقال دين، فقد روى صاحب الأغاني أيضاً قال: مرّ رجل بـــيونس بن عبد الله الخياط وهو يعصر حلق أبيه، وكان عاقّاً لـــه فقال لـــه: ويلك أتفعل هذا بأبيك، وخلّصه من يده، ثم أقبل على الأب يعزيه، ويسكّن منه فقـــال لـــه، الأب يا أخي لا تلمه، واعلم أنّه ابني حقاً، والله لقد خنقت أبي في هذا الموضع الذي خنقني فيه".[2]

ونشأ ليونس هذا ابن يقال لـــه دحيم، فكان أعقّ الناس به- كما تذكر الروايات، فقال يونس فيه:

جـــلا دحـــيم عَمايـــة الريِّـــب ... والشـــك منـــي والطعـــن في النسب
مـــا زال بـــي الظـــن والتشكك حتـــ ... ـى عقّنـــي مـــثل مـــا عقَقـــت أبي[3]

ولم يكتفِ بعض الأبناء بمثل هذا النوع من العقوق، وإنّما هجوا آباءهم هجـــاءً مراً، ومن هؤلاء مطيع بن إياس الذي قال عندما رأى أباه مقبلاً نحوه وهو يشرب مع إخوانه:

هـــــذا إيـــــاسٌ مُقـــــبلاً ... جـــاءت بـــه إحـــدى الهَـــنَات
هـــــوّز فـــــوه وأنفـــــه ... كَلَمُـــنَ فـــي إحـــدى الصـــفات
وكـــــأن ســـــعفص بطـــــنه ... والـــــثغر شـــــين قُرَيْشـــــات
لمـــــا رأيـــــتك آتـــــيا ... أيقنـــــتُ أنـــــك شـــــر آت[4]

إنَّ الضـــيق يبدو واضحاً لدى الشاعر عند رؤيته لأبيه نتيجة لشعوره تجاهـــه، فالروايات تقول أنه كان شديد البغض لـــه؛ لذا لم يرَ في إقباله نحوه

---

(١) الأغاني/ ج٢٠/ ٢، ومعجم الأدباء/ ج٢٠/ ٥.
(٢) المصدر السابق/ ج٢٠/ ٦ .
(٣) نفسه/ ج٢٠/ ٨ .
(٣) نفسه/ ج١٣/ ٣٢٣. الهنات: الشرور والفساد.

سوى قدوم الشر، وبعد ذلك يهجوه هجاء ماديا إذ يركز على وصف شكله الخارجي، والذي يبدو من خلاله أنه كان مسنا إذ إنّ علامات الشيخوخة من تجعد وتشقق في أنحاء جسمه كانت بادية للعيان، وكذلك شكل أنفه وفمه بما فيهما من جروح وتشققات ربما كانت من علامات الكبر وبصمة من بصمات الزمن المنقضي. ولعلَّ هذا الهجاء يعبّر عن ضيق الشاعر وتبرمه بوالده، فهو يجسد الشر بالنسبة لـه يتبعه، ويراه مقبلاًفي كل مكان يكون فيه.

ومن الذين عُرفوا بكثرة هجائهم لآبائهم ابن بسام الذي يُعد من العاقين لآبائهم، فقد بلغ به كره والده أنَّه تمنى له الموت صريعاً في داره الجديدة. كما قال:

شددت داراً خلتها مكرمةً ... سلَّط الله عليها الغرقا
وأراني صريعاً وسطها ... وأراني صعيداً زلقا[1]

ومن أشعاره في هذه الدار قوله:

بنى أبو جعفر داراً فشيّدها ... ومثله لخيار الدور بنّاء
فالجوع داخلها والذل خارجها ... وفي جوانبها بؤس وضراء[2]

يبدو أنَّ لكره ابن بسام لوالده أسباباً، قد ذكر بعضها الدكتور شوقي ضيف حيث قال إنها سياسية إذ إنَّ أباه كان موالياً للعباسيين في حين كان هو متشيّعاً ممَّا دفعه إلى هجائه حتى عدّ في العققة الذين لا يبرّون آباءهم بل لا يجحدون فضلهم، وله فيه أهاجٍ كثيرة.[3]

وأيَّاً كانت الأسباب وراء عقوق الأبناء وهجائهم لآبائهم وهجائهم لهم فهي حالات قليلة وهي وإن وجدت في نفوس بعض الأبناء، فقلما يتظاهرون

---

(١) زهر الآداب/ ج٢/ ٦٧١.

(٢) العصر العباسي الثاني/القاهرة/ ١٩٧٣/ د. شوقي ضيف/ط٦/ دار المعارف/ القاهرة/ ١٩٧٣/٤٣٩

(٣) المصدر السابق/ ٤٣٩.

بإبـــرازها للعـــيان، ولكـــنها تبقى على أية حال ظاهرة موجودة لها أسبابها ومظاهرها.

ولعـــلَّ من أسبابها المهمة في هذا العصر النزاع حول الخلافة إذ قلما يـــتوقع المرء أن ينافس الابن أباه في سلطانه خصوصاً أنَّ الأب أحق منه به بالإضـــافة إلى أنّ هذا الأمر سيؤول إليه عاجلاً أم آجلاً، فاذا أضفنا هذا كلّه إلـــى واجبات الابن تجاه أبيه فإنّها تمنعه من الغدر به، ولكن ذلك لم يمنع من وجـــود التـــنافس بين الآباء والأبناء، من ذلك الصراع الذي نشأ بين المتوكل وابنه المنتصر، إذ رأى المتوكل أن يتخلص من الأتراك، ولكن ابنه المنتصر كان يُشايعهم " فعزم المتوكل أن يفتك بالمنتصر، ويقتل وصيفاً وبغا، وغيرهما من قواد الأتراك ووجوههم، وعزموا على الفتك به".[1] وانتهى الأمر بأن قام المنتصر وأعوانه بقتل المتوكل. وقد أكثر البحتري من وصف هذه الحادثة، إذ إنّه كان قد حضرها.

ومن آثار السياسة على العلاقة الأبوية أيضاً فقدان الثقة بينهم، وإقامة الرقـــباء علـــى بعضـــهم بعضـــاً، وقد شاعت مثل هذه المواقف في الخلافة العباسية، فقد كان الخليفة يُقيم الجواسيس والرقباء على أولاده أو إخوته، ويقيم ولاة العهـــد الرقـــباء على آبائهم كما فعل الأمين والمأمون بأبيهم الرشيد، فقد كـــان رقيـــب المأمون على أبيه مسروراً الخادم، ورقيب الأمين جبرائيل بن بختيشوع الطبيب... .[2]

ولـــم تكـــن السياســـة وحدها هي السبب في إضعاف روابط العلاقة الأبويَّـــة، بل قد يثور النزاع بين الأب وابنه بسبب جارية كالذي كان بين أبي دلامـــة وابنه، فقد ذكر صاحب الأغاني أنَّ الخيزران أرسلت إحدى جواريها إلـــى بيـــت أبي دلامة وأعلمتها بأنها أصبحت ملكه، ولما عرفت زوجة أبي دلامة بقصتها أقنعت ابنها بأن يدخل إلى الجارية، ويخبرها أنها أرسلت إليه،

---

(١) ظهر الإسلام/ أحمد أمين/ دار الكتاب العربي/ بيروت- لبنان/ ١٩٤٥/ط٣/ ج١/ ٥١٠.

(٢) الكامل في التاريخ/ ج٦/ ٨٣.

ففعل، وعندما علم أبو دلامة بالخبر غضب كثيراً، وثار النزاع بينه وبين ابنه وشكاه إلى الخليفة.[1]

إلا أنَّ النزاع بين الأب وابنه على الجواري لم يكن كله كنزاع أبي دلامة وابنه الذي فيه من الظرف والفكاهة أكثر مما فيه من الجدّ، فهناك ما هو أكثر خطورة كما في قصة جعيفران الموسوس إذ قيل إنَّ أباه كان دهقان الكرخ ببغداد، وكان يتشيع، فظهر على ابنه أنه خالفه إلى جارية سرية، فطرده عن داره، وحجّ فشكا ذلك إلى موسى بن جعفر، فقال له موسى: إنْ كنت صادقاً عليه، فليس يموت حتى يفقد عقله، وإن كنت قد تحققت ذلك عليه من فعله، فلا تساكنه في منزلك، ولا تطعمه شيئاً من مالك في حياتك، وأخرجه عن ميراثك بعد وفاتك، فقدم فطرده من منزله، وسأل الفقهاء عن حيلة يُشهد بها في ماله حتى يخرجه بها عن ميراثه، فدلّوه على السبيل إلى ذلك، فأشهد به وأوصى إلى رجل، فلما مات حاز الرجل ميراثه، ومُنع جعيفران، فكان هذا سبب اختلاط عقله[2].

ولا يهمني صحة هذه الرواية كثيرا، وإنما المهم هو الإشارة إلى دور الجواري في إثارة النزاع بين الابن وأبيه، وما قد يؤدي ذلك من تصدع في العلاقة الأبوية خاصة، والأسرية عامة.

ثالثاً ـ الأبوّة في شعر المناسبات

التعزية بالأبناء

اتسع نطاق شعر المناسبات في العصر العباسي اتساعاً كبيراً، إذ إنَّ الشعراء شاركوا الخلفاء والوزراء والأصدقاء أحزانهم مثلما شاركوهم أفراحهم، فقد نظموا التعازي وأنشدوها إياهم تعزية لهم عمن فقدوا، قال الدكتور شوقي ضيف..." ولما جاء الإسلام، ونشأت طبقات الخلفاء والولاة

---

(١) الأغاني/ ج ١٠/ ٢٦٣ وما بعدها.

(٢) المصدر السابق / ج٢٠ / ١٨٨.

وأخـذت تجتمع حول كل خليفة وأمير أو حاكم كبير طبقة من الشعراء تقف نفسـها على مديحه وتسليته إن أراد التسلية رأينا هذه الطبقة تعمد حين تلمّ به مصـيبة إلـى تعزيـته فيها".[1] ويتابع فيقول : "ودار أكثر ما دار حول فقد الأولاد، وفلـذات الأكباد، فكان الشاعر إذا مات ابن لخليفة يُبادر إلى تخفيف بلـواه فيه بأبيات تحدّ من لوعته، وتكسر من فجيعته".[2] ومن هنا اتسع نطاق شعر التعازي، ولم يقتصر الشعراء في تعازيهم على أبناء الخلفاء والوزراء، بـل أصبح الشعراء يعزون كذلك أصدقاءهم إن فقدوا أحد أفراد أسرهم، وقد أخـذت التعزية بالأبناء نصيباً كبيراً من اهتمام الشعراء، وهذا أمر طبيعي إذ إنّ الحزن على الأبناء ربما يفوق كلّ حزن.

تشـابهت تعـازي الشـعراء فـي كثير من معانيها، ومن أهمها حثّ المفجـوع بابـنه على الصبر والتأسي بحال الدنيا، وحال أصحابها من تغيّر وتحـوّل، فـالموت حق على جميع بني البشر، ولن يسلم منه أحد سواء أكان ملكـا أم سـوقة، غنياً أم فقيراً، ذكراً أم أُنثى؛ لذا ما على الناس إلا تقبل هذا الأمر بمزيد من الصبر، فهو الأمر الوحيد الذي تحمد عاقبته.

وفي هذا قال ابن الرومي متحدّثاً عن تغيّر الدهر وانقلابه محاولاً إقناع معـزيه بـأنّ وفاة ابنه ما هي إلا لون من ألوان هذا التغيّر الذي يُصيب بني البشر في حياتهم:

ونحـن بـذور الدهـر والدهرُ زارع ... ونحـن زروع الدهـر والدهرُ حاصد
وتـاللهِ مـا مولّـى لمـولاه خـالد ... ولا الحـزنُ مـن مولـى لمولاه خالد
غدا الموت والسلوان حتما علي الورى ... كـلا ذا وهـذا للفريقيـن راصـد
فـلا تجعلـن المـوت نُكـراً فإنمـا ... حـياة الفـتى سَيْرٌ إلى الموت قاصد
ولا تحسـبنّ الحـزن يـبقى فإنـه ... شـهاب حـريق واقـد ثـم خامد[3]

---

(١) الرثاء/ ٨٨.

(٢) المصدر السابق / ٨٨.

(٣) ديوان ابن الرومي/ ج٢/ ٨٠٠.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

ويتابع ابن الرومي فلسفته لطبيعة الحياة قائلا:

ستألف فقْدان الذي قد فقدته ... كإلفك وجْدانِ الذي أنت واجدُ
على أنه لا بُدْ من لذْع لوعة ... تهب أحايينا كما هبّ راقد
ومن لم يزل يرعَى الشدائد فكره ... على مهلٍ هانت عليه الشدائد
وللشر إقلاعٌ، وللهم فرْجَةٌ ... وللخير بعد المؤيسات عوائد
وكم أعقبت بعد البلايا مواهب؟ ... وكم أعقبت بعد الرزايا فوائد
وكم سيءٍ يوما سيقفوه صالح ... وكم شامت يوما سيقفوه حاسد
تعزَّ حجاً قبل السلُو على المدى ... فمثلك للحسنى من الأمر عامد[1]

إنَّ الغاية من كلّ هذه الأمثلة التي ضربها ابن الرومي والتي أطال فيها وكرر بعضاً منها هي الوصول إلى مراده في بيته الأخير، والذي يطلب فيه مباشرة من معزيه التعزي بما سبق عن ابنه إذ إنّه بما يملك من رجاحة عقل قادر على أن يفعل.

وابن الرومي واحد من أكثر شعراء العصر العباسي قدرة على الإسهاب في الحديث عن الحياة وانقلابها لطول نفسه في الشعر، وبسبب طبيعة الحياة التي عاشها إذ إنّه من أكثر الناس قدرة على فهم طبيعة الحياة، ومعالجة رزاياها، فقد فَقَدَ ثلاثةً من أبنائه وزوجته بالإضافة إلى أمه وأبيه مما ألهب نفسه ثورة على الحياة، ولكن مع ثورته تلك لا يلبث أن يهدأ استسلاماً؛ لذا فإنّنا هنا وفي تعازيه الأخرى نجده أكثر هدوءاً وتعقلاً من تلك القصائد التي يرثي فيها أبناءه خاصة، وبقية أهل بيته عامة. وبما أنَّ مصير الإنسان شاء أم أبى على هذا النحو، وبما أنَّ قضاء الله أمر لا رجعة فيه، فما على المفجوع بابنه سوى الصبر الذي هو أفضل ما يمكنه عمله. قال:

فصبراً، فإنَّ الصبرَ خير مغبَّة ... وهل من مَحيد عنه إن حاد حائد؟[2]

---

(١) ديوان ابن الرومي / ج٢/٨٠١

(٢) المصدر السابق / ج٢/ ٨٠٠.

لقد أكثر الشعراء من الحثّ على الصبر؛ لأنه المحمود هنا، ولأنَّ الله وعد الصابرين والصابرات حسن الثواب، وقد وقف الشعراء في مراثي الخلفاء بأبنائهم عند فكرة الاحتساب وطلب ما عند الله وأكثروا من ذلك".[1] والحقيقة أنَّ الوقوف عند فكرة الاحتساب لم يكن فقط في مراثي الخلفاء بأبنائهم إذ إنّ الشعراء وقفوا عند هذه الفكرة في مراثيهم لأبنائهم، وغير أبنائهم من أبناء خلفاء وغير خلفاء.

ومن الشعراء الذين تحدثوا عن فوائد الصبر ابن الرومي الذي قال متابعاً بيته السابق:

وقد فُزتَ أن أصبحت عبداً مُسلِّما ... لما أوجبتْهُ في الرقاب القلائد
لك الأجر تعويضا من الله وحده ... ومن خلْقه حُسْنُ الثنا والمحامد
ولله لطفٌ في العزاء لعبده ... وإن مسّه جَهْد من الحزن جاهد
هو الجارح الآسي ولا شك أنَّهُ ... سيشفي الحشا المجروح مما يكابد[2]

فهو يُشير إلى الأجر الذي أعدّه الله للصابرين في الآخرة على وفاة فلذات أكبادهم ألا وهو الدرء من النار، ولكنه ليس كغيره من الشعراء الذين يكتفون بهذا الأجر المعد لهم في الآخرة، وإنّما يُشير إلى أجر من نوع آخر، وهو الحمد والثناء من قبل الناس، وكذلك لطف العزاء من الله تعالى في الحياة الدنيا، وحسن التعويض.

ومن الذين دعوا للصبر، ووقفوا عند فكرة الاحتساب الشاعر أبو العباس الذي قال في تعزية المعتضد بابنه هارون:

صبراً، فديناك إنَّ الصبر عادتُنا ... وإن طُوينا على حزن وتهيام
فبادر الأجرَ نحو الصبر محتسباً ... إن الجزوع صبورٌ بعد أيام[3]

---

(١) الرثاء/ ٨٩.

(٢) ديوان ابن الرومي/ ج٢/ ٨٠٠.

(٣) زهر الآداب /ج٢/٧٧٣.

ومـــن الذيـــن تحدثوا عن الأجر المعد للمفجوع بابنه فأحسن، الشاعر البحتري في تعزيته للمعتز بالله عن بعض ولده إذ قال:

هـــو الذخـــر من دنياك قدمت فضلَهُ ولا خـــير فـــي الدنيا إذا لم يكن ذخر
نعـــزيك عـــن هـــذي الـــرزيّة إنها علـــى قدر ما في عظمها يعظم الأجر

فهو قد قدم ابنه ذخراً لـــه عند الله يوم القيامة إذ لا تحسن الدنيا دون أن يقـــدم صاحبها فيها شيئاً لآخرته، وبما أنَّ مصيبته في ابنه كانت عظيمة، فكذلك سيكون الأجر عليها، وما عليه لحين قبض ذاك الأجر إلا الصبر، فهو خير ما يحتاجه لتجاوز هذه المحنة الكبيرة.

ومـــن المعانـــي الأخرى في قصيدة التعزية بالابن الإشادة بالمتوفى، وتعداد مناقبه كأنهم يرون في ذلك ما ينفّس بعض الشيء عن الأب الحزين،[1] وذلـــك بتصـــويرهم مدى خسارة أبيه به، فهم يشاركونه عمق جرحه، وكبر مأساته. قال أبو تمّام في تعزية عبد الله بن طاهر عن ولدين توأمين ماتا له:

لهفـــي علـــى تلـــك المشـــاهد منهما لـــو أمهلـــت حـــتى تكـــون شمائلا
لغـــدا ســـكونهما حجـــىً وصـــباهما حكمـــا وتلـــك الأريحـــية نـــائلا
إنَّ الهـــلال إذا رأيـــت نمـــاءه أيقنـــت أن ســـيكون بـــدرا كاملا[2]

فالشاعرُ يشيد بالفقيدين اللذين لم تتح لمناقبهما الفرصه لتكتمل وتظهر للـــناس، وإنَّما بدا منها معالم وإشارات تدل على أنه لو مُدّ في عمرهما لملكا كثـــيراً مـــن صفات العقل والمنطق والكرم، كالهلال الذي عندما يظهر نموه لرائيه يدرك أنه سيصبح بدراً كاملاً.

وشبيه ذلك قول ابن الرومي معزيّاً أحدهم عن ابنه:

---

(١) الرثاء/٩٠.

(٢) زهر الآداب/ ج١/٢٣٣.

مضـــى ابـــنُك والآمالُ تكنُفُ نعشَه وتبكـــيه للمعـــروف وهـــي حواشد
ولـــو عاش عاشت في ذراه وأورقتْ لهـــا مـــن عطايـــاه غصونٌ موائد[1]

وهكـــذا فقد شارك الشعراء الآباء في حمل عبء الفاجعة على أبنائهم بـــتعداد مناقـــبهم وبكائهـــا إن كانوا بلغوا من العمر سناً كافياً لحملها، وبكاء أمانـــيهم الضائعة إن كانوا ما زالوا أطفالاً أو رضّعاً في المهد، فقدموا للآباء خير مساعدة أهلتهم لحمل ثقل المصاب، وتجاوز المحنة.

ولم يكتف الشعراء بتعداد مناقب الفقيد، بل أشادوا بالأب وقاموا بمدحه وتعداد مناقبه، ولَعلَّ ذلك راجع إلى رغبة الشاعر بتخفيف حزن الأب بتذكيره بمـــا هو عليه من صفات وأخلاق تؤهله لتجاوز مصابه، ومن ذلك قول أبي العباس في الخليفة المعتضد في تعزيته إياه بابنه:

يـــا ناصـــرَ الديـــن إذ هدّت قواعدُهُ وأصـــدقَ الـــناس فـــي بؤس وإنعام
وقـــائد الخـــيل مـــذ شـــدّت مآزرهُ مذلّـــــلات بإســـــراج وإلجـــــام
وســـائس الملـــك يـــرعاه ويكلـــؤه إذا حـــلا الغمـــض فـــي أجفان نوام
لا يشـــتكي الدّهـــر إن خطب ألمّ به إلا إلـــى صـــعدة أو حدّ صمصام[2]

فالمديح لوالد المتوفى إذاً لم يكن خارجاً عن موضوع قصيدة العزاء، وإنَّمـــا وظّفـــه الشاعر توظيفاً جيداً، إذ استطاع أن يسترجع من خلال تعزيته بابـــنه مـــا وهبه الله من صفات وأخلاق عظيمة تؤهّله لتجاوز المحن؛ لذا لا يجوز منه أن يتوانى أو يضعف. إنّ هذه وسيلة من وسائل الشاعر يُساعد فيها الأب على التماسك وعدم الانهيار.

ولم ينسَ الشاعر في قصيدة العزاء أن يدعو للأب بطول العمر، فكأنّ طول عمره تعويض عما ضاع من عمر الابن:

ويحـــبوك بالعمـــر الطويـــل مُـــتابعا لـــك الـــرّفدَ والمبـــتزُّ إن شاء رافد[3]

---

(١) ديوان ابن الرومي/ ج٢/ ٧٩٩.
(٢) زهر الآداب/ ج٢/ ٧٧٣.
(٣) ديوان ابن الرومي/ ج٢/ ٨٠٠.

ومـــن دعائهم أيضاً أن تكون قصيدة العزاء المرسلة آخر القصائد من نوعها، ويحلّ مكانها قصائد المدح والثناء. قال ابن الرومي:

وزارتكُـــمُ بـــالمدح كـــلّ قصـــيدة ولا قصـــدتكم بالمراثـــي القصـــائد[1]

لـــم تعد التعزية بالابنة غريبة عند كثيرين في هذا العصر، بل شاعت وكثرت، ولم تكن كذلك في العصور السابقة، بل كانت قليلة ونادرة. ولعل ذلك عـــائد إلى تراجع قيمة الابنة أمام قيمة الابن إذ إنّ العرب كانت تكره أن تلد البـــنات، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله: ﴿ **وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَـــلَّ وَجْهُـــهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ(٥٩)** ﴾[2]. من هنا فـــإنَّ موت الابنة لم يكن يُشكّل أمراً مهماً في المجتمع، فيقوم الشعراء بتعزية الأب فيها كما كانوا يفعلون عند موت الأبناء الذكور. أمَّا في العصر العباسي، فقـــد اختلف الأمر في مظهره، وبقي كما هو في جوهره إذ إنّ التعزية بالابنة شـــاعت وانتشـــرت إلا أنَّ ما كان يأتي به الشعراء في قصائد التعزية تلك لم يكـــن فـــي مجمله بأفضل ممَّا كان يقال فيها في الجاهلية، بل وفي كثير من الأحـــيان كانت قصيدة التعزية تتحول إلى هجاء للمرأة بشكل عام، وليس أدلّ علـــى ذلـــك مـــن قصيدة البحتري التي عزّى فيها أبا نهشل محمد بن حميد الطوسي عن ابنته التي قال فيها:

أتبكـــي مـــن لا يـــنازل بالسـيـــ ف مشـــيحاً ولا يهـــزّ اللـــواء؟
والفـــتى مـــن رأى القـــبور لما طا ف بـــه مـــن بـــناته أكفـــاء
لســـن مـــن زيـــنة الحـــياة كعدّ الـ ـــه مـــنها الأمـــوال والأبـــناء
قـــد ولـــدن الأعـــداء قدماً، وورثـ ـــن الـــتلاد الأقاصـــي الـــبعداء
لـــم يـــئد كثرهـــن " قـــيس تمـــيم" عـــيلة بـــل حميـــيّة وإبـــاء[3]

---

(١) ديوان ابن الرومي/ ج٢/ ٨٠١.

(٢) سورة النحل الآيتان /٥٨و٥٩.

(٣) ديوان البحتري/ ج١/ ٤١.

فالبحتري لا يرى أنَّ البنت تستحق البكاء إن توفيت، بل على العكس يجب أن يحمد والدها وفاتها؛ لأنّ القبر خير كفء لها، ويحاول الشاعر أن يقنعَ الأب برأيه هذا، فلا يلبث أن يبدأ بتعداد مساوىء البنت خاصة، والمرأة عامة مما يوقعه في كثير من المغالطات، فهو يرى أنّها ليست من زينة الحياة الدنيا إذ إنَّ الله قد جعل الذكور من الأبناء فقط من زينة الحياة الدنيا مشيراً إلى قوله تعالى: ﴿ **الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** ﴾[1]. وقد فاته هنا أنَّ الجمع جمع تغليب يُراد فيه البنون من الذكور والإناث على حد سواء، إذ لا يمكن أن يكون ما ذكره صحيحاً مع علمنا بأنَّ القرآن الكريم قد هاجم الجاهليين لموقفهم من البنت.

ومن السيئات التي يراها البحتري في البنت أنها لا تحمل السيف، ولا تنازل الأبطال ونسي أنها هي التي تنجب هؤلاء الأبطال، وكذلك فإنها قد تلد الأعداء، وقد تورّث مال أبيها إلى أبنائها الأقاصي الغرباء، ويضرب مثلاً بقيس بن عاصم الذي كان يئد بناته، ويؤكد أنه لم يفعل ذلك عبثاً وإنما حميّةً وإباء، ويستمرّ البحتري في سرد سيئات الابنة فيؤدي به الأمر إلى هجاء المرأة عامة بقوله:

واستزل "الشيطان" آدمَ في الجـ ـنة لمّا أغرى به حواء
وتلفت إلى القبائل، فانظر أمهات ينسبن أم آباء[2]

فهو هنا يعرض بالمرأة الزوجة والمرأة الأم، إذ لم يكتفِ بالتعريض بالابنة، وهو بذلك يقع في مغالطات أخرى، إذ إنّ الله سبحانه وتعالى قد برأ حواء من جرم إخراج آدم من الجنة، وأشركهما في الذنب معا قال تعالى: ﴿ **فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى** ﴾[3]. وكذلك فإنَّ كثيراً من القبائل والأشخاص ينسبون

---

(١) سورة الكهف/ ٤٦.

(٢) ديوان البحتري/ ج١/ ٤١.

(٣) سورة طه/ ١٢١.

إلـــى الأمهـــات وهذا شائع عند العرب منذ القديم، ولكن حملة البحتري على البـــنات هي التي دفعته إلى كل هذه المغالطات، ولعلّ الذي دفع البحتري إلى كـــلّ هذا هو رغبته في تعزية ابن حميد عن ابنته وتسليته عنها، فسلك طريقا فيه من الهجاء أكثر مما فيه من التعزية مستمدّاً أفكاره من مفاهيم جاهلية.

أمّـــا ابـــن الرومي فقد ارتأى أن يدخل إلى معزيه من مدخل آخر فيه شيء من منطق ابن الرومي، فهو يرى أنّه وإن كان الموت حقاً لا بُدَّ للإنسان مـــنه، فإنّ من الغرابة بمكان أن يحزن الإنسان لموت أبنائه مع أنّ تعويضهم ممكن في حين لا يفعل مثل ذلك عند موت أحد أبويه مع أنّ تعويض الوالدين أمر مستحيل. قال معزّيا عبد الله بن المسيّب عن ابنته:

أخـــا ثقتـــي أعـــزز علـــيَّ بـــنوبة ... مـــناك بهـــا صـــرف القضاء المقدر
أصـــبت ومـــا للعـــبد عـــن حكم ربه ... محـــيص، وأمـــر الله أعلـــى وأقهـــر
وقـــد مـــات من لا يخلف الدهر مثله ... علـــيك مـــن الأســـلاف والحق يبهر
أب بعـــــد أم بـــــرّة وأقـــــارب ... مضـــوا ســـرجاً في ظلمة الليل تزهر
فنمـــت ولـــم تهجـــر شـــرابك بعدهم ... وكـــم تهجـــر الـــنفس الزلال وتسهر
تعزيـــت عمـــن أثمـــرتك حـــياته ... ووشـــك الـــتعزي عـــن ثمارك أجدر
لأنَّ احتـــيال الدهـــر في ابن وفي ابنة ... يســـير وكـــرُّ الدهـــر شيخيك أعسر
تعـــذر أن نعـــتاض مـــن أمهاتـــنا ... وآبائـــــنا، والنســـــل لا يـــــتعذر
إلـــى أن يقـــيم الله يـــوم حســـابه ... فـــيلقون، والأرواح تطـــوى وتنشر[1]

وابـــن الرومـــي وإن لم يكن في هذه الأبيات يفرق بين موت الأبناء ذكـــوراً أو إناثاً في الحزن عليهم، والتعزي عنهم، فإنّه يقع في مغالطة كبيرة هـــو نفسه بدا غير مقتنع فيها في بعض قصائده، فالوالدان رغم ما يكون لهما من مكانة عظيمة في النفس، ورغم ما يكون حزن الإنسان لفقدهما كبيراً، فإنَّ هذا لا يتعارض مع الحزن على الأبناء أبداً، فالمكانة المتميزة للأبناء قد تجعل الحزن عليهم أكثر عمقاً، وأكثر ديمومة. أمَّا قضية تعويض النسل فقضية غير مقنعة في هذا المجال إذ إنّ لكل من الأبناء ذكراً كان أم أنثى مكانةً خاصة لا

(١) ديوان ابن الرومي/ ج٣/ ٩٥٢-٩٥٣

يمكـــن أن يعوّض أحدٌ هذه المكانة، ولو رزق بعشرات الأبناء. وابن الرومي كمـــا ذكـــرت هو من أكثر الناس إيماناً بهذا، أو ليس هو القائل في رثاء ابنه محمد:

وإنّـــي وأن مُـــتِّعْت بابـــنيّ بَعْـــده ... لذاكـــره مـــا حـــنَّت الـــنيبُ في نَجْد
وأولادُنـــا مـــثْلُ الجـــوارح أيُّهـــا ... فقدْنـــاه كـــان الفـــاجِعَ الـــبيّن الفقـــد
لكـــل مكـــانٌ لا يَسُـــدُّ اخـــتلالَهُ ... مكـــانُ أخيـــه فـــي جَـــزُوعٍ ولا جلد
هـــل العيـــن بعـــد السمع تكفي مكانَه ... أم السمع بعد العين يهدي كما تهدي[1]

يبدو أنَّ ابن الرومي لم يشعر أنَّه مقنعٌ في تعزية معزيه عن ابنته بهذه الوسائل؛ لذلك لم يلبث أن استخدم الطريقة التقليديَّة في التعزية بالإناث إذ ربما رآهـــا أجـــدر، فأوضح أن موت الأبنة ربما كان نعمة من نعم الله على عبده. قال:

فـــلا تهـــلكَنّ حـــزنا عـــلى ابنة جنة ... غـــدْت وهـــي عند الله تُحبى وتحبر
لعـــل الـــذي أعطـــاك ســـتر حياتها ... كســـاها مـــن الـــلحد الذي هو أستر
وفي الماء طهرٌ ليس في الطهر مثله ... وللـــتُّرب أحيانـــا مـــن المـــاء أطهر
ولـــن تخـــبرَ الأنـــثى طـــوال حياتها ... ولكـــنها بعـــد المـــنية تخـــبر
وليـــس بمـــأمونٍ عـــليها عـــثارُها ... مـــدى الدهـــر أو يقضي عليها وتُقبر
وكـــم مـــن أخـــي حـــربَةٍ قد رأيتُهُ ... بـــنار ذوي الأصهار يُكوَى ويصهر
فـــلا تـــتهم لله فيهـــا ولايـــةً ... ولا نظـــراً، فـــالله للعـــبد أنْظَـــر[2]

ومـــمـــا يُشـــار إليه في نهاية الحديث عن التعزية بالبنات أنَّه وإن كانت هـــذه طـــريقة الشعراء في العزاء بهنَّ، فإنَّها لم تكن طريقة الآباء في الحزن عـــليهنَّ، إذ إنّ بعـــض الآباء حزنوا كثيراً لوفاة بناتهم، ولعلّ ذلك الحزن هو ذاته الذي دفع الشعراء إلى تعزيتهم بهن، وإن لم يحسنوا التعزية، وهو الحزن

---

(١) ديوان ابن الرومي/ ج٢/ ٦٢٥- ٦٢٦.

(٢) المصدر السابق/ ج٣/ ٩٥٣.

ذاته الذي تحدث عنه الشعراء في قصائدهم، والذي كان يدفع الآباء أحيانا إلى هجر الشراب والنوم كما فعل عبد الله بن المسيّب.

وكما عزّى الشعراء الخلفاء والأمراء والأصدقاء عن أبنائهم فقد عزوهم عن آبائهم، وقد ساروا في قصيدة التعزية بالآباء على النهج ذاته الذي ساروا عليه في قصائد التعزية بالأبناء من الحديث عن أحوال الدهر وتغيّره، وإعادة القول في أنَّ الموت حق لا بدّ أن يصيب جميع الناس، كل ذلك للتخفيف من مصابه بأبيه وتسليته عن بلواه مع قدر من التأبين للراحل، ومدح للمعزّى. فقد قال البحتري معزّياً عبيد الله بن سليمان عن أبيه سليمان بن وهب:

أأخي نهنه دمعك المسفوكا ... إنَّ الحوادث ينصرمن وشيكا
ما أذكرتك بمترح صرف الجوى ... إلا ثنته بمفرح ينسيكا
الدهر أنصف منك في أحكامه ... إذ كان يأخذ بعض ما يعطيكا[1]

فالشاعر يحاول تخفيف مصاب معزيه بتأكيده أنَّ مصائب الإنسان لا تلبث أنَّ تخفّ حدتها بمرور الأيام، ثم يعرّج على الدهر كعادة الشعراء ليؤكد أنه منصف في أحكامه فهو يعطي الإنسان كثيرا، وما يأخذه هو جزءٌ ضئيلٌ من ذلك العطاء، ثم يتابع الشاعر الحديث عن تغيّر الحياة بما يمكن أن يخفف من مصاب معزيه. من ذلك قوله:

نلقى المنون حقائقاً، وكأنَّنا ... من غرَّة نلقى بهنَّ شكوكا
لا تركننَّإلى الخطوب فإنَّها ... لمعٌ تسُّرك تارة وتسوكا
هذا "سليمان بن وهب" بعد ما ... طالت مساعيه النجوم سموكا
وتنصَّف الدنيا يدبر أمرها ... سبعين حولا قد تممن دكيكا
أغرت به الأقدار بغت ملمة ... ما كان رسّ حديثها مأفوكا[2]

---

(١) ديوان البحتري/ ج٣/ ١٥٧٨.

(٢) المصدر السابق/ ج٣/ ١٥٧٨ - ١٥٧٩.

وللشاعر غاية من ضرب هذه الأمثلة فهي تفيد من وجهين: أولهما أنَّ الشاعر يعظّم المتوفى ويمدحه، فيزيد في تعزية ابنه وتسليته. وثانيها أنه يستخدم صورة واقعية وقريبة من نفس معزيه فيفيده هذا بالتفكّر في حال الدنيا التي لا تبقي على أحد، وهذا أيضاً يزيد من تعزيته.

ومن وسائل تسلية الشعراء الأُخر للمعزى مدحهم إياه، وتعداد مناقبه، فكأنهم في ذلك يغوصون إلى أعماق المصاب بأبيه فيخففون من بلواه بتأكيدهم له أنَّ ما عليه من صفات وأخلاق تجعله بديلاً وعوضاً عن أبيه المتوفى بالإضافة إلى ما يتوقعه الآخرون منه من بأس وشدة تجعله قادراً على تجاوز المصاب. قال البُحتري أيضاً:

كلّ المصائب ما بقيتَ نعدُّه ... حرضاً يزلُّ عن النفوس ركيكا
أنت الذي لو قيل للجود: اتخذْ ... خلاً أشار إليك لا يعدوكا
وكأنَّما آليتُ، والمعروف لا ... تألوه مصطفيا ولا يألوكا
إنَّ الرزيَّة في الفقيد فإن هفا ... جزع بصبرك فالرزيَّة فيكا[1]

والعزاء بالآباء كثير، وهو يسير مع شعر العزاء بالأبناء على النهج نفسه مع الاختلاف في ناحية التركيز على شدة جزع الآباء على أبنائهم، فقد كان الشعراء هناك يركزون على الأمور التي تخفف من وقع المُصاب على الأب، ولذلك حثّ الشعراء في معظم قصائد العزاء بالأبناء على الصبر، ووقفوا كثيرا عند فكرة الاحتساب؛ ليذكّروا الآباء بضرورة تخفيف الجزع حتى ينالوا ما وعدهم الله من أجر عظيم في الآخرة، وهذا ما لم نجده في قصائد العزاء بالآباء إلا نادراً.

وقبل الانتهاء من الحديث عن العزاء بالآباء، لا بُدّ من الإشارة إلى نوع آخر منه، وهو العزاء بالخلفاء الراحلين، وتهنئة أبنائهم بتسلم مقاليد الخلافة بعدهم، وهو موقف دقيق وصعب، فالشاعر يجمع فيه بين أمرين متناقضين هما التعزية بفقد خليفة، والتهنئة بمنصب الخلافة للخليفة الابن،

---

(١) ديوان البحتري/ ج٣/ ١٥٨٠.

ومن هنا، فإنَّه يخشى على الشاعر من الوقوع في المزالق، إلا أنّ الشعراء العباسيين استطاعوا تجاوز هذه الصعوبة، من ذلك قول الشاعر مروان بن أبي حفصة يُعزّي الخليفة الهادي بوفاة والده الخليفة المهدي، ويهنئه بالخلافة:

لقد أصبحت تختالُ في كلِّ بلْدَة ... بقبر أمير المؤمنينَ المقابرُ
أتتهُ التي ابتزَّت سليمانَ مُلْكَهُ ... وألوت بذيّ القرنينِ منها الدوائرُ
أتتهُ فغالَتْهُ المنايا وعدْلُهُ ... ومعروفُهُ في الشرق والغربِ ظاهرُ
ولو كان تجريدُ السيوف يردُّها ... ثنت حَدّها عنه السيوفُ البواترُ
بأيدٍ بها تُعْطى الصوارم حقّها ... وتُرَوْى لدى الروع الرماحُ الشواجرُ
ولو لم تُسكّن بابنه بعد موته ... لمَّا برحت تبكي عليه المنابرُ[1]

بدأ الشاعر قصيدته برثاء الخليفة المتوفى، وتحدث عن المنايا التي غالته، وأكد أنَّ موته لم يكن هيّناً على الشاعر والآخرين من حوله، ولو كانت السيوف والرماح ترده ما قصّرت الأيدي الشجاعة القوية في ذلك، ولكنه قدر الله الذي لا راد له، وهو قضاء مفعول لا رجعة عنه، والحزن عليه دائم لولا حلول ابنه مكانه، وتسلمه لمقاليد الخلافة بعده، فقد هدّأ النفوس وطيّبها لما يُتوقع منه من متابعة أبيه في أعماله.

ومن الذين قالوا في هذا فوازنوا بين الموقفين موازنة دقيقة الشاعر أبو الشيص الخزاعي إذ عزَّى محمد الأمين بوفاه والده هارون الرشيد وهنأه بالخلافة في آن واحد. ومما قال في ذلك:

جرت جوارٍ بالسعد والنحس ... فنحن في وحشة وفي أُنس
العين تبكي والسن ضاحكةٌ ... فنحن في مأتم وفي عرس
يضحكنا القائم الأمين ويبـ ... ـكينا وفاة الإمام بالأمس
بدران: بدر هنا ببغداد في الـ ... ـخلد وبدر بطوس في الرمس[2]

---

(١) ديوان مروان بن أبي حفصة/ ٤٨.

(٢) طبقات الشعراء/ ٧٥.

فالشـــاعر في موقفين متناقضين، وهو تناقض لازم؛ لأنَّه يصوِّر واقعاً متناقضـــاً، فمـــوت الخليفة هارون الرشيد أمرٌ مثيرٌ للحزن والوحشة والبكاء، وتسلم ابنه مقاليد الخلافة أمرٌ آخر فيه تعزّ عن ذاك الراحل ، فبقدر ما حزن الشاعر لحال الأول فرح لحال الثاني.

شعر التهاني

كـــثُر شـــعر التهانـــي كغيره من شعر المناسبات في هذا العصر، فقد أصـــبح الشعراء يستغلّون المناسبات السعيدة لدى الخلفاء وغيرهم من أُمراء ووزراء وأصـــدقاء فيـــنظمون القصـــائد لتهنئتهم بمناسباتهم تلك. وموضوع التهانـــي أحـــد المواضيع الجديدة التي تفرّعت عن الموضوعات القديمة، فقد تحـــوّل عن شعر المديح في بعض جوانبه.[1] ومن أنواع التهاني التي شاعت وكـــثرت فـــي هذا العصر التهنئة بالمواليد الجدد، والتهنئة بعقد الخلفاء ولاية العهد للأبناء من بعدهم.

أمـــا التهنـــئة بالمواليد، فقد أكثر شعراء هذا العصر منها سواء أكان المهنأ به من أبناء الخلفاء أو الأمراء، أم من أبناء الأصدقاء، فقد كان الشاعر حيـــن يســـمع بولادة ابن لأحد الخلفاء أو الأصدقاء يرسل لـــه قصيدة يهنئه بقـــدوم الفـــارس الجديـــد، ويظهر مدى البهجة التي أصابته بقدومه. قال عبد الرحمن العطوي مهنئاً صديقه علي بن القاسم بمولود له:

أتيـــتك جـــذلانَ مستبشـــراً ... ببشـــراك لمـــا أتانـــي الخـــبر
أتانـــي البشـــير فكـــم ســـاء مـــا ... أتانـــي بـــه مـــن أُنـــاس وســـرّ
أتانـــي يذكـــر أن قـــد رزقـــت ... غلامـــا فأبهجنـــي مـــا ذكـــر[2]

ويبدو أنَّ هؤلاء الحساد موجودون في كلِّ زمان ومكان؛ لذا فقد أكثر الشعراء من الإشارة إليهم. قال أبو العتاهية مهنئاً الهادي بولادة مولود له:

---

(١) العصر العباسي الثاني/ ٢٢٨.

(٢) طبقات الشعراء/ ٣٩٥.

أكـــثر موســـى غيـــظ حســـاده وزيَّـــــن الأرض بـــــأولاده
وجاءنـــا مـــن صـــلبه ســـيِّد أصـــيد فـــي تقطيـــع أجـــداده[1]

وقـد تمـتد الـبهجة بقدوم المولود الجديد إلى الأرض من حوله وإلى المنابر. قال أبو العتاهية متابعاً أبياته السابقة:

فاكتســـت الأرض بـــه بهجـــةً واستبشـــر المـــلك بميـــلاده
وابتســـم المنـــبر عـــن فـــرحة عـــلتْ بهـــا ذروة أعـــواده
كأنـــني بعـــد قـــليلٍ بـــه بيـــن مواليـــه وقـــواده
فـــي محفـــل تخفـــق رايـاتـــه قـــد طـــبَّق الأرض بأجـــناده[2]

والحديـث عـن المستقبل الذي ينتظر المولود، والأمنيات التي تراود الشـاعر فـي ذلـك المستقبل لم يكن خاصا بأبناء الخلفاء وحدهم، فقد امتدح الشـعراء مستقبل غيرهم من المواليد أملاً فيما سيكونون عليه من علمٍ وخلق وشـجاعة، كـل ذلـك مسـتمدّ مما يرونه في آباء المولود وأجداده. قال ابن الرومي مهنئًا القاسم بن عبيد الله بمولود له:

وافـــدٌ زار مُســـتماحى وفـــود مُـــرتجىً مـــنه مُسْـــتَماحُ وفُـــود
ســـلّهُ الله لـــلخطوب مـــن الغَيْـــ ـــبِ كســـل المهـــند المغمُـــود
فيـــه عُـــرفٌ، وفيـــه نُكْـــر مُعَـــدًّا نَ لأهـــل الـــنُّهَى وأهـــل المُـــرُود
وكميـــنُ الحـــريق فـــي العُـــودِ مُخْفى وَحقيـــنُ الـــرحيق فـــي العُـــنْقُودِ[3]

كـثيراً مـا كـان يصاحب مدح الأماني المستقبلية للمولود دعاء للأب ليعمّر طويلاً حتى يرى ذلك المستقبل الرائع الذي ينتظر المولود وإخوته. قال العطوي في تهنئة صديق له بمولوده الجديد:

---

(١) أبـو العتاهية أشعاره وأخباره/ تحقيق الدكتور شكري فيصل/ مطبعة جامعة دمشق/ ١٩٦٥ / ٥٣١ – ٥٣٢.

(٢) المصدر السابق / ٥٣٢.

(٣) ديوان ابن الرومي/ ج٢/ ٦١٦.

فعمـــــرك الله حـــــتى تـــــراه ... وقـــد قـــارب الخطـــو مـــنه الكـــبر
وحتى يرى حولـــه مـــــن بنيـــــه ... وإخوتـــه وبَنـــيهـــــــــم زُمَـــــر
وحـــتى يـــروم الأمـــور الجســـام ... ويُـــرجى لخـــيرٍ ويُخشـــى لشـــر
فـــأوزعك الله شـــكر العطـــاء ... فـــإنَّ المـــزيد لعـــبدٍ شـــكر[1]

وقال ابن الرومي في مهنئه:

زادكَ الله فـوق صـالح مـا أعـــ ... طـاك شُـكرا وغـبْطَةً فـي خُلـود
وأراك ابـــنك الســـعيد كثَـــيراً ... ببنـــيه فـــي المحفـــل المشـــهود[2]

بمـــا أنّ شـــعر التهاني تولّد من شعر المديح، فقد بقيت قصيدة التهنئة محافظة على كثير من مظاهر قصيدة المدح الأصليَّة إذ إنّها تحوي كثيراً من عناصـــر المـــدح، وكذلـــك فإنها تكرر الصفات والفضائل التي كان يرددها المـــادحون في قصائد المدح كالشجاعة والجود والعفة... وهذا دليل على أنَّ هـــذه الصفات التي كان يمتدح بها الرجل آنذاك هي ذاتها التي كانت العرب تأمل أن تراها في مواليدها مستقبلاً.

ومـــن أهـــمِّ الممدوحين في قصيدة التهنئة والد المولود. قال علي بن الخليل مهنئا يزيد بن مزيد في ولادة ابن له:

يـــزيد يـــا ابـــن الصـــيد مـــن وائلٍ ... أهـــل الرياســـات وأهـــل المعـــال
يـــا خـــير مـــن أنجـــبه والـــدٌ ... لِيَهـنك الفـارس ليـث الـنزال[3]

فالشاعر يُشير إلى منزلة يزيد بن مزيد القياديَّة والحربيَّة، فيمدحه بها، ويُشـــير إلى أنه ليس وحيداً في هذا المجال، بل هو من قوم كانوا دائما كذلك، وبالتالي فهذا ما يتوقعه الشاعر من المولود.

---

(١) طبقات الشعراء/ ٣٩٥.

(٢) ديوان ابن الرومي/ ج٢/ ٦٢٣.

(٣) الأغاني/ ج ١٤/ ١٨٠.

وقد ينال الوالدة نصيب من المدح. قال ابن الرومي في تهنئة أبي العباس بن بشر المرثدي بمولود له:

بدرٌ وشمس ولدا كوكباً ... أقسمتُ بالله لقد أنجبا
ثلاثةٌ تُشرق أنوارُها ... لا بُدِّلت من مشرق مغربا
بدرٌ وشمس أبوا مشترٍ ... ما نازعت شَرْواهُ أمٌ أبا[1]

وامتداداً لمدح الوالد والمولود يقوم الشاعر بمدح آبائهما وأجدادهما، ويعدد فضائلهما التي حرص العرب على وجودها فيهم، وفي أولادهم. قال ابن الرومي في مدح آل بشر:

يا آل بشر ابشروا كلكم ... فقد ولدتُم مَطلبا مَهربا
تباركَ الله وسبحانه ... أيَّ شهاب منكم أثقبا
إن طاب أو طبتم فما أبعدتْ ... فروعُ مجدٍ أشبهت منصبا
ولا عجيبٌ لا، ولا منكر ... أن تلدوا الأَطْيَبَ فالاطيبا
أصبحتُم، واللهُ يبقيكم ... مُنتجعَ الحرّ إذا أجدبا
مهما انتقصناه -إذا زدتم- ... من نعم الله فلن يُحْسَبا
أنتم أُناسٌ بأياديكم ... يستغفرُ الدهرُ إذا أذنبا
فليشكرِ الدهرُ لكم، إنه ... أرضَى بكم من بعد ما أغضبا[2]

وفي نهاية الحديث عن شعر التهنئة بالمواليد أقول إنَّ شعراء هذا العصر وإن كانوا قد عزَّوا الخلفاء والولاة وغيرهم بموت بناتهم، فإنهم غالباً لم يهنئوهم بولادتهن، وهذا ليس غريباً في ضوء المعرفة بعدم الرغبة بولادتهن بداية، وهذه نظرة وإن كانت فيها جاهلية بعيدة عن روح الإسلام الذي ساد هذا العصر، إلا أنها تظلّ من القضايا التي تعمقت نفوس كثيرين، وبقيت ثابتة عندهم.

---

(١) ديوان ابن الرومي/ ج١/ ٢٣٢.
(٢) المصدر السابق/ ج١/ ٢٣٣.

أما التهنئة بعقد ولاية العهد للابن ، فهي من شعر المناسبات الذي برز فيه الحديث عن الأبوَّة والبنوَّة معاً، إذ أسهب الشعراء فيها بمدح كل من الآباء والأبناء مشيرين إلى الأحوال التي كانت تغلف علاقة كل من الآباء والأبناء تجاه بعضهم بعضا. قال أبو العتاهيَّة في الخليفة هارون الرشيد لما عقد ولاية العهد لأبنائه الثلاثة الأمين والمأمون والمؤتمن:

رحلت عن الربع المحيل قعودي ... إلى ذي زحوف جمة وجنود
وراعٍ يراعي الليل في حفظ أُمّة ... يدافع عنها الشرّ غير رقود
بألوية جبريل يقدم أهلها ... ورايات نصر حوله وبنود[1]

فأبو العتاهية يمدح الرشيد بما كان يقوم به من سهر الليل لرعاية أُمته وحفظها، فهو لم يكتف بهذه الرعاية في حياته، بل أراد الاطمئنان عليها بعد موته- كما يقول الشاعر- إذ أحسَ بأنَّ الحياة الدنيا ليست دار خلود له، ولا بدّ أنَّه مفارقها في يوم، فعقد الخلافة لبنيه حتى يضمن استمرارها فيهم. قال:

تجافى عن الدنيا وأيقن أنَّها ... مفارقةٌ ليست بدار خلود
وشدَّ عرى الإسلام منه بفتيةٍ ... ثلاثة أملاك ولاة عهود[2]

وقال في مدحهم:

هم خير أولاد، لهم خير والد ... له خير آباء مضت وجدود
بنو المصطفى هارون حول سريره ... فخير قيام حوله وقعود
تقلب ألحاظ المهابة بينهم ... عيون ظباء في قلوب أُسود
جدودهم شمس أتت في أهلة ... تبدت لراء في نجوم سعود[3]

---

(١) الأغاني/ ج٤/ ١٠٤.
(٢) المصدر السابق/ج٤/١٠٤
(٣) نفسه/ ج٤/ ١٠٥.

إنَّ تشـبيه الأب وأبـنائه بالكواكب كان شائعاً في هذا العصر كما في قول إبراهيم بن العباس في المتوكل وولاة العهد:

ولمـــا بـدا جعفـر في الخميـــس بيـن المطـل وبيـن العـــروس
بـدا لابسـا بهمـا حلّـــــة أُزيـلت بهـا طالعـات الـنحـــوس
ولمـــا بـدا بيـن أحبابـــــه ولاة العهـــود وعـــز الـــنفوس
غـــدا قمـــرا بيـــن أقمـــاره وشمسـا مكلـلة بالشـمـــــوس
لإيقـــاد نـــار وإطفائهـــــا ويـوم أنيق ويوم عبـــــوس[1]

فالشـاعر بتشـبيهه الخـليفة بيـن ولاة العهد بالقمـر بين أقمار أو بالشـمـس المكلـلـة بالشموس، يشير إلى ناحية مهمة في العلاقة التي تربط الأب بأبـنائه، فهو بوجودهم كأنه يلبس بهم حلة جميلة تسره أولاً، ويفاخر بها ثانيـاً، ولعـل كلمة اللباس تشير أكثر ما تشير هنا إلى ذاك التلاصق والترابط الذي يكـون بين الأب وأبنائه في كل حال من أحوال الحياة بأُنسها ووحشتها.

مـن هـنا أقول: وإن كانَ الشعراء في شعر المناسبات يصفون علاقة الأبـوَّة والبنوَّة وصفاً خارجياً، فإنهم وضعوا أيديهم على كثير من مكامن هذه العلاقـة الـتي تـربط الطرفين بعضهما ببعض، ولكن بقي هذا الشعر لـه طـبيعة مختـلفة عن طبيعة الشعر الذي قاله الآباء في الأبناء، أو الأبناء في الآبـاء مـن حيث الإحساس بقوة الترابط والتلاحم بينهما، ومن حيث التركيز والصدق العاطفي الذي يغلّف هذه العلاقـات في أغلبها.

---

(١) الأغاني/ ج١٠/ ٦٤-٦٥.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الرابع

الأُخـــوَّة

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الأخـــــوّة

نـــال الأُخـــوّة قـــدراً جيداً من اهتمام شعراء العصر العباسي فقد كثر الشـــعر الـــذي يـــتحدث عن الإخوان ويصف علاقة الأُخوّة، وما يكتنفها من روابـــط وعلاقـــات. كمـــا تـــنوّعت المجالات التي طرقها هؤلاء الشعراء في حديـــثهم عن هذه العلاقة من مديح ورثاء وعتاب وهجاء وغير ذلك، بالإضافة إلى تعـــدد أنـــواع الأُخـــوّة التي تحدث عنها شعراء هذا العصر. ومن خلال اســـتعراض شـــعر الأُخوّة يلاحظ الدارس أنّ هناك أنواعا للأخوّة تحدث عنها الشعراء وهي:

أولا: الأخوّة الحقيقية (الأشقاء)

هذا النوع من الأُخوّة هو المقدّم في الدراسة، إذ إنّها تقع ضمن الأُسرة الصـــغيرة الـــتي نهتم بدراستها هنا، وقد اهتمّ الشعراء بهذا النوع من الأُخوّة، وعرضـــوا من خلاله لمعانٍ وأغراضٍ كثيرة منها حب الأُخوة، والعتاب بينهم، ورثاؤهم وغير ذلك.

فحـــب الأُخوة بعضهم بعضاً يعدّ من المظاهر المهمة للترابط الأُسري، ويتمـــثّل حـــب الأُخـــوة في مساعدتهم، وإيثارهم، والخوف عليهم، ومدحهم، وكذلك في الجزع عليهم ورثائهم.

وقـــد تمـــتدُّ مساعدة الأُخوة لتشمل أولادهم، من ذلك ما ذكره صاحب الأغاني في ترجمته لأشجع السلمي أنّه كان يحب الثياب، وكان يكتري الخلعة بدرهميـــن فيلبســـها أيامـــا، ثم يكتري غيرها. قال: فابتعت أثواباً كثيرة بباب الكرخ، فكسوت عيالي وعيال إخوتي حتى أنفقتها[1].

ومـــثل هـــذه المساعدة المادية كانت شائعة بين الإخوان إذ إنّ الأخ قد يساعد أخاه إن كان مقلّا، وقد يؤثره على نفسه في بعض الأحيان.

---

(١) الأغاني/ ج١٨/ ٢١٨- ٢١٩.

ومن إيثار الإخوان ما رُوي عن بشار بن برد أنّه كان يحافظ على هندامه كثيراً، وفي ذات يوم خرج وعليه لباس قذر وعندما سئل عن السبب قال: هذه ثمرة صِلَة الرّحم[1]. وتفسير ذلك أنّه كان له أخوان قصّابان، ومعروف ما قد يلحق لباس القصابين من قذارة، وكانا يسطوان على لباس بشار النظيف فيلبسانه، وعندما لا يجد لباساً نظيفاً يضطر إلى لبس ملابسهما القذرة، كل ذلك دون غضب، أو سخط عليهما رغم ما عرف عنه من سوء الخلق.

ومديح الأخ لأخيه تعبير عن نوع خاص من الحب والإجلال والتقدير له، وقد يكون أيضاً تعبيراً عن إعجاب بشخص الأخ أو خلقه، وقد تناثرت بعض المقطوعات في مديح الإخوان في طيّات الشعر العباسي، وغالباً ما كانت مثل هذه المقطوعات ترتبط بمناسبة معينة، من ذلك مديح عُليّة بنت المهدي لأخيها الرشيد إذ قالت:

تفديك أختُك قد حَبَوْتَ بنعمة ... لسنا نَعُدُّ لها الزمانَ عديلا
إلاّ الخلودَ، وذاك قربُك سيدي ... لا زال قربُك والبقاءُ طويلا
وحَمِدت ربّي في إجابة دعوتي ... فرأيتُ حمدي عند ذاك قليلا[2]

ومن مظاهر مدح الإخوان مدح الأخ أخاه بالكرم. قال إبراهيم الصولي في أخيه عبد الله:

ولكنَّ عبدَ الله لمّا حوى الغِنى ... وصار له من بين إخوانه مالُ
رأى خلّة منهم تُسَدُّ بماله ... فساهمهم حتى استوت بهم الحالُ[3]

ويمثّل التعاطف مع الإخوان، والاستعطاف لهم صورة أُخرى من صور المحبة بينهم، فهم من خلاله يوضحون شدّة الحب لهم، والحرص عليهم، وكذلك مشاركتهم في مشاكلهم وهمومهم، ومن هنا أجد مثل هذا الشعر

---

(١) الأغاني / ج٣/ ٢٠٨.
(٢) المصدر السابق/ ج١٠/ ١٨١، وانظر شاعرات العرب/ ٢٦٣.
(٣) معجم الأدباء/ ج١/ ١٦٧.

مؤشـــراً علـــى قـــوّة العلاقة الأَخوية في المجتمع العباسي. قال ابن الرومي يستعطف لأخيه:

أبـــا إســـحاقَ، لا تغضـــب فأرضى ... بعفـــــوك دون مـــــأمول الـــــثوابِ
أُعـــيذك أن يقـــول لـــك المـــرجَّى: ... (رضـــيتُ مـــن الغنـــيمة بالإيـــاب)
أســـوءُ الـــرأي فـــي ابن أبي وأُمي ... نصـــيبي مـــن عطاياك الرغاب؟[1]

فالشاعر يدخل هذا المدخل لمخاطبة مستعطفه حتى يمهّد لما يريده منه ألا وهو العفو عن أخيه، ومن هنا فهو يطلب إليه ألا يغضب مما سيقوله حتى يبقى لـــه أمل لتحقيق مراده الذي وفد عليه من أجله، ثم يحاول بعدها محاولة أُخـــرى لاستمالة المستعطف بالتنويه بكرمه وكثرة عطاياه، ولكنّها كانت لغير الشـــاعر الـــذي لم يستفد منها شيئا، بل على العكس من ذلك كان نصيبه منه الغضب على أخيه الشقيق، وإرجاع النسب إلى الأم والأب معاً دلالة على قوة الـــرابطة الأخويـــة بينهما، وبعد ذلك يتطرق لموضوعه الذي جاء من أجله، فيدافع عن أخيه ويبرر ما كان منه:

علـــى أنَّ الفـــتى لـــم يَجْـــنِ ذنـــبا ... إلـــيك، ولـــم يَجُـــز سَـــنَن الصواب
أعـــره مـــنك إصـــغاءً وفهمـــا ... يُضـــيء لـــك عـــذره ضوءَ الشهاب
وَهَـــبْهُ جـــنى ذنـــوبَ القـــوم طُرًّا ... ألـــم يـــكُ عـــن عقـــاب في حجاب
فهـــبك حتمـــتَ أنَّ لـــــه عقابـــا ... ألـــم يـــك دون عتـــبك مـــن عقاب
أترضـــى أن يكـــون هُفـــوّ هـــافٍ ... يزعـــزع طَوْدَ حلمك ذا الهضاب[2]

فهذا المستعطف ذو حلم كبير كالجبل العظيم؛ لذا فإنَّ مثله لا يجوز أن يجعل لزلّة مخطئ تأثيراً على حلمه هذا، ومن هنا فقد كان أجدر به أن يسامح أخـــا الشاعر على هفوته، وأن يقبل عذره، ويبطل ما أضمره من عقاب لـــه، ويأتي بعد ذلك البيت الذي تبرز فيه عاطفة الأُخوَّة بقوة، فيقول:

---

(١) ديوان ابن الرومي/ ج١/ ٣٢٩.

(٢) المصدر السابق/ ج١/ ٣٢٩.

تجـــاوزْ عـــن أخـــي وشـــقيق نفسي فجنـــبي مـــذ عتـــبتَ عـــليه ناب[1]

إنَّ هذا يوضح مقدار تعاطف الشاعر مع أخيه، فهو يشاركه حمل الهمّ والقـلق والخوف مما يمكن أن يحدث، ثم يعود مرة أخرى ليؤكد آماله وآمال أخيه في المستعطَف لعلّه يتجاوز عن خطأ أخيه. قال:

عجـــبتُ لـــــه ولـــي أنَّـــا رجونـــا ســـماءً مـــنك صـــائبةَ الســـحاب
فأخـــلفت الـــذي نـــرجو وصـــبَّتْ علينـــا مـــنك صـــاعقةَ العـــذاب
عـــلى أنَّـــا نُؤَمِّـــل مـــنك عَـــوْدا بفضـــلك وارعـــواء للعـــتاب[2]

وقـد أكـد الشاعر كثيراً من المعاني السابقة في أبيات أخرى قالها في الاستعطاف لأخيه وهي:

يـــا ليـــتَ شـــعري والحـــوادثُ جمةٌ هـــل أشـــتكي دهـــري وأنت صديقي
وشـــكايتي الأيـــامَ دون شـــكايتي إن خانـــني عـــند الـــنهوض فـــريقي
إنـــي أعـــوذُ بمـــا تـــأكد عقـــدُهُ بيـــني وبيـــنك أن تُضـــيّع شـــقيقي
أو أن يجـــور بـــه الزمان عن الفتى أو بـــي وأنـــت طـــريقه وطريقي[3]

فالشـــاعر يحـــاول أن يقدم لمطلبه من مستعطفه بالتنويه بالعلاقة الطيبة التي تربطه به، ثم يوضح بعدها أثر ما حصل لأخيه على نفسه، إذ يخشى أن يوقـــع به العقاب، وهذا أورثه الهمّ والقلق؛ لذا فهو يطلب لـــه العفو ويأمل من مستعطفه أن يسامحه ويقبل عذره.

أمّـــا مراثي الإخوان، فقد زخر الشعر العباسي بها إذ أُصيب عدد من الشـــعراء بـــإخوانهم فـــرثوهم رثاء حاراً صوروا فيه عمق المأساة وشدّة وقع المصـــاب كما أنّهم صوروا أنفسهم الحزينة إزاء هذه الفاجعة، وذلك لما للأخ مـــن مكانة عزيزة في النفس خاصة إذا كانت رابطة الحب والمودة تجمعهما،

---

(١) ديوان ابن الرومي / ج١/٣٢٩.

(٢) المصدر السابق نفسه والصفحة ذاتها.

(٣) نفسه/ ج٤/ ١٦٩٦.

فقــد ورد أنَّ المــأمون جزع لوفاة أخيه أبي عيسى جزعاً عظيماً فبكاه بكاء حاراً.[١]

إضافة إلى بيان حزن الأخ على أخيه، وسكب الدموع الغزيرة لوفاته، فقــد أبّن الشعراء إخوانهم تأبيناً حاراً، وذلك بذكرهم مناقبهم وفضائلهم، فلقد كان للمصاب الذي أُصيب به عدد من الشعراء بفقدهم إخوانهم أثر كبير ووقع مؤثر، وقد وصف هؤلاء الشعراء حالهم إزاء هذا المصاب، فصوروا حزنهم الشديد المختلط بالتفجّع والتحسّر على الراحل العزيز. قال المرار[٢] في رثاء أخيه بدر:

تذكّــرت بــدراً بعــد ما قيل عارف لمــا نابــه يا لَهْفَ نفسي على بدر[٣]

فالشــاعر يتذكّر أخاه وأحاديث الناس من حوله بأنّه قادر على الصبر فكــان ذلك يزيد من لهيب حرقته على أخيه الراحل، فما الصبر الذي يلحظه الناس عنده إلا مظهر خارجي يتظاهر به ليحافظ على تماسكه أمام الآخرين، في حين كان يخفي قلباً متصدّعاً ونفساً حزينة لفقده.

ومن الشعراء من كان يئن حزناً على أخيه الراحل. قال علي بن عبيد الله ابن محمد في رثاء أخيه:

لــي يــا أخــي أبــدا علــيك أنين وإلــى خــيالك رنــة وحنيــن
ومدامعــي مشــغولة بــك كلهــا وخــيال وجهــك للضــمير يبين[٤]

ومــن الشــعراء مــن رأى أنَّ حــزنه الشديد وحده لا يفي حق أخيه الــراحل؛ لــذا راح يستحثُّ ما حوله لمشاركته الحزن عليه. قالت خولة بنت طريف في رثاء أخيها:

---

(١) الأغاني/ ج١٠/ ١٩١.
(٢) هو المرار بن سعيد، شاعر من مخضرمي الدولتين.
(٣) الأغاني/ ج١٠/ ٣٢٠.
(٤) معجم الشعراء/ ٢٨٤.

أيَـا شَـجرَ الخـابورِ مـالَكَ مُورِقاً كـأنك لم تَحزَنْ على ابن طَرِيفِ[1]

فالشاعرة تريد من كل ما حولها أن يحزن ويجزع على أخيها، بما في ذلك عناصر الطبيعة؛ لذا فهي تبدو عاتبة على شجر الخابور لمَّا رأته ما زال مخضـرّاً لـم يُسـقط أوراقه، ويجفّ حزناً على أخيها الذي يستحق مثل هذا الموقف لشجاعته، وحسن بلائه، وأخلاقه الحميدة.

وممـا كـان يـزيد من حزن الشاعر وآلامه الحال التي أصبح عليها أخوه. قال القاسم بن يوسف[2]:

أتـرجو سـلوةٍ وأخـوك ثـاوٍ ببطـن الأرض تحـت ثـرى مهيل
تـبوأ مـنزلاً فـي دار قفـرٍ بمدرجـة السـوافي والسـيول
رأيـتَ السـفر غـابوا ثـم آبـوا وغبـت فـلا إيـاب لـذي القفـول
وبـات الركـب أو قـالوا فـراحوا وكـم لـك مـن مبيـت أو مقـيل
تحلـة نـازح شـطت نـواه وأوطـن للإقامـة والحلـول[3]

ومـن الأمور الأخرى التي كانت تزيد من جزع الشاعر إحساسه بعظم الخسـارة التي لحقته بوفاة شقيقه، فقد أكدّ كثير من الشعراء أنَّ إخوانهم كانوا سـندهم وعضـدهم في الحياة، وبموتهم خسروا المعين والصاحب. قال السيد الحميري في رثاء أخيه:

يابـن أُمـي فدتـك نفسـي ومالي كنـت ركنـي ومفزعـي وجمالي[4]

وقال أشجع السلمي في رثاء أخيه:

كـأنَّ يمينـي يـوم فارقـت أحمداً أخـي وشـقيقي فارقـتها شـماليا[5]

---

(١) الأغاني/ ج١٢/ ٩٢، والعقد/ ج٣/ ٢٦٩، وشاعرات العرب/ ٣٧٥.
(٢) القاسم بن يوسف من شعراء العصر العباسي الأول اشتهر برثائه للبهائم. انظر معجم الشعراء/ ٣٣٥
(٣) الأوراق /١٨٦.
(٤) العقد/ ج٢/ ٤٠٧.
(٥) طبقات الشعراء / ٢٥٣.

فالسيد الحميري يؤكد مكانة الأخ الشقيق فهو يمثّل السند والعضد لأخيه والملجأ الذي يلجأ إليه الأخ إن دارت عليه عوادي الزمن، ويؤكد أنّ أخاه هذا كان أخاه لأمه، وهذا النوع هو أرفع درجات الأُخوّة، وأكثرها قوة وترابطاً حسبما توضح النصوص.

أمّا أشجع السلمي، فيرى أنّ أخاه كان يمثّل له كل عون ومشاركة، فهو بالنسبة له كشماله بالنسبة ليمينه في معاونتها ومشاركتها في كل أعمالها.

وأكدّ غيرهما من الشعراء أنّ أخاه كان يمثّل الأمل والمدخّر له. قال محمد بن الأشعث في رثاء أخيه:

مات من قد كنت آمله ... ومضى من كنت أدخر
ما أبالي بعد مصرعه ... أي نفس خانها العمر[1]

كان الشاعر يرى في أخيه الأمل الذي يتطلع إليه في تحقيق ما يحب ويتمنى كما أنّه كان يدخره لوقت حاجته ولكن بموته خسر الشاعر كثيراً، فقد مات الأمل وضاع الادخار؛ لذا لم يبقَ من يرتجيه أو يخاف عليه؛ لأنّ الآخرين لا يمثّلون له شيئاً وسواء بقاؤهم أم موتهم.

لم تكن الخسارة دائماً تخصُّ الشاعر وحده، ولكن قد تتعداه لتشمل قومه وكثيراً ممن هم حوله، فقد ذكر القاسم بن يوسف أنّ المصاب بأخيه قد عمّ كثيراً من الناس منهم الأباعد والأداني، ومنهم الأرامل واليتامى. قال:

وأضحوا بعده أسفاً عليه ... كموجعةٍ مفجعةٍ ثكول[2]

أمّا خولة بنت طريف، فقد شاركها جميع قومها في الحزن على أخيها؛ لأنّهم يدركون مدى الخسارة وعظم الفاجعة بفقده لما يملك من صفات عظيمة. قالت:

---

(١) معجم الشعراء/ ٤٤٢.

(٢) الأوراق/١٨٧.

بكـت تغـلب الغلـباء يـوم وفاتـه ... وأُبـرز مـنها كـل ذات نصـيف
يقـلن وقـد أبـرزن بعـدك للورى ... معـاتد حـلي مـن بـرئ وشُنوف
كـأنك لـم تشـهد مصـاعا ولم تقم ... مقامـا عـلى الأعـداء غير خفيف
ولـم تشـتمل يـوم الـوغى بكتيبة ... ولـم تـبدّ في خضراء ذات رفيف[1]

ومـن مظاهر الحزن المهمة الأخرى بكاء الأخ أخاه الراحل، فقد حثّ الشـعراء أنفسـهم على البكاء، وذرف الدموع لما لذلك من فائدةٍ في تخفيف آلامهم وشفاء أنفسهم مما تجد. قال القاسم بن يوسف:

ألا ابـكِ أخـاك بـالدمع الهمـول ... لعـلّ الدمـع يـبرد مـن غـليل
يـروّح عـنك مـن كمـد ووجـد ... كثكـلى تسـتريح إلى العويـل
ومـثل أخيـك فلتـبكِ الـبواكي ... لمهمهـة تلـتبس بـالعقول
فيفـرج لبسـها حـتى تَجـلّى ... بـرحب الـذرع والـرأي الأصيل[2]

وقد يزيد حزن الشاعر كثيراً عندما لا تنوح على أخيه النائحات لسبب مـا، فيـبحث عمـن يقـوم بهذه المهمة، وليس أفضل من الحمام لها لوفائه وديمومة بكائه. فقد قال أبو عيينة في رثاء أخيه الذي مات في الطريق إليه:

أنائحـة الحمـام قفـي فـنوحي ... عـلى داود رهـنا فـي ضـريح
لـدى الأجيـال مـن همذان راحت ... بـه الأيـام لـلموت المـريح
ولـم تشـهد جـنازته الـبواكي ... فتـبكيه بمـنهل سـفوح[3]

عـندما رأى الشـاعر أنَّ النساء لم يستطعن حضور جنازة أخيه حتى يوفيـنه حقـه من النوح والبكاء طلب الشاعر من نائحة الحمام أن تبكي أخاه بدمـوع غزيرة، تعبيراً عن مكنونات نفسه، ورغبته في ذرف الدموع الغزيرة على أخيه الراحل.

---

(1) شاعرات العرب / ٣٧٦. المصاع: القتال والجلاد.

(٢) الأوراق/ ١٨٦.

(٣) الأغاني /ج٢٠/ ١٠٢.

وقد أصرَّ الشعراء على ديمومة البكاء على إخوانهم، وإصرارهم هذا دليل على استمرار ذكراهم حيَّة في نفوسهم، ومؤشرٌ على وفائهم لهم. قال أشجع السلمي في رثاء أخيه:

ولا زلتُ أبكي ما تغنتْ حمامةٌ ... عليكَ وما هبتْ صبا وجنوبُ
وما حملتْ عينٌ من الماء قطرةً ... وما أخضرّ في دوح الأراك قضيبُ
بكائي كثيرٌ والدموعُ قليلةٌ ... وأنتَ بعيدٌ والمزارُ قريبُ[1]

فالشاعر يشيرُ إلى استمرارية بكائه على أخيه الراحل، ويربط هذه الاستمرارية بأُمورٍ لا تنتهي أبداً إلى نهاية الحياة كهديل الحمام، وهبوب الرياح ووجود الماء في العيون، واخضرار شجر الأراك.

أما محمد بن الأشعث، فلن يترك البكاء على أخيه إلى أن تتلف عيناه كما في قوله:

ما لعيني منجدا أبدا ... دون أن تلقى العمى عذر
أو ذوت من بعد نضرتها ... ومحاها الترب والمدر[2]

وقد صوّر بعض الشعراء علاقتهم بالدموع بأنّها علاقة عداء لا بدّ له من أن يأخذ ثأره منها بوفاة أخيه. قال أشجع السلمي في قصيدة أُخرى له يرثي بها أخاه:

لئن أنا لم أدرك من الدمع ثأريا ... ولم أشفِ قرحاً داخلا في فؤاديا
لتخترمني الحادثات وحسرتي ... بأحمد في سوداء قلبي كما هيا[3]

لعلَّ مثل هذا الإصرار يؤكد ما للدموع من دور في تخفيف وقع الحدث على المصاب بأخيه إذ إنّه يحس براحة كبيرة إن هو بكى أخاه

---

(١) الأوراق/ ١٣٢.
(٢) معجم الشعراء/ ٤٤٢.
(٣) الأوراق/ ١٣٣.

بغـزارة؛ لـذا لا يلـبث الشعراء أن يشكروا عيونهم على ما أسعفتهم به من دموع. قال المرّار في رثاء أخيه:

إذا خطـرتْ مـنه على النفس خَطْرةٌ ... مَـرَّتْ دمعُ عيني فاستهلَّ على نحري
ومـا كـنت بكّـاءً ولكـن يهيـجُ لي ... عـلى ذكـره طيـبُ الخلائق والخبْر
أعيـنيَّ إنـي شـاكرٌ مـا فعلـتما ... وحُـقَّ لمـا أبليـتماني بالشـكر
سـألتكما أن تسـعدانِي فجدتمـا ... عَوانَيْـن بالتَّسْـجام باقِيـتي قَطْـر[1]

صـاحَب الدموع وديمومتها السهاد والأرق، فقد فارق النوم جفن الأخ المفجوع، بل لقد قاوم هو بإرادته أحياناً هذا النوم، وأبى على عينيه أن ترتاحا مـن الـبكاء وتركـنا إلى النوم، وهناك نماذج شعرية أخرى فارق النوم فيها عيـون أصـحابها حزناً وقلقاً حتى غدوا لا يكترثون بما تأتي به الأيام. قالت ثمامة بنت عبد الله ترثي أخاها سوّار القاضي:

جفـا جفـني الكـرى بعـ ... ـدكَ وانهـلّت مآقيـه
أمـنت الدهـر لمـا مـ ... ـت فلـتطرق دواهيـه
سـقى قـبـرك دانٍ مسـ ... ـبل مـراه عزاليـه
ولا زال جديـد الـرو ... ـض مغـترّاً بـواديـه[2]

ليـس الـبكاء والسهاد هما فقط من مظاهر الحزن على الأخ الراحل، وإنّمـا هـناك مظاهر أُخرى، فبعضهم حرّم على نفسه أنواع الزينة، واعتزل حياة اللهو كما فعل أشجع السلمي. قال:

أأدهـنُ رأسـي أو تضاعفُ كسوتي ... ورأسـكَ معفـورٌ وأنـت سـليبُ
فأُقسـم لا أصـبو إلى عيـش لـذة ... وقـد ضـمّ لحييـه عـليك قليب[3]

ويبدو أنَّ إحساسه بالمصاب كان كبيراً حتى ترك علامات بارزة على جسده أهمها الشيب. قال:

---

(١) الأغاني/ ج١٠/ ٣٢٠.

(٢) نزهة الجلساء في أشعار النساء/ ٢٩.

(٣) الأوراق/ ١٣٢.

تعجبُ سلمى من مشيب ذؤابتي وعمْرُ أبيها إنه لعجيب
ومثل الذي لو تعلمين أصابني به الدهر يبلي رمتي ويشيب
رزئتُ أخا لا ينتجي القومُ دونه إذا ضَمَّهم يومٌ أصمُّ عصيب[1]

فمصابه بأخيه أفسد حياته كلها. قال:

لقد أفسد الدنيا عليَّ فراقه وكدر منها كلّ ما كان صافيا[2]

لقد حال موت أخيه بينه وبين كل ما كان يرغب ويحب، وذلك لإحساسه بالذنب إن هو أراد الركون إلى حياة هانئة أو لاهية:

ويمنعني من لذة العيش أنّني أراك إذا فارقت لهوا ترانيا[3]

أفاض الشعراء في ذكر مناقب الإخوة الراحلين إفاضة واضحة في أشعارهم، إذ ندر من الشعراء من لم يعدد مناقب أخيه الراحل، أو لم يلمح لها، بل لقد قصر بعضهم القصيدة كلها على ذلك، وقد أجمع عدد منهم على بعض الصفات والمناقب هي ذاتها التي ذكرها الآباء في أبنائهم سواء أكانت موجودة أم مأمولة، وهي ذاتها التي تعارف العرب على مدح صاحبها بها، والتي عملوا على رؤيتها في أبنائهم، وأملوها في إخوانهم، وعلى رأسها الكرم والشجاعة ومساعدة المحتاج والحلم وحسن الجوار، ومن هؤلاء الشاعرة خولة بنت طريف في رثاء أخيها الوليد الذي أرداه يزيد بن مزيد في حرب الخوارج، فقالت فيه:

بتل نباتي رسم قبر كأنه على جبل فوق الجبال منيفُ
تضمّن سروراً حاتميا ونائلا وسورة ضرغام ورأي حصيف
ألا قاتل الله الجُثى كيف أضمرت فتى كان للمعروف غير عيوف[4]

---

(١) الأوراق/ ١٣٢.
(٢) المصدر السابق/ ١٣٣.
(٣) نفسه/ ١٣٣.
(٤) شاعرات العرب/ ٣٧٤- ٣٧٥، وقد وردت القصيدة كذلك في الأغاني/ ج١٢/ ٩٣ مع اختلاف.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

وتتابع تعداد مناقبه فتقول:

فتى لا يحب الزاد إلا من التقى ... ولا المال إلا من قنا وسيوف
ولا الخيل إلاّ كل جرداء شطبة ... وأجرد ضخم المنكبين عطوف
فقدناه فقدان الربيع وليتنا ... فديناه من ساداتنا بألوف[1]

وهذا الشعور ليس غريباً مع ما تصفه به إذ تابعت قائلة:

وما زال حتى أزهق الموت نفسه ... شجا لعدو أو لجا لضعيف
حليف الندى إن عاش يرضى به الندى ... وإن مات لا يرضى الندى بحليف
فإن يك أرداه يزيد بن ... فيا رب خيل فضّها وصفوف[2]

وما زالت الشاعرة في قصيدتها هذه تعدد مناقب أخيها الراحل، وتؤكد على الصفات المرغوبة في الرجل العظيم، ولعلّ هذا كله دليل على أنّ الغرض من تعداد مناقب الفقيد هو بيان مدى الخسارة فيه؛ لذا كانت الشاعرة لا تلبث بين حين وآخر توجه حديثها إلى قوم الشاعر حيث كانت ترى أنّ لهم يداً في ضياعه. قالت:

أضاعك قومك فليطلبوا ... إفادةً مِثْل الذي ضَيّعوا[3]

ولعل من أكثر الأخلاق التي ركّز الشعراء عليها في وصف إخوتهم الراحلين الكرم ومساعدة الآخرين. قال أبو عيينة في رثاء أخيه داود يخاطب نائحة الحمام:

وكوني مثله إذ كان حيّا ... جوادا بالغبوق وبالصبوح
أنائحة الحمام فلا تشحّي ... عليه فليس بالرجل الشحيح
ولا بمثمر مالاً لدينا ... ولا فيها بمغمار طموح
يبيع كثير ما فيها بباق ... ثمين من عواقبه ربيح[4]

---

(١) شاعرات العرب/ ٣٧٥.
(٢) المصدر السابق /٣٧٥.
(٣) نفسه/ ج١٢/ ١٠٠.
(٤) نفسه/ ج٢٠/ ١٠٢.

وقال الأخفش العطوي في رثاء أخيه:

كـأنَّ أبـا العـبّاس لـم يَـلْقَ ضيفَه ببشـر ولـم يـرحَلْ بجدواه راحل[1]

وأحسـن الكرم ما يكون في وقت الحاجة الماسة إليه حين يندر وجود الكـرماء، وقد ذكر الشعراء هذا في تأبين إخوانهم. قال القاسم بن يوسف في رثاء أخيه:

فـتى سـهل الخـليقة والمحيّـا يعـاف ويجـتوي خـلق الـبخيل
إذا اسـتمطرت راحـته فدفـق سـواكبها بغيـث حيـا هطـول
عـلى الحـالين مـن يسـر وعسر إذا ضـنَّ الخـليل عـن الخـليل
ربيـع المعـتفين إذا اسـتهلّت شـهور القـرّفى الـزمن القحـول
ثمـال للأرامـل واليـتامى ولـلجار المجـاور والدّخيـل[2]

ومثله بدر أخو الشاعر المرار إذ قال في تأبينه:

تُذَكّـرني بـدراً زعـازعُ حجـرة إذا عَصَـفَتْ إحـدى عشـياتها الغُبْر
إذا شَـوَتْنا لـم نُـؤتَ مـنها بمحلبٍ قـرى الضـيف منها بالمهند ذي الأثر
وأضـيافُنا إن نـبَّهونا ذكـرتُهُ فكيـف إذا أنسـاه غابـرةَ الدهـر
إذا سَـلّم السّـارِي تهلّلَ وجهـه عـلى كل حالٍ من يَسارٍ ومن عُسر[3]

ولعـلّ الإصـرار على إثبات قيمة الكرم عند الأخ المرثي دليل كبير عـلى قيمة هذه الصفة في المجتمع العربي القديم الذي كان فيه كثير من الناس يعـتمدون على عطاء الكرماء في حياتهم، بالإضافة إلى كونها قيمة من القيم العـربية الأصـيلة التي يفتخر العربي بها؛ لذا فقد امتدح الشعراء الكرماء في حيـاتهم، واعتـبر الكرم مما يميز الرجل الأصيل لدى الناس جميعاً، وإذا ما توفـي لا يلبث الشعراء من إخوان وغير إخوان أن ينوّهوا بهذا الخُلق عنده،

---

(١) الأمالي / ج١ / ٣٢.
(٢) الأوراق/ ١٨٦- ١٨٧.
(٣) الأغاني/ ج١٠ / ٣٢٠.

وهـم بهـذا كلّه يوضحون مدى ما خسره الناس بموته خصوصاً ممن كانوا يعتمدون على عطائه في سد حاجاتهم.

وليسـت قيمة الكرم وحدها هي التي أشار إليها الشعراء في إخوانهم الراحليـن، بل هناك صفات أخرى مهمة وإن لم تكن في مستوى الكرم، منها السيادة والبر والعفو. قال القاسم بن يوسف في أخيه:

زعـيم القـوم فـي جـدّ وهـزل ... بحسـن فكاهـة وصـواب قـيل
حفـي بالأقـارب والأدانـي ... كفعـل الوالـد الـبر الوصـول
يضـمهم إلـى كـنف رحيـب ... ويؤويهـم إلـى ظـل ظليـل
ويقـبل مـنهم الحسـنى ويعفـو ... عـن السـوأى لـدى جهل الجهول
ويحمـل كلَّهـم والـثقل عـنهم ... فـتى غـير السـؤوم ولا الملول[1]

أكـثر القاسـم بن يوسف من ذكر مناقب أخيه، فجعله يتمتع بصفات مثالـية في كثير من الأحيان، وكأني به يريد إقناع نفسه والآخرين من حوله بأنَّ شدّة حزنه وكثرة بكائه على أخيه ليستا بالكثير، بل هو أقل ما يكون إزاء أخ عظيم مثل أخيه خاصة وأنَّ تعداد هذه المناقب أتى بعد مقدمة طويلة نسبياً في الحديث عن أحزانه ودموعه، وقلّة صبره، وعدم مقدرته على التعزي عن مصابه العظيم.

ومن الصفات الأخرى التي أوردها الشعراء في إخوانهم حسن الجيرة والوفاء، قال أبو عبد الرحمن بن أبي عطية في رثاء أخيه:

واذهـب كمـا ذهـب الشـباب فإنه ... (قـد كـان خـير مجـاور ومُجير)
واذهـب كمـا ذهـب الوفـاء فإنه ... عصـفت بـه ريحـا صبا ودبُور[2]

ومـن المناقـب الأخرى التي اهتم الشعراء بها في تأبين إخوانهم قوة الكلمة وصواب القول. قال الأخفش العطوي:

---

(١) الأوراق/ ١٨٦- ١٨٧.

(٢) زهر الآداب/ ج٢/ ٦٦٥.

كـــأنْ لم يكن لي خيرَ خلٍّ وصاحبٍ وخـــير خطيـــب تتقـــيه المقـــاول[1]

وأخـــيرا رفعـــة النسب وشرفه من الصفات التي أبّن بعض الشعراء إخوانهم بها. قال أبو عيينة في رثاء أخيه داود:

ومـــن آل المهلـــب فـــي لـــباب لـــباب الخـــالص المحـــض الصريح
همـــو أبـــناء آخـــرة ودنـــيا وأهـــداف المراثـــي والمديـــح[2]

لعلّ هذه الصفات هي أهم ما طرق الشعراء في تأبين إخوانهم فيما بين يـــديَّ من نصوص، ومن الملاحظ تركيزهم على الصفات التي تعدّ مثالية في رجـــال ذلـــك العصر، وقلما تطرق الشعراء للصفات الجسمية للأخ المرثي، ولـــيس بيـــنهم مـــن بكـــى أماني ضائعة في أخيه كما وجدنا في تأبين الآباء لأبـــنائهم، وذلـــك راجع فيما أرى إلى اختلاف العلاقة بين الطرفين من نواحٍ كثيرة أهمها أنّ رثاء الإخوان والجزع عليهم كان غالباً وهم في سن الرجولة عكـــس رثاء الآباء لأبنائهم حيث يمكن أن يكونوا أطفالاً، كما أنّ جمال الهيئة لـــيس مثيراً للأخ، وقد لا يلقى عنده أدنى اهتمام بعكس الأب الذي يبحث في ابـــنه عن كل معاني الحب ودوافعه، والجمال أحد هذه الدوافع، وإن كان أقلّها اهتماماً كما رأيناه في رثاء الآباء لأبنائهم.

لـــم يبن موقف الشعراء من حدث وفاة الأخ مثلما بان في رثاء الأب لابنه، ولعل مرد ذلك إلى أنَّ وفاة الأخ ربما كانت أيسر وأسهل مما هي عليه وفاة الابن؛ لذا فقد تقبّل الأخ الأمر بهدوء أكثر، هذا بالإضافة إلى أنَّ الأخ قد شغل بذكر صفات أخيه عن شغله بأي أمر آخر، ومع هذا لا نعدم أن نجد من الشـــعراء من اهتمّ بالحديث عن موقفه من الحدث، ومحاولته الصبر والتعزي عن هول المصاب، ومن الشعراء من ضعف إزاء الحدث ضعفاً كبيراً، وخانه الصبر فلم يقدر عليه. مثال ذلك ما كان من الشاعر العطوي. قال:

---

(١) الأمالي / ج١/ ٣٢.

(٢) الأغاني/ ج٢٠/ ١٠٢-١٠٣.

لقـــد باكـــرتهُ بـــالملام العـــواذلُ فمـــا رقـــأت مـــنه الدموع الهواطلُ
أيقـــنى جمـــيل الصبر من هدّ ركنه وهـــيض جـــناحاه وجـــد الأنـــامل
أمـــن بعـــد مـــا ذاق المنـــية أحمـــدُ تطيـــب لـــنا الدنيا وتصفو المناهل[1]

مـــن الذيـــن بلـــغ الحزن منهم أشدَّ مبلغ، وفقدوا الصبر فبدا ضعفهم واضحاً في تمنيهم الموت، الشاعر عمارة بن عقيل إذ قال متمنياً لو قبض بدلاً من اخيه:

أخـــي يـــوم أحجـــار الـــثمام بكيته ولـــو حـــمّ يومـــي قـــبله لبكانـــي
تداعت لـــه أيامـــــه فاخترمنـــــه وأبقيـــن لـــي شجوا بكل مكـــــانِ
فلـــو قُسمت في الجنّ والإنس عبرتي علـــيه بكـــى مـــن حـــرّها الـــثقلان
فليـــت الـــذي يبكـــي بعـــثمان غدوة دعـــا عـــند قـــبري مثلها فنعاني[2]

ومن المواقف الإيجابية التي تبناها بعض الشعراء الصبر، فقد حاولوا التجلد إزاء الموقف ما وسعهم ذلك، ومنهم المرَّار إذ قال في رثاء أخيه:

ألا يـــا لقومـــي للـــتَّجلُّد والصـــبرِ وللقـــدَرِ السّـــاري إلـــيكَ وما تدري
وللشـــيء تنســـاه وتذكـــر غـــيره وللشـــيء لا تنســـاه إلا على ذُكْر[3]

ومن الذين تبنوا موقفاً شبيهاً، ودعوا الآخرين للصبر القاسم بن يوسف الـــذي رأى أنَّ الصبر وحده هو ما يحمد عليه الإنسان في مثل هذا الموقف. قال:

رمـــاك الدهـــر بالخطـــب الجلـــيل فعـــزِّ الـــنفس بالصـــبر الجمـــيل[4]

ويبدو من خلال ما بين يديّ من شعر أنّ الشعراء قد تقبلوا حدث وفاة الأخ بصفته أمراً واقعاً لا سبيل إلى رده. ومن الأمور التي ساعدت على ذلك

---

(١) الأمالي / ج١/ ٣٢.
(٢) طبقات الشعراء/ ٣١٨-٣١٩.
(٣) الأغاني/ ج١٠ / ٣١٩.
(٤) الأوراق/ ١٨٥.

الفكر الديني الذي كان لدى شعراء ذلك العصر إذ كان الأمل بلقاء الأخ المتوفى بعد الموت وسيلة من الوسائل التي تخفف من وقع الحدث على الشاعر خاصة وأنَّ الشاعر أصبح أكثر اطمئناناً على من يفقده، وقد عرف حقيقة ما يحدث بعد الموت بعكس الشاعر الجاهلي الذي كان جهله لذلك، يزيد من جزعه وحزنه على مَن يفقد من أهله ومعارفه. ومن الذين طرقوا مثل هذا الأمر السيد الحميري إذ قال في رثاء أخيه:

يا ابن أُمي فدتك نفسي ومالي ... كنت ركني ومفزعي وجمالي
ولعمري لئن تركتُك ميتا ... رهن رمس ضنك عليك مهال
لوشيكا ألقاك حيا صحيحا ... سامعا مبصرا على خير حال
قد بُعثتم من القبور فأُبتم ... بعد ما رمّت العظام البوالي[1]

وحتى يحققوا هذا الصبر الذي وطّنوا نفوسهم عليه لجؤوا إلى التعزي والتأسي بأحوال الزمان وأهله من حولهم، فحكّموا عقولهم وفكروا في حقيقة الموت والحياة لعلهم يجدون ما يعزيهم عمن فقدوا من إخوانهم.

ومن الذين استفادوا من هذه الحقيقة، فكانت من وسائل تعزيهم عن إخوتهم أشجع السلمي. قال:

ندبٌ وننسى أننا بمضيعة ... وليل فينا والنهار دبيب
وكل فتى يوما وإن طال عمره ... سُيدعى إلى ما ساءه فيجيب[2]

لقد جعل الشاعر في قصيدة أُخرى له من قضية تتابع الليل والنهار دليلاً آخر على موت البشر وذهابهم واحداً تلو الآخر. قال:

---

(١) العقد/ ج٢/ ٤٠٧.
(٢) الأوراق/ ١٣٢-١٣٣.

خليليّ لا تستبعدا ما انتظرتما ... فإنّ قريبا كل ما كان آتيا
ألا تريان الليل يطوي نهاره ... وضوء النهار كيف يطوي الليواليا
هما الفتيان المترفان إذا انقضت ... شبيبة يوم عاد آخر ناشيا[1]

ومن الشعراء من يحاول التفكر ويقنع بما يوصله إليه تفكّره إلا أنّ ذلك لا يعزيه عن أخيه الذي لا يستطيع بعده سلواً ولا تعزياً. قال:

فإنّ الدهر بالحدثان رهن ... وكل سالك قصد السبيل
وإنّ الدهر طلاب دروك ... وسبّاق بأوتار الذحول
وإنّ الدهر لا يبقي عزيزا ... ولا تنبو يداه من الذليل
فإنّ الدهر لا عتبى عليه ... وليس يقيل عثرة مستقيل[2]

فالشاعر يعلم أنّ الموت حقيقة لا بدّ أن يدركها كل إنسان مهما طال به العمر؛ لأنّ الدهر يتابعه ويدركه، فيحقق ما يريد منه، وهو لا يدخر في ذلك عزيزاً ولا ذليلاً؛ لذا فلن يفيد عتب أو سخط عليه. وفي تكرار الشاعر لكلمة الدهر يكشف عمّا يعتمل في داخل الشاعر من ضيق وتبرّم منه بالإضافة إلى تأكيد قدرته وسطوته، ولكن مع قناعة الشاعر بهذا الأمر، وتأكيده له إلا أنه لم يستطع أن يعزيه عن أخيه. قال:

عزاؤك قد حدا بأخيك حاد ... وناداه المنادي بالرحيل
ومالك بعد أحمد من عزاء ... ومالك بعد أحمد من ذهول
فكيف عزاء ذي قلب قريح ... من الفجعات والحزن الطويل
أترجو سلوة وأخوك ثاو ... ببطن الأرض تحت ثرى مهيل[3]

فلا عزاء له عن أخيه وإن حاوله؛ لأنّ الحال التي أصبح عليها شاقّة على النفس، إذ كيف يسلوه وقد رحل رحيلاً أبدياً لا رجعة منه؟! وأصبح

---

(١) الشعر والشعراء / أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري / تحقيق د. مفيد قميحة/ دار الكتب العلمية / بيروت – لبنان/ ط١/ ١٩٨١/٤٦٣.

(٢) الأوراق/ ١٨٦.

(٣) المصدر السابق/ ١٨٦.

تحت ردم من التراب والحجارة، ولهذا كله يعيش حالةً دائمة من التفجع والحزن، ولا قدرة له على السلو والعزاء.

ولكن، ولعلمه بأنَّ هذا لن يفيد أبداً، يعود مرة أُخرى إلى تفكُّره الأول، ويطرق ناحيةً أخرى قد تفيد في مثل حالهِ مع أخيه الذي كان واحداً بين قومه مجداً وخلقاً، فقال:

أرى الدنيا تطلع نجم سعد ... وينحسه بمهبطه الأفول
فكم قرن أبادت بعد قرن ... وجيل أهلكت من بعد جيل
وأمنا أخطأتك يد المنايا ... فمخطيها مصيبك عن قليل[1]

وسواء كان تعزي الشعراء عن إخوتهم اقتناعاً أم استسلاماً، فإنّهم قد أفادوا من حقيقة الموت والحياة التي كان للإسلام يد طولى في كشف الغموض الذي كان يغلّفها، فحققوا بذلك وجوهاً للتعزي الذي بدا لهم ضرورياً وحتمياً.

وقد نال الأخت كذلك نصيباً من الرثاء. قال أبو عبد الرحمن العتبي يرثي أُخته:

لقد خانني صبري بأمِّ محمد ... فلم يبقَ لي إلا التَأسُّفُ من جَهْدي
سوى أنَّ صدري تحتهُ مستكنَّةٌ ... من الحزن ما تبقي على الرجل الجَلَد
وإني مذِ اليومِ الذي لم أطق به ... عن ابنةِ أُمي مَدْفَعا لعلى وعْدِ[2]

فالشاعر يصف في أبياته عجزه عن الصبر على فقد أُخته، فهو يعيش حالة من الحزن والتأسف لفقدها؛ لذا فقد خانه الصبر على مصابه الكبير حتى أنّه يحسّ أنّ أجله قد اقترب لا لشدة حزنه فقط، وإنّما؛ لأنّه بدا عاجزاً أمام موتها، فلم يستطع دفع الموت عنها.

ولكن عظمته تلك ومكانته تلك لم تمنعه من الموت، بل ربما جعلته أحق به أكثر من غيره كما قال في الأبيات الأولى، لذا فلن يفيده البكاء

---

(١) الأوراق / ١٨٧.

(٢) التعازي والمراثي/ ١٨٥. المستكنَّة: الوقدة من الحزن.

والحزن، وما على أخيه إلا الصبر والعزاء وليكن الرسول الكريم قدوة فقد فَقَدَ ابنه القاسم ولم يجزع أو يضعف لذلك، ولتكن كذلك أقوال علي بن أبي طالب، وحثه أشعث المذكور على الصبر لكسب الأجر، دافعاً آخر للتعزية والتزام الصبر.

ويلجأ إلى وسيلة أُخرى في حثّه على الصبر فيقول:

خُلقْنا رِجَالاً للتَّصبُّر وَالأسَى ... وتِلْكَ الغوَانِي للبُكا والمآتِم
وأَيُّ فتًى في النَاس أحرَض من فَتَى ... غَدَا في خفَارات الدُّموع السواجم
وهَلْ من حَكيمٍ ضيَّعَ الصَّبرَ بعدمَا ... رَأى الحُكَمَاءَ الصَّبْرَ ضَربَةَ لازِمِ
ولم يَحْدُوا من غيْرِ عامِلِ ... خلافاً ولا منْ عامل غير عَالِم
رأوْا طُرقات العَجْز عُوجاً قَطيعَةً ... وأقطَعُ عَجْزٍ عِندهم عَجْزُ حازِمِ[1]

فالشاعر يذكر معزيه أنّ البكاء للنساء لا للرجال وذلك لأنّه علامة الضعف والخور كما يقول: وإذا كان الأمر كذلك فإنّه لا يجوز لإنسان مثله أن يضيع حكمته بالبكاء والجزع، فخطؤه أكبر من خطأ غيره رجاحة عقله وحزمه المعروفين عنه، ومن كانت هذه صفاته لا يتوقع منه الجزع. ويزيد على مدحه السابق له فيقول فيه وفي أخويه الباقين:

فلا بَرحتْ تَسْطُو ربيعةُ منكُم ... بأرقَمَ عَطْافٍ ورَاءَ الأراقِم
فأنت وصنواك النّصيران إخْوَةٌ ... خُلقتمْ سَعُوطا للأنوف الرَّواغم
ثَلاثَةُ أركانٍ وما انهدَّ سُؤدُد ... إذا ثَبَتَتْ فيهِ ثَلاث دعائم[2]

فهو يأمل أن يبقيهم الله ذخراً لقومهم يقودونهم للمكارم وللأعمال الكبيرة وللسيادة، وهو يرى فيه وفي أخوين آخرين له أركاناً ثلاثة ستظل ثابتة ترغم أنوف الأعداء. وستظل أيضاً ثلاثة دعائم لسؤدد ثابت لا تهده النوائب على عظمتها.

---

(١) ديوان أبي تمام/ج٣/٢٥٩.

(٢) المصدر السابق/ج٣/٢٦٠.

مظاهر الجفاء بين الإخوة

لا تسير علاقة الإخوان دائماً على طريق واحد ممهد بالحب والتكافل والتراحم، فقد تصاب العلاقة الأخوية بشيء من الفتور ونحوه لسبب أو لآخر، ومن ثمَّ قد يكون هذا دافعاً لعتاب الأخ لأخيه.

ومن أسباب العتاب بين الإخوان عدم العيادة في حالة المرض. فقد مرض محمد بن عبد الله بن طاهر، فلم يعده أخوه فكتب إليه معاتباً:

إني وجدت على جفا ئك من فعالك شاهدا
إني اعتللت فما فقد ت سوى رسولك عائدا
ولو اعتللت فلم أجد سببا إليك مساعدا
لاستشعرت عيني الكرى حتى أعودك راقدا[1]

ويأتي جواب أخيه موضحاً عذره. قال:

كحلت مقلتي بشوك القتاد لم أذق مذ حممت طعم الرقاد
يا أخي الباذل المودة والنا زل من مقلتي مكان السواد
منعتني عليك رقة قلبي من دخولي إليك في العُوّاد
لو بأذني سمعت منك أنينا لتفرّى مع الأنين فؤادي[2]

لم يكن عدم عيادته له إذاً تقصيراً ولا إهمالاً كما ظنّ أخوه، وإنّما لكونه محبّاً له حريصاً عليه، وقد بدا الحب والحرص في عدم قدرته على رؤيته إياه يتألم، وكذلك في قلقه وسهاده إثر سماعه خبر مرضه، ولعلّ في تصويره مكانة أخيه من نفسه بجعله إياه مكان السواد من عينيه دليلاً على حبه العميق له، وهذا الحب نفسه هو الذي جعل قلبه (يتفرّى) كلما شكا أخوه أو تألم.

---

(١) العقد / ج٢/ ٤٥١.

(٢) المصدر السابق/ ج٢/ ٤٥١.

وليس كل العتاب على هذا المستوى من الهدوء، إذ قد يشتدّ فيصبح في بعض الأحيان نوعاً من الهجاء، من ذلك العتاب الطويل بين أشجع السلمي وأخيه، إذ يبدو أنّ التنافس حول أيهما أشعر وصل درجة كبيرة مما أدىّ إلى وقوع تصادم حاد بينهما في بعض المناسبات بدا واضحاً من خلال أشعارهما. قال أشجع في أخيه:

أبت غفلات قلبك أن تريحا ... لكأس ما تفارقها صبوحا
فغضّ عن المكارم طرف عين ... إلى اللذات ذا شوق طموحا
كأنك لا ترى حسنا جميلا ... بعينك يا أخي إلا قبيحا
دعتك إلى محاسنها المعالي ... فلم تجد المعالي فيك روحا
أمجنون فليس عليك عتب ... ولست معاتبا إلا صحيحا[1]

ويجيبه أخوه قائلا:

أغرّك أنّ قولك لي قبيح ... وأني لا أقول لك القبيحا
وقد نبئت أنك عبت شعري ... فخذ بيديك هل تستطيع ريحا
ولا والله ما أحسنت شعراً ... هجاء مذ خلقت ولا مديحا
سأعرض عنك إذ أعرضت عني ... وأسكن صدرك القلب القريحا[2]

فهو يشير إلى تلك النظرة المثالية التي يتبناها بعض الأُخوة ومجملها التسامح، وعدم الرد على إساءة الأخ بمثلها، كما هو الحال عند أشجع، ولكن المثالية غالباً لا تدوم إذا أصرّ الأخ على السير في طريق الإساءة، وهذا ما كان منه، فقد رأى الشاعر أنّ مقابلة الهجاء بمثله يمكن أن يردع أخاه، بالإضافة إلى إشارته إلى نظرة المساواة التي يرى كثير من الناس ضرورة توافرها في العلاقة الأخوية، والتي رأى الشاعر أن يتبناها ويعمل بها مع أخيه، ويبدو أنّ سبب التنافس بينه وبين أخيه كان الشعر، فكان كل واحد

---

(١) الأوراق/ ١٣٨.

(٢) المصدر السابق / ١٣٨.

منهما يرى أنّ شعره أفضل من شعر أخيه، وعليه يجب أن يكون مقدماً عند الممدوحين؛ لذا لا يلبث أحدهما أن يعيب شعر الآخر، ويرفع من قيمة ما يقول من شعر.

ومن قول أشجع في أخيه:

إذا خفت عتبي من سوءة ... سبقت عتابي بالغضبه
وما كنت إلا كريش السها ... م ألبسه الريش والقطبه
أيطلب شأوي وما زال لي ... عتاد المقدّم في الحلبه
وما زلت مذ حركتني الأمو ... ر أرفعكم رتبة رتبه
أقدّم شعرك عند الملو ... ك وأكشف عن وجهك الكربه[1]

لقد اشتدّ الشاعر في عتابه أكثر من ذي قبل، ولعل ما أثاره تهمة أخيه له بعدم إجادة قول الشعر؛ لذا سرعان ما بدأ يذكّر أخاه بمكانته في هذا المجال، وليس هذا حسب، إنّما يذكّره أيضاً بأنّ له فضلاً كبيراً عليه إذ كان يساعده ويقدمه حتى يحقق مكانة جيدة سواء في هذا المجال أم في غيره. ويبدو أنّ تذكير الأخ لأخيه بما قدّمه له كان شائعاً بين الأُخوة خاصة في أوقات العتاب أو الغضب، ولكن مثل هذا التذكير غير محبب ومفيد في استرجاع العلاقات بين الإخوان، بل ربما كان سبباً في زيادة الغضب والقطيعة كما كان من شقيق أشجع السلمي حيث ردّ على أبياته السابقة قائلاً:

خطبت ببغضك لي خطبة ... فدونك فاسمع بها خطبه
زعمت بأنك لي مفخرٌ ... وأنت -فلا تعل- لي سبه
فليتك عني بعيد الودا ... د ولم تك مني ذا نسبه
وأني أكلت من قد ولد ... ت فصار التأهل لي عزبه
أتخضم في الماء خضم البعير ... وأطعم من مالي الوجبه
ولي منك إن جئت مستعتباً ... وإن عصف الظلم بي غضبه
فدونك فاشرب على بغضتي ... كما قد شربت بها نخبه[2]

---

(١) الأوراق/ ١٣٨.

(٢) الأوراق/ ١٣٩.

وفـــي ختام الحديث عن العتاب بين الإخوان لا بدّ من الإشارة إلى أنّ العـــتاب بين الإخوان، ومثله الهجاء، قد يكون في مرحلة معينة من حياتهما، وفـــي بعض المناسبات، وقد لا يطول كثيراً إذ سرعان ما تعود العلاقة الطيبة تربط بينهما، ومن ذلك ما ذكرته الروايات من أن أخا أشجع السلمي قد توفي قـــبله فـــرثاه أشـــجع بمراثٍ حارة كثيرة[1] قد تقدم بعضها عند الحديث عن الفجيعة بالإخوان.

وقـــد يتطور ذلك العتاب الذي رأيناه سابقاً عند الإخوان، فيتحول إلى هجـــاء خـــالص، بل قد يصيب العلاقة الأخوية توتر شديد يتحول في بعض الأحـــيان إلـــى القطـــيعة والهجـــران، وقد يتخلله هجاء وشتم، ولعلّ من أهم الأســـباب التي تدعو إلى ذلك كله التنافس بينهما، ورغبة كل منهما في تحقيق الـــتفوق والمكانـــة لنفسه مما يؤدي إلى صراع بينهما يتضح من خلال القول والعمل، من ذلك الصراع الذي كان بين منصور الأصبهاني وأخيه خثنام وفيه يقول منصور:

أقـــول غـــداة العـــيد والـــناس شـــهّد ... ومنـــبرنا العالـــي البـــناء رفـــيع
لعمـــري لئـــن أضـــحى رفـــيعا فإنه ... بمـــن يرتقـــي أعـــواده لوضـــيع
أقـــول إذا مـــا قـــام يـــنهق فوقـــه ... أتـــبلغ هـــذا المـــرتقى وأضـــيع
ومـــن عجـــب الدنـــيا صعودك منبرا ... وحولـــك ألـــف ســـامع ومطـــيع
ومـــا كنـــت أخشـــى مثلها اليوم نكبة ... أذلّ لهـــا، والمســـلمون جمـــيع[2]

ومـــن الهجـــاء ما يكون لأخلاق الأخ المهجو، إذ قد يهجو الأخ أخاه لبخله. قال منصور الأصبهاني في أخيه أيضاً:

---

(١) الاوراق / ١٣٨.

(٢) طبقات الشعراء/ ٣٤٩- ٣٥٠.

قلـــت لخثـــنام علـــى بخلـــه ... يـــا بأبـــي يـــا ذا القـــرون الطـــوال
لـــو تملـــك الأرض بأقطارهـــا ... لكنـــت كشـــخانا علـــى كـــل حـــال
فهمـــة الأنـــذال فـــي بخلـــه ... وهـــمُّ مـــن في البيت جمش الرجال[1]

مثلما كانت صفة الكرم هدفاً للمديح عند الإخوان كانت بالمقابل صفة البخل هدفا للهجاء فالشاعر يذكّر أخاه ببخله وينعته بنعوت كثيرة قد لا تليق بإنســان، ويذهــب إلى أكثر من ذلك فينعت أهل بيته بسوء الخُلق، ويؤكد أن بخل أخيه لازم في حالي الفقر والغنى؛ لذا فلا عذر له إن لم يجد ما يقدمه في حالة الفقر.

ويبدو أنَّ العلاقة المتوترة تطورت بين الأخوين فوصلت إلى مستوى عـــال من الصراع حتى إذا ما أُصيب الأخ بمصيبة في ماله سارع أخوه إلى الشماتة العلنية به، وهذا مستوى كبير من الجفاء والقطيعة. قال:

دلّـــس لـــي خثـــنام بـــرذونه ... وكـــان دهـــرا طالمـــا دلّســـا
كـــان يـــناوي دهـــره موســـرا ... فكـــيف بالـــيائس إذ أفلســـا
لمـــا فشـــا فـــي الـــناس إفلاســـه ... ولـــم يجـــز تمويهـــه غطرســـا
فـــلا تغـــرنك قعاقـــيعه ... مـــا عـــنده شـــيء وإن دخمســـا
لـــم يـــبقَ إلا شـــبح مـــائل ... يـــا ويحـــه فـــي الفقـــر مـــا أفرســـا
قـــرطس فـــي الإفـــلاس مـــن غلوة ... ولـــو رمـــى مـــن فرســـخ قرطسا[2]

إنَّ موقـــف الشاعر الأخ من الحال التي أصبح عليها أخوه ليس سوى الشـــماتة والسخرية، وكأنّه كان يأمل وينتظر ليراه على هذه الحال، ولم يكن يفعل ذلك إلا لضعف الرابطة الأخوية بينهما إلى حد كبير.

ومـــن الذين اشتهروا بهجاء الإخوة الشاعر عبد الصمد بن المعذل فقد كـــثر هجـــاؤه لأخيه أحمد، وفي سبب هذا الهجاء يقول الأصفهاني كان أخوه أحمـــد أيضاً شاعرا إلا أنّه كان عفيفاً ذا مروءة ودين وتقدم في المعتزلة، وله

---

(١) طبقات الشعراء / ٣٥٠.

(٢) المصدر السابق / ٣٤٧. غطرسا: تكبر. دخمسا: خدع. قرطسا: أصاب الغرض.

جـاه واسـع فـي بلده وعند سلطانه، لا يقاربه عبد الصمد فيه، فكان يحسده ويهجوه فيحلم عنه[1] وقد أشار عبد الصمد إلى هذا في هجائه إياه إذ قال:

أطـاع الفريضـة والسـنَّة ... فـتاه علـى الأنـس والجـنَّه
كـأنَّ لـنا الـنار مـن دونـه ... وإفـراده الله بالجـنه
ويـنظر نحـوي إذا زرتـه ... بعيـن حمـاة إلـى كـنَّه[2]

فالشاعر يشير إلى أنَّ قيام أخيه بواجباته الدينية جعله يشعر بالتيه على الناس جميعاً، ولم يجد خيراً من نظرة الحماة إلى الكنّة التي تتصف غالباً بعدم الرضا مثالاً صالحاً على تجسيد نظرة أخيه إليه.

ويـبدو أنّه كان دائم التعرض لـه، والهجوم عليه، فقد قال يهجوه في قصيدة أخرى له:

لـي أخ لا يـرى لـه ... سـائلٌ غـير عاتـبِ
أجمـع الـناس كلهـم ... للئـيم المذاهـبِ
دون معـروف كفـه ... لمـسُ بعـض الكواكـب
وتـراخى مصـيبتي ... فـيه إحـدى المصـائبِ
ليـت لـي مـنك يـا أخـي ... جـارة مـن محـاربِ
نارهـا كـلُّ شـتوةٍ ... مـثل نـار الحُباحِـبِ[3]

ولعـلّ المكانة التي كانت لأخيه، واختلاف أخلاقهما، هي التي جعلته حاسداً له يتعرض له ويهجوه.

وقد كان للمال أيضاً دور في هجاء الأخوات هجاء فاحشاً، من ذلك ما هجا به أبو نخيلة أخته، فقد روى صاحب الأغاني عن بعضهم قال: "تزوجت أخـت أبي نخيلة رجلاً يقال لـه ميار، وكان أبو نخيلة يقوم بمالها مع ماله،

---

(١) الأغاني/ ج١٣/ ٢٢٦.

(٢) شعر عبد الصمد بن المعذل/ تحقيق زهير غازي زاهد/مكتبة النعمان/١٩٧٠/ ١٨٣-١٨٤.

(٣) المصدر السابق/ ص٦٩-٧٠.

ويـــرعى سوامها مع سوامه، ويستبد عليها بأكثر منافعها، فخاصمته يوماً من وراء خدرها، فهجاها بأبيات فيها فحش وبذاءة[1].

ومـــن المؤثرات الأخرى المهمة في إضعاف روابط الأُخوّة، السياسة، وقـــد كنت عرضت لأثر السياسة على الروابط الأُسرية المختلفة في الفصول الســـابقة إلا أنني لم أُفصّل الحديث فيها، واكتفيت بمرور سريع بها مع بعض الأمـــثلة. وآثـــرت تفصيل الحديث هنا؛ لأنّ علاقة الأُخوّة هي أكثر العلاقات الأســـرية تأثرا بالسياسة، وأعني بالسياسة هنا النزاع على الحكم أو الاستئثار بالســـلطة والســـيادة دون صـــاحبها؛ لذا فإنّ الحديث عن أثرها على الأسرة سيكون حديثاً عن الخلفاء وأُسرهم بشكل خاص، وبعد ذلك التوجه إلى العامة، وملاحظة أثر اختلافهم في وجهات نظرهم السياسية على روابطهم الأُسرية.

ومـــن اســـتعراض لأحـــوال التاريخ يلاحظ أنّ التنافس على السلطة والزعامة أمر بارز عند بني البشر مهما كان حجم هذه السلطة وأهميتها إذ إنّ الإنســـان غالباً ما يحب الجاه والمال، ويحب التكلم من علٍ، وإذا وجد فرصة فـــي تحقـــيق ذلـــك فلن يتوانى، وإن حقق بغيته هذه يشعر بالفخر والاعتزاز بالإضـــافة إلـــى القوة والمجد. وكلها أُمور يسعى الإنسان دائما لتحقيقها، وقد يبذل في سبيلها الكثير، ومتى ما حققها يصعبُ عليه التخلي عنها، وإذا أحسّ أنّ هـــناك مـــن ينافسه عليها قد يتمنى الخلاص منه، وأمّا إذا أحس بزعزعة مكانـــه وخـــاف على نفسه من تلك المنافسة، فإنه قد يستخدم القوة دفاعاً عن مكانـــته وحـــياته، وقد يلجأ إلى أعنف السبل للخلاص من منافسيه مهما تكن الروابط التي تربطه بهم، بما في ذلك رابطة صلة الرحم، ومثال هذا ما ورد علـــى لسان الخليفة الأمين- إن صحت الرواية - فقد ذكر المسعودي برواية أحمد بن سلام أنّه " قال له في معرض حديثه في البيت المظلم الذي سجن فيه بعد إلقاء القبض عليه: أشك أنهم سيحملونني إلى أخي، أترى أخي قاتلي؟ فردّ عليه أحمد بقوله كلا، إنّ الرحم ستعطفه عليك، فقال: هيهات إنّ الملك عظيم

---

(١) الأغاني ج٢٠/ ٤٠٧ - ٤٠٨.

لا رحم لـــه"[1] والحقيقة أنّ كثيراً من الأحداث التاريخية تؤكد هذا القول، وقد رأيــنا أثــرها في كل من علاقة الأمومة والأبوّة فلا غرابة إذاً أن تؤثر على علاقة الأُخوّة.

إنّ غريــزة التنافس الموجودة بين الإخوة تحقق شيئا من حب الذات، والعمــل على تحقيق التفوق حتى لو كان أحياناً على حساب العلاقة الأخوية، وأحــداث الــتاريخ العباسي توضح مثل هذا، ولعلّ أوضح مثال لما يمكن أن يكــون للسياسة من دور في تصدع العلاقة الأخوية وانهيارها قصة الصراع بيــن الأمــين والمأمون، فقد أدى التنافس بينهما على الخلافة إلى قتل الخليفة الأمين بعد حرب دامية، وامتد ذلك إلى غيرهما فقد جاء أنّه " قاتل الأخ أخاه والابن أباه، هؤلاء محمدية وهؤلاء مأمونية.[2]

وقــد شاع مثل هذا الخلاف على السلطة في النصف الثاني من القرن الثالث، وزاد القتل بين الأُصول وكان من أسباب انهيار الخلافة العباسية فيما بعد.

كما شاع حبس الإخوة وتعذيبهم، فقد ذكر المرزوقي حادثة قتل المؤيد ولــي عهــد المعتز، فقال : " ونمى إلى المعتز أنّ المؤيد يدبر عليه، وأنّه قد استمال جماعة من الموالي، فحبس المؤيد وأبا أحمد- وهما لأب وأُم- وطولب المؤيــد أن يخلــع نفسه من ولاية العهد، فضُرب أربعين عصا حتى أجاب، وأشهد على نفسه بذلك، ثم اتصل بالمعتز أنّ جماعة من الأتراك اجتمع رأيهم علــى إخراج المؤيد من حبسه، فلما كان الخميس لثمان من رجب سنة اثنتين وخمسين ومائتين أخرج المؤيد ميتاً، وأحضر القضاة والفقهاء حتى رأوه ولا أثر فيه، فقال إنّه أُدرج في لحاف مسموم وشُدّ طرفاه حتى مات فيه[3].

---

(١) انظر مروج الذهب / ج٤/٢٩٤-٢٩٥، وكذلك تاريخ الأمم والملوك/ج٨/٤٨٦.

(٢) راجع في ذلك مروج الذهب/ ج٤/ ٢٧٦.

(٣) المصدر السابق/ ج٥/ ٨٧.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

التعزية بالإخوة

عزّى شعراء العصر العباسي بالإخوان مثلما عزّوا بغيرهم من أفراد الأسـرة، وقد أكثروا في تعزيتهم من الحثّ على الصبر، ومدح المُعزى. قال أبو تمّام يُعزّي مالك بن طوق عن أخيه القاسم:

أمـالك إن الحـزن أحـلام حـالم ... ومهمـا يـدم فـالوجد لـيس بدائم
أمـالك إفـراط الصـبابة تـارك ... جـنا وإعوجاجـا فـي قناة المكارم
مـتى ترع هذا الموت عينا بصيرة ... تجـد عـادلا مـنه شـبيها بظالم[1]

ويعرّج على مناقب الأخ الراحل، فيؤكد ما ذهب إليه الشعراء في رثاء إخوتهم. قال:

وإن تـك مفجوعـا بأبـيض لم يكن ... يشـدّ علـى جـدواه عقـد الـتمائم
بفـارس دُعْمـيٍّ وهضـبة وائـلٍ ... وكوكـب عـتاب وجمـرة هاشـم
شـجا الـريحَ فـازدادت حنينا لفقده ... وأحـدث شـجوا في بكاء الحمائم[2]

فهو نقي لم يرتكب إثماً ولا خطيئة، وهو فارس متفوق ونجم عظيم من نجـوم قومـه، ومـن كانت هذه صفاته، فلا شك أنّ موته سيؤثر في كل من حولـه، فيحزنون لموته، ويبكون لفقده.

ويحثه على الصبر والتعزي، فيجعل لـه من الرسول الكريم مثالاً يحتذيه:

فمـن قـبله مـا قـد أُصـيب نبيّنا ... أبـو القاسـم الـنور المبيـن بقاسم
وقـال علـي فـي التعازي لأشعث ... وخـاف علـيه بعـض تلـك المآثم
أتصـبر للـبلوى عـزاء وحسـبة ... فـتؤجر أم تسـلو سـلو البهائم[3]!

---

(١) ديوان أبي تمام/ج٣/٢٥٧.
(٢) المصدر السابق/ج٣/٢٥٨.
(٣) نفسه/ ج٣/٢٥٨-٢٥٩.

ثانيا ـ الأُخوّة العامة

لقد ترخّصَ الناس في إطلاق لفظة الأُخوّة على الصداقة، انطلاقاً من المبدأ الذي يجعل الناس إخوة في الدين. قال تعالى: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُم** ﴾[1]. وقد أطلق الشعراء لفظة الأُخوّة العامة في الشعر لتعني الصداقة أو ما شابهها، وقد ذكروها في رثاء أصدقائهم وعتابهم ونصحهم، وسلكوا في ذلك كله سلوكهم في الأُخوّة الحقّة. قال أبو العتاهية يرثي صديقه علي بن ثابت الأنصاري:

ألا من لي بأنسك يا أُخيا ... ومن لي أن أبتك ما لديّا
طوتك خطوب دهرك بعد نشر ... كذاك خطوبه نشرا وطيا
فلو نشرت قواك لي المنايا ... شكوت إليك ما صنعت إليا
بكيتك يا عليّ بدمع عيني ... فما أغنى البكاء عليك شيا
كفى حزنا بدفنك ثم إني ... نفضت تراب قبرك من يديّا[2]

ومن العتاب قول ابن الرومي يعاتب أبا القاسم التوزي في قصيدة طويلة منها:

يا أخي أينَ رَيْعُ ذاك اللقاءِ؟ ... أينَ ما كان بيننا من صفاءِ؟
أينَ مصداقُ شاهدٍ كان يحكي ... أنك المخلصُ الصحيحُ الإخاءِ؟
شاهدٌ ما رأيتَ فعلك إلا ... غيرَ ما شاهد له بالذكاءِ
كشفتْ منك حاجتي هَنواتٍ ... غُطِّيتْ برهةً بحسن اللقاءِ
تركتني ولم أكن سيءَ الظـ ... ـن أُسيءُ الظنون بالأصدقاءِ[3]

من الأغراض التي طرقها الشعراء في الأُخوّة العامة ذم الإخوان، وقد ذكر بعض الشعراء الأسباب التي دفعته لذلك، ولعلّ من أكثرهم إيضاحاً لها البحتري في أبياته التالية:

---

(١) سورة الحجرات/ آية ١٠.

(٢) أبو العتاهية أشعاره وأخباره/ ٦٧٥- ٦٧٩.

(٣) ديوان ابن الرومي/ ج١/ ٦٤.

كم من أخ لك لست تنكره ... ما دمت من دنياك في يسر
متصنع لك في مودته ... يلقاك بالترحيب والبشر
يطري الوفاء وذا الوفاء ويـ ... ـحى الغدر مجتهدا وذا الغدر
فإذا عدا- والدهر ذو غير- ... دهر عليك عدا مع الدهر
فأرفض بإجمال أخوّة من ... يقلى المقلّ ويعشق المثري
وعليك من حالاه واحدة ... في اليسر- إمّا كنت- والعسر
لا تخلطنهم بغيرهم ... من يخلط العقيان بالصفر[1]

فالشاعر في أبياته الأولى يقدم وصفاً لنموذج من الأصدقاء الذين يقدرون رابطة الأُخوّة في حالة يسر أصدقائهم فقط، وقد يُظهر هذا الصديق المودة، ويفتعل المحبة، ويؤكد على صفة الوفاء وحسن المعاملة، كل ذلك عندما يكون صديقه في حالة يسر قد يفيد منها، أو على الأقل لن يحتاجه في شيء، لكن تغيّر الحال نتيجة لتغيّر الدهر يجعله يتغيّر معه فلا يعود يعرف معنى الحب والوفاء، ومثل هذا النوع نموذج سيء للإخوان؛ لذا ينصح الشاعر بالابتعاد عنه، وعن معاشرته، إذ لا يعرف سوى وصل الأغنياء وترك المقلين، كما ينصح الشاعر مقابل ذلك بالبحث عن نموذج آخر للإخوان يكون صاحب مبدأ ثابت لا يتغيّر، بل هو محب حقيقي معوان على كل عوادي الزمن مثلما هو مشارك في فوائده، وليس هذا حسب، بل ضرورة اصطفاء مثل هؤلاء الإخوان، وعدم إشراك النموذج الأول معهم في العلاقة الأخوية حتى لا يكون الجمع بينهم كخلط الذهب بالنحاس وشتان بين المعدنين.

من خلال ما سبق، يتضح لي أنَّ الشعراء، وإن خصوا بعض الإخوان بشعرهم كرثاء بعضهم، أو عتاب بعضهم الآخر، فإنهم غالباً ما كانوا يقومون بوصف العلاقة وصفاً خارجياً موضحين فلسفتهم في طبيعة هذه العلاقة، وما يجب أن تكون عليه، مقدمين بعض النصح والإرشاد في هذا المجال كما رأينا عند البحتري في مقطوعته السابقة. ومن الذين أوضحوا طريقتهم في معاملة الصديق محمد بن أبان. قال:

---

(١) ديوان البحتري/ ج٢/ ١١٠٢ .العقيان: الذهب الخالص. الصفر: النحاس.

إذا أنـــا لم أصبر على الذنب من أخ ... وكنـــت أُجازيـــه فأيـــن التفاضـــل
إذا مـــا دهانـــي مفصـــل فقطعـــته ... بقيـــت ومالـــي للـــنهوض مفاصـــل
ولكـــن أُداويـــه فـــإن صـــحَّ سرّني ... وإن هـــو أعـــيا كـــان فيه تحامل[1]

ومن الذين قالوا في مثل هذا المعنى محمود الوراق.

لا بـــر أعظـــم مـــن مســـاعدة ... فاشـــكر أخـــاك علـــى مســـاعدته
وإذا هفـــا فأقلـــه هفوتـــه ... حـــتى يعـــود أخـــا كعادتـــه
فالصـــفح عـــن زلـــل الصديق وإن ... أعـــياك خـــير مـــن معاندتـــه[2]

وقد رسم بعض الشعراء نموذجاً مثالياً للصديق الحقيقي الذي يجب أن يكون عليه. قال:

أخـــي عـــند جـــد الحادثات، وإنما ... أخوك الذي يأتي الرضا حين تغضب
يؤمـــل في لين اللبوس، ويرتجـــى ... لطول، ويخشى في السلاح ويرهب[3]

وقد قال الشافعي في هذا المعنى فبيّن صفات الأخ المفضّل لديه:

أُحـــبّ مـــن الإخـــوان كـــلّ مواتي ... وكـــل غضيض الطَّرفِ عن عثراتي
يوافقنـــي فـــي كلّ أمرٍ أُريـــــده ... ويحفظنـــي حيّا وبعد مماتـــــي[4]

وقد رفع كثير من الشعراء من قيمة هذه الأُخوّة، وقدّمها بعضهم على الأُخوّة الحقّة. قال أحدهم:

---

(١) العقد / ج٢/ ٣١٠.
(٢) المصدر السابق/ ج٢/ ٣١٣.
(٣) ديوان البحتري/ج١/ ١٣٧.
(٤) ديـــوان الشـــافعي / أبو عبدالله محمد بن إدريس الشافعي / جمعهُ وعلق عليه محمد عفيف الزعبي / مؤسسة الزعبي للطباعة والنشر والتوزيع / دار الجيل/ بيروت – لبنان/ط٣/ ١٩٧٤ / ٢٩.

أميل مع الصديق على ابن أمي وأقضي للصديق على الشقيق
وأفرق بين معروفي ومني وأجمع بين مالي والحقوق
فإن ألفيتني حرا مطاعا فإنك واجدي عبد الصديق[1]

والملاحظ على شعر الأُخوّة العامة، على كثرته وتنوع مواضيعه، اهتمام الشعراء بعرض فلسفتهم ورأيهم في العلاقة؛ لذا فإنهم يقومون بشرحها وما يكتنفها من لواحق بالإضافة إلى عرض لصفات النموذج الحسن من الإخوان، والنموذج السيء لهم مع إيضاح لطبيعة تصرف النموذجين، وهم يركزون على قضية تكاد تكون واحدة ألا وهي الصدق في المحبة، والعمل بمفهومها، والوفاء للصديق في كل حال.

ومما يذكر في هذا المجال أنّ الأُخوّة العامة لم ترتفع في المستوى العاطفي، وفي قوة التلاحم إلى مستوى الأُخوّة الحقيقية، بل بقي بينهما بون شاسع سواء كان ذلك في طبيعة العلاقة نفسها، أم في الوصف الذي قدّمه الشعراء لكل من العلاقتين، ففي حين نجد حديث الشعراء حول الأُخوّة العامة وصفاً خارجياً لطبيعة العلاقة، ورسما لمثاليتها، نجد أنَّ الشاعر في الأُخوّة الحقيقية جزء لا ينفصل عنها، فهو أخ على كل حال وعلاقته بأخيه لازمة لا تنفصل عنه سواء أكان ذلك في حياته أم بعد مماته؛ لذا فالحديث عنها أكثر عمقاً، وأكثر تداخلاً، أمّا الحديث عن الأُخوّة العامة، فهو في أغلبه حديث عام عن طبيعة العلاقة أو عن مجموعة الإخوان، وهذا أمر غالب رغم وجود بعض من لمحات الصدق العاطفي، وشيء من العمق التلاحمي خاصة في أشعار الرثاء، ولعلّ طبيعة الموقف هي التي تسمو بعواطف الصديق تجاه صديقه، فتدفعه إلى شيء من الصدق والعمق في حديثه عن علاقته به، ومودته له.

---

(١) نسبت الأبيات في معجم الأدباء لإبراهيم الصولي/ مج١/١٧٤. وفي العقد لعبد الله بن طاهر الخرساني/ ج٢/ ٣١٤.

الخاتمـــــة

هــدَف هذا الكتاب إلى معالجة العلاقات الأسرية من خلال الشعر في العصر العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري، وقد جاء في تمهيد وأربعة فصول هي:

الأول للعلاقــات الزوجــية، والثاني للأمومة، والثالث للأبوّة والبنوّة، والرابع للأخوّة.

بــدت العلاقة بين الزوجين ضعيفة فاترة في كثير من الأحيان يُسيطر فــيها الرجل سيطرة واضحة، فيهجو ويشتم ويطلق لأي سبب معقول أو غير معقــول، ولعــلّ الذي دفع رجال هذا العصر إلى اتخاذ مثل هذ الموقف من نســائهم كــثرة الجواري، وغلبتهن على عقول كثيرين منهم، مما طبع علاقة بعضهم بزوجاتهم بالتبرم والضيق أحياناً، وبالشتم والسخط أحياناً أخرى، وقد دفــع هــذا بعــض النساء إلى الغيرة ، وتدبير المكائد للتخلص من محظيات الــزوج، ولــم يتوانَ بعضهنَّ عن الإقدام على قتل الزوج أحيانا. كما أبرزت بعض الصور المضيئة للعلاقة الزوجية بما فيها من حب ووفاء.

وفي فصل الأمومة أبرز الشعراء الأم وهي تحقق وظيفتها على أحسن وجــه، فكانت عندهم مضرب المثل للتضحية والحرص والحب، لكنّ الأشعار التي خصّت الأمهات بقصائد أو مقطعات كانت قليلة، وقد رُدَّ ذلك إلى طبيعة المجــتمع العربي في ذلك الوقت الذي قلما اهتم فيه الشعراء بما يخصُّ مهام المــرأة وواجــباتها أُمــاً وزوجةً، وما اهتموا به منها – غالباً – كان الجمال الشــكلي الذي خصوه بقصائد غزلهم الشهيرة. هذا بالإضافة إلى تراجع مكانة المرأة بشكل عام في هذا العصر كما بدا واضحاً في فصل العلاقات الزوجية.

أمّــا فــي فصــل الأبوة، فقد برزت علاقة الآباء بأبنائهم قوية بالغة مستوى من العمق يصوّر وعي كثير من الآباء وارتباطهم الوثيق بأبنائهم. أمّا

علاقة الأبناء بآبائهم ، فبدت أقل قوة وأقل عمقاً، وأظهر ذلك كمية الشعر الخاص بها، ودرجة الاهتمام فيه بشكل عام، وقد أبرزت بعض الصور الإيجابية لهذه العلاقة وبعضاً آخر سلبيا.

أمّا في فصل الأُخوّة، قد برزت العلاقة بين الأُخوة (الأشقاء) قوية مترابطة في كثير من الأحيان، فقد بدا هذا الترابط واضحاً في رثاء الإخوان بخاصة إضافة إلى مديحهم والتعاطف معهم. هذا ولم يخلُ شعر هذا العصر من إبراز صور العلاقة الضعيفة بين الإخوة. لقد بدت هذه الصور واضحة في هجاء الإخوة الذي كان السبب فيه التنافس على مكاسب الحياة الدنيا من مال وجاه. وقد كان للسياسة دور كبير في إفساد هذه العلاقة والوصول بها إلى قتل الأخ أو التآمر عليه.

لقد أوضحت أنّ شعر الأسرة انقسم إلى شعر بسيط يميل إلى الشعبية في بعضه، وآخر محكم البناء والنسج رفيع المستوى في اللغة والتراكيب، ولما كانت قصيدة الرثاء هي الغالبة على شعر الأسرة، ومن خلال ما اطلعت عليه من نماذج فقد توصلت إلى نتيجة عامة هي أنّ أكثر القصائد كانت تتبع مناهج متقاربة في بنائها وموضوعاتها لكنّ هناك فرقاً واضحاً بين القصائد الذاتية، وقصائد المناسبات فكانت الأولى أكثر صدقاً وعمقاً وتدفقاً في العواطف، وكانت الثانية أكثر صنعةً وتحكيكاً، وأقل صدقاً، ولعلّ طبيعة موقع الشاعر من الحدث في القصيدتين يفرض هذا. فالشاعر في الأولى صاحب الحدث الذي يعاني من آثاره، أما في الثانية، فهو متعاطف مع صاحبه يحاول تخفيف المصاب عنه، وفرق كبير بين الموقفين، هذا وقد يكون في الثانية منتفعاً أو طالباً لمنفعة، وفي هذه الحالة قد لا يكون دوره أكثر من مسجل لعواطف خارجية يصفها وصفاً دون أن يكون قد عاناها أو أحسّ بها فعلا.

لقد احتاجت الدراسة مني أن أُطل على العصور السابقة لعصرها، لذا قدمت لها بتمهيد، وأشرت فيه لبعض صور التواد الأسري الذي بدا من خلال مراثي الإخوة وغيرهم من أفراد الأسرة، وبروز الاهتمام بالزوجة أو الأبناء من خلال الأشعار والنصائح والوصايا الجاهلية لكنني أشرت أيضاً إلى

كثـــير مـــن صور التفكك الأسري مثل إباحة تعدد الزوجات بلا حدود، وكره البـــنات، وعدم الاعتراف بأبناء الجواري والإماء وغير ذلك، وقد أبرزت بعد ذلـــك تغيير الإسلام لكثير من هذه الأعراف الجاهلية ورفضه لبعضها رفضاً تامـــاً، ورفع قيمة المرأة بنتاً وزوجة وأُمّاً إذ أوصى بها الأب والزوج والابن خـــيراً كمـــا أنّه نظّم علاقة جميع أفراد الأسرة بعضهم ببعض، فأقامها على التكافل والتراحم والتعاون وجعل المودة والحب كفيلين بجلب السعادة والهناءة لجمـــيع أفـــرادها، لكنّ هذا لم يكن واضحاً في التطبيق عند بعض رجال هذا العصـــر، بـــل بقيت آثار الجاهلية تطبع تصرفات بعض الشعراء في العصر العباسي، وربما ما زالت إلى عصرنا الحاضر .

أرجـــو أن أكـــون قـــد خدمـــت البحث بما يجب؛ لأنّ هذا هو هدفي ومقصدي منذ أن بدأت العمل فيه....

والله ولي التوفيق.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- أخبار الشعراء المحدثين في كتاب الأوراق / محمد بن يحيى أبو بكر الصولي / عني بجمعه ، ج . هيوارث . دن / دار المسيرة / بيروت /ط٢ / ١٩٧٩ م.
- أخبار الظراف المتماجنين / أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي / مطبعة التوفيق / دمشق /١٣٤٧ م.
- الأدب في ظل الخلافة العباسية / د. علي جميل مهنا / مطبعة النجاح الحديثة / مراكش- المغرب/ ١٩٨١ م.
- أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم من كتاب الأوراق / أبو بكر محمد بن يحيى الصولي / نشرج . هيواث .دن / مطبعة الصاوي / دار المسيرة / بيروت – لبنان /ط٢/ ١٩٧٩ م.
- الأغاني / أبو الفرج الاصفهاني / تحقيق مجموعة من الأدباء / طبعة دار الكتب / مصر – القاهرة / ١٩٧٦ م.
- الأمالي / أبو علي إسماعيل القالي / دار الكتاب العلمية /بيروت – لبنان /د.ت
- الأمومة في القرآن الكريم والسنة النبوية / محمد السيد الزعبلاوي / مؤسسة الرسالة / ط١ / ١٩٨٤ م.
- البخلاء / أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ / تحقيق طه الحاجري / ط٦ / دار المعارف / القاهرة / ١٩٨١ م.

- بدائع البدائة / علي بن ظاهر الأزدي / تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم / القاهرة / مكتبة الانجلو المصرية / ١٩٧٠ م.
- البيان والتبيين / أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ / تحقيق عبد السلام هارون / دار الفكر / بيروت / ط٤ / د.ت
- تاريخ الأمم والملوك / أبو جعفر محمد بن جرير الطبري / تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم / دار سويدان / بيروت – لبنان / ١٩٦٧ م.
- التعازي والمراثي / أبو العباس المبرد / تحقيق محمد الديباجي / مطبعة زيد بن ثابت / دمشق / ١٩٧٦ م.
- الحياة العربية من الشعر الجاهلي / أحمد الحوفي / دار القلم للطباعة والنشر / بيروت – لبنان / ط٥ / ١٩٧٢ م.
- الحيوان / أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ / تحقيق عبد السلام هارون / منشورات المجمع العلمي العربي الإسلامي / بيروت – لبنان / ط٣ / ١٩٦٩ م.
- ديوان إسحاق الموصلي / جمع وتحقيق ماجد العزّي / مطبعة الإيمان / بغداد / ط١ / ١٩٧٠ م.
- ديوان البحتري / تحقيق حسن كامل الصيرفي / دار المعارف / مصر / ١٩٦٣ م.
- ديوان بشار بن برد / جمع وشرح الشيخ محمد الطاهر بن عاشور / الشركة التونسية للتوزيع والشركة الوطنية للنشر والتوزيع – الجزائر / ١٩٧٦ م.
- ديوان أبي تمّام / شرح الخطيب التبريزي / تحقيق محمد عبده عزام / دار المعارف / القاهرة / ط٢ / ١٩٧٦ م.
- ديوان دعبل الخزاعي / جمع وتحقيق محمد يوسف نجم / دار الثقافة / بيروت / ١٩٦٢ م.

- ديـــوان ديـــك الجن / تحقيق د.أحمد مطلوب وعبدالله الجبوري / دار الثقافة / بيروت – لبنان / ١٩٦٤ م.
- ديوان ذي الرمة / تحقيق عبد القدوس أبو صالح / مؤسسة الرسالة / بيروت . ١٩٩٤ م.
- ديوان ابن الرومي / تحقيق وشرح حسين نصّار / دار الهيئة المصرية العامة للكتاب /ط٢/ ١٩٩٣ م.
- ديوان الشافعي / أبو عبدالله محمد بن إدريس الشافعي / جمعه وعلّق عليه: محمد عفيف الزعبي / مؤسسة الزعبي للطباعة والنشر والتوزيع / دار الجيل / بيروت – لبنان / ط٣ / ١٩٧٤ م.
- ديوان علي بن الجهم / تحقيق خليل مردم بك / منشورات دار الآفاق الجديدة / بيروت – لبنان / ط٢ / ١٩٥٩ م.
- ديـــوان عنـــترة بـــن شداد / شرح الأستاذ عبد المنعم شلبي / المكتبة التجارية / القاهرة / ١٩٥٨م.
- ديـــوان أبـــي نواس / تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي / دار الكتاب العربي / بيروت – لبنان / ١٩٨٢ م.
- الرثاء / د. شوقي ضيف / دار المعارف / مصر / ١٩٧٩ م.
- رثـــاء الأبـــناء في الشعر العربي / د. مخيمر صالح / مكتبة المنار / الزرقاء – الأردن / ط١ .
- رســـائل الجـــاحظ / أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ / تحقيق عبد السلام محمد هارون / مكتبة الخانجي / القاهرة / ١٩٦٥ م..
- ابن الرومي فنه ونفسيته من خلال شعره / إيليا الحاوي / دار الكتاب اللبناني المصري / بيروت – القاهرة / ط٢ / ١٩٨٠ م.
- الزهرة / أبو داود الأصفهاني / مطبعة الآباء اليسوعيين / بيروت – لبنان .

- زهـــر الآداب وثمر الألباب / أبو إسحاق ابراهيم بن علي الحصري القيروانـــي / ضـــبط وشرح علي محمد البيجاوي / دار إحياء الكتب العربية / ط٢ / ١٩٦٩م.
- الزواج والعلاقات الأسرية /د. سناء الخولي / دار المعرفة الجامعية/ ١٩٨٢ .
- شـــاعرات العرب / عبد البديع صقر / منشورات المكتب الإسلامي / بيروت = لبنان / ط١ / ١٩٦٧م.
- شـــرح أشعار الهذليين / أبو سعيد السكري / تحقيق عبد الستار أحمد فرّاج / مراجعة محمود شاكر / دار العروبة / القاهرة / ١٩٦٥ م.
- شرح ديوان صريع الغواني – مسلم بن الوليد / تحقيق د.سامي الدهان / دار المعرفة / مصر / ط٢ / ١٩٨٥ م.
- شـــعر ربـــيعة الرقـــي / جمع وتحقيق د. يوسف بكّار / دار الأندلس للطباعة والنشر / ط٢ / ١٩٨٤ م.
- الشعر والشعراء / أبو مسلم بن قتيبة الدينوري / تحقيق مفيد قميحة / دار الكتب العلمية / بيروت – لبنان/ ط١ / ١٩٨١م .
- الشعر والشعراء في العصر العباسي / د.مصطفى الشكعة / دار العلم للملايين / بيروت / ط٢ / ١٩٨٦ م.
- شـــعر عبدالصـــمد بن المعذل / تحقيق : زهير غازي زاهد / مطبعة النعمان / ١٩٧٠ م.
- شـــعر مروان بن أبي حفصة / جمع وتحقيق د. حسن عطوان / دار المعارف / مصر / ط٣ / ١٩٨٢م .
- صحيح البخاري / الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن المغيرة / مطبعة دار الفكر / ١٩٨١ م.

- صريع الغواني مسلم بن الوليد حياته وشعره / د. عبد القادر الرباعي / دار العلوم للطباعة والنشر / الرياض / ١٩٨٣ م.
- الصناعتين / تصنيف أبي هلال العسكري / تحقيق مفيد قميحة / دار الكتب العلمية / بيروت – لبنان / ط١ / ١٩٨١ م.
- صورة المرأة في الشعر الأموي / د. أمل نصير / المؤسسة العربية للدراسات والنشر / بيروت – لبنان / ٢٠٠٠ م.
- طبقات الشعر والشعراء / ابن المعتز / تحقيق عبد الستار أحمد فرّاج / دار المعارف المصرية / القاهرة / ط٢ / ١٩٦٨ م.
- طبقات المعتزلة / أحمد بن يحيى المرتضى / تحقيق سوسنة ديفلد – فِلْزر / منشورات دار مكتبة الحياة / بيروت – لبنان / ١٩٦٠ م.
- ظهر الإسلام / أحمد أمين / دار الكتاب الغربي / بيروت – لبنان / ط ٣ / ١٩٤٥ م.
- العبر وديوان المبتدأ والخبر / ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد الحضرمي / مؤسسة الأعلمي للمطبوعات / بيروت –لبنان / ١٩٧١م
- العتابي حياته وشعره / د. ناصر حلاوي / دار الطباعة الحديثة / البصرة .
- أبو العتاهية أشعارة وأخباره / تجقيق د. شكري فيصل / مطبعة جامعة دمشق / ١٩٦٥م .
- العصر الجاهلي / د. شوقي ضيف / دار المعارف / مصر / ط١١ / ١٩٨٦م .
- العصر العباسي الأول / د. شوقي ضيف / دار المعارف / مصر / ط ٢ / ١٩٦٦ م.
- العصر العباسي الثاني / د. شوقي ضيف / دار المعارف / مصر / ط ٦ /١٩٨٦ م.

- العقـد / ابـن عـبد ربه الأندلسي / شرح أحمد أمين وآخرين / دار الكتاب الغربي / بيروت – لبنان / ط٣ / ١٩٦٥ م.
- العمـدة / ابن رشيق القيرواني / تحقيق وتعليق محمد محي الدين عبد الحميد / دار الجيل / بيروت – لبنان / ط٣ / ١٩٦٣ م.
- عـيون الأخـبار / أبو محمد مسلم بن قتيبة الدينوري / دار الكتب / مصـر – القاهرة / ١٩٦٣ م/ الكامل في الادب / أبو العباس المبرد/ تعلـيق محمد أبو الفضل إبراهيم والسيد شحاته / دار النهضة / مصر – القاهرة .
- الكامل في التاريخ / ابن الأثير الجوزي / المطبعة الأزهرية المصرية / ط١ / ١٣٠١ هـ.
- لسـان العرب / أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور / المطبعة الأميريَّة / مصر / ١٣٠٠ هـ
- المحاسـن والأضـداد / أبـو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ / شرح يوسف فرحات / دار الجيل / بيروت / ط١ / ١٩٩٧م .
- المـرأة في الأدب العباسي / واجدة الأطرقجي / دار الرشيد للنشر / العراق / ١٩٨١ م.
- مـروج الذهـب ومعـادن الجوهـر / أبو علي بن الحسين بن علي المسـعودي / تحقـيق شارل بلا / طبعة بربية دي بيمار / بيروت / ١٩٧٣م .
- مسـند أحمد / الإمام أحمد بن حنبل / المكتب الإسلامي / بيروت – لبنان .
- معجم الأدباء / ياقوت الحموي / دار إحياء التراث / بيروت – لبنان / ط٣ / ١٩٨٠ م.

- معجم الشعراء / أبو عبدالله محمد المرزباني / تصحيح وتعليق د. ف كرنكو / دار الكتب العلمية /١٩٨٢ م.
- موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية / د. أحمد الشلبي / مكتبة النهضة المصرية / ط٦ / ١٩٧٨ م.
- نزهة الجلساء في أشعار النساء / الحافظ جلال الدين السيوطي / تحقيق د. صلاح الدين المنجد / دار الكتاب الجديد / بيروت – لبنان / ط٢ / ١٩٧٨ م.
- نظام الأسرة في الاسلام / د. محمد عقلة / مكتبة الرسالة الحديثة / عمان – الاردن / ط١ .
- أبو نواس في تاريخه وشعره ومباذله وعبثه ومجونه / ابن منظور المصري / قدم له عمر أبو النصر / مطبعة النجوى / بيروت – لبنان / ١٩٦٩ م.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
الإهداء	٣
الشكر	٤
التقديم	٥
المقدمة	٩
التمهيد	١٣
الأسرة في اللغة	١٣
أهمية الأسرة	١٥
(الفصل الأول)- العلاقات الزوجية	٢٣ــ٦٦
أولا- الوئام بين الزوجين	٢٥
ثانيا- دوافع الإثارة بين الزوجين	٣٨
- الغيرة	٣٨
- المفاخرة بين الزوجين	٤١
- تعدد الزوجات	٤٢
ثالثا- الخصومات الزوجية وأسبابها	٤٤
- المال	٤٤
- الجواري والقيان	٥١
رابعا- الطلاق	٥٧
خامسا- هجاء الزوجات	٦٣
سادسا- التشاتم بالزوجات	٦٥
(الفصل الثاني)- الأمومة	٦٧ــ١٠٠
أولا- شعر الأمهات في الأبناء	٦٩
ثانيا- شعر الأبناء في الأمهات	٧٧
ثالثا- الأم في شعر المناسبات	٩١

(الفصل الثالث)- الأبوّة والبنوّة..... ١٠١ــ١٧٥
أولا- شعر الأبوّة..... ١٠٣
- خوف الآباء على أبنائهم..... ١٠٤
- النصح والإرشاد..... ١١٢
- الشوق والحنين..... ١١٨
- رثاء الأبناء..... ١٢٠
- هجاء الأبناء..... ١٤٦
ثانيا - شعر الأبناء في الآباء..... ١٤٧
- رثاء الآباء..... ١٤٨
- عقوق الآباء..... ١٥٢
ثالثا- الأبوة في شعر المناسبات..... ١٥٧
- التعزية بالأبناء..... ١٥٧
- شعر التهاني..... ١٧٠
(الفصل الرابع)- (الأخوّة)..... ١٧٧ــ٢١١
أولا- الأخوة الحقيقية(الأشقاء)..... ١٧٩
- مظاهر الجفاء بين الإخوة..... ١٩٩
- التعزية بالإخوة..... ٢٠٧
ثانيا- الأخوّة العامة..... ٢٠٨
الخاتمة..... ٢١٢
المصادر والمراجع..... ٢١٥
فهرست المحتويات..... ٢٢٣

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

دار الإسراء للنشر والتوزيع
الأردن - عمان - العبدلي - مقابل الكراجات - تلفاكس٤٦٢٠٧١٦
جبل عمان - الدوار الأول - تلفاكس٤٦١١٥٩١ ص.ب١٨٢٤٤١ عمان - الأردن